2267
.156
.366

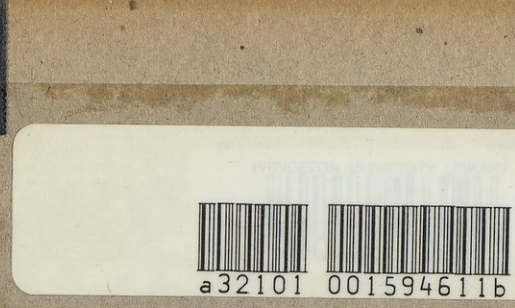

DUE JUN 15 1990

DATE ISSUED DATE DUE DATE ISSUED DATE DUE

SEP 27

DUE JUN 15 1989

FEB 14

JUN 15 1

DUE JUN 15 1991

DUE JUN 15 1992

XXXXXXX JUN 15 2011

XXXXXXXXXXXX

DUE JUN 15 1984

MAR 2 1984

مذكرات البارودي

من شاء منكم أن يعز بلاده
فليسع سعي معزها البارودي
("الرسائل")

الجزء الاول

بيروت - دمشق ١٩٥١
١٣٧١هـ - ١٩٥١ م

al-Bārūdī, Fakhrī

إذا اختصم الحق وأخي، فأنا مع الحق ارسطو

Mudhakkarāt

مذكرات البارودي

ستون سنة تتكلم

بقلم
فخري البارودي

بيروت - دمشق ١٩٥١

طبع على مطابع دار «الحيـــاة»

الاهداء

الى شبـاب العرب :

اهدي مذكراتي هذه ليطلعوا فيها على صفحات من تـــاريخ بـلادهم الحديث لعلهم يجدون فيها عبرة وذكرى .

دمشق ، اول اب ١٩٥١

فخري البارودي

4-6-57 0.1.7.

2267
.156
.366

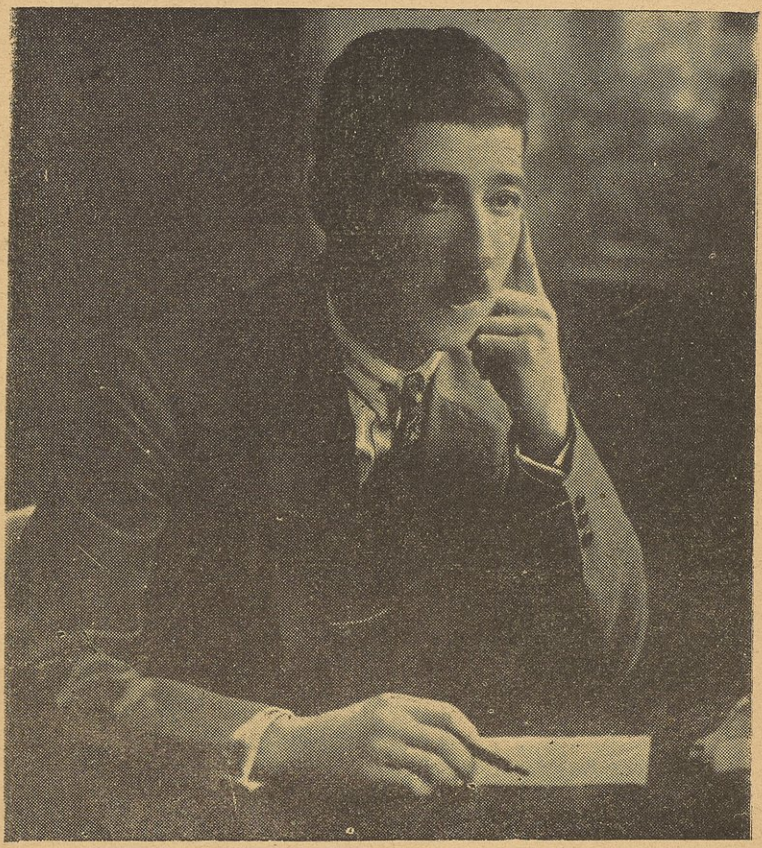

رسمي

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

طلب الي كثير من الاخوان أن انشر مذكراتي . ولما لم تكن لدي مذكرات يومية مدونة ، فقد اعتذرت . ولما الحوا ، عدت الى ما دونته ، والى ذاكرتي استمد منها الوحي .

ليس المهم فى كتابة المذكرات سرد الحوادث التى تمر بالانسان بل بيان اثرها فى حياته . والواقع ان المذكرات التى تعنى بالتوجيه الخفي هي التى تنال شأنا . فسرد حوادث البطولة هو توجيه خفي نحو البطولة ، وذكر الام الوطن وبيان ما مر به من محن ، هو توجيه غير مباشر لتقديس الوطن والدفاع عنه .

واهم ما فى المذكرات هو وصف حياة الكاتب وروحه وبيئته ليجد فيها القارىء صورة واضحة للكاتب وللمجتمع فيحس وهو يقرأها ان الكاتب حي الى جانبه ، يحدثه ويقص عليه اخباره ، فيكون شاهد عيان خالد ، يساعد المؤرخ على ايضاح الحقائق .

ويجب ايضا الا تفقد المذكرات روح الحكاية ، وان يحس القارىء انه يقرأ فيها قصة حياة ، وحياة وطن فى فترة معينة

ـ لا ان يشعر انه امام كتاب معلومات جاف . فالمعلومات تفقد رونقها اذا لم تكن مطبوعة بطابع الكاتب ، ممزوجة بعاطفته وخفقات قلبه .

على هذا اقدم الى القراء هذه المذكرات ، كتبتها بكل صدق وامانة ، وعملت بقول الحكيم القائل : «اذا اختصم اخي مع الحق فانا مع الحق » .

دمشق في ١ـ٨ـ١٩٥١

فخري البارودي

هارب من الموت

في صباح يوم من ايام الخريف ، سنة ١١٨٩ هجرية (١٧٧٥ ميلادية) ، طرق شاب غريب باب دار آل الشويكي ، في محلة «الشويكة» اليوم ، وكانت في ذلك الزمن قرية في ضاحية دمشق القريبة ، ففتح الباب ، وخرج منه كهل استقبل الطارق ببشاشة .

كان الطارق فتى في ريعان الشباب ، ثيابه رثة ملطخة ، فحيا صاحب الدار ، وسأله : اهذه دار الشيخ عبد الحليم الشويكي ؟

فاجابه : نعم هذه داره ، فماذا تريد ؟

قال : لي حديث طويل اريد ان اقصه عليك !

ادخله الرجل الى الغرفة الاولى من الدار ، المعدة للضيوف ، ورحب به . وما ان استقر به المقام ، حتى طلب شيئا يأكله ، قائلا انه لم يذق طعاما منذ يومين . فسارع صاحب الدار وجلب ما وجد من حواضر البيت ، فأقبل الضيف يلتهم الطعام التهاما لشدة جوعه

حدق صاحب البيت ، سعيد بن عبد الحليم الشويكي ، في الضيف الشاب ، فتمثل فيه ملامح صديق قديم لجده عبد الغفار الشويكي ، يدعى الشيخ ظاهر العمر(١) ، فقد كان ظاهر العمر ـ

---

(١) جاء في دائرة معارف البستاني ان ظاهر العمر كان حاكم عكاء وشيخ مشايخ بلاد صفد . وما لبث ان ضم اليه طبريا وصيدا . خرج على الدولة العثمانية في اواسط القرن الثامن عشر ، فجهزت الدولة عدة حملات ضده ، فعادت كلها خائبة . وفي سنة ١١٨٩هجرية جرد حاكم مصر محمد ابوالذهب حملة ضد الظاهر ، بايعاز من الدولة ، فاستولى على غزة ، ثم على عكا . وقد هرب الظاهر اولا الى جبال صفد ، ثم الى صيدا التي كان يحكمها اخد رجاله احمد اغا الدنكزلي . وهنا جردت الدولة اسطولا حاصر صيدا بقيادة حسن باشا ، فانقلب الدنكزلي على سيده ورفض محاربة الاتراك ، وظل الظاهر يحاربهم وحده حتى قطع امله من النصر ، ففر من صيدا قاصدا بلاد بشارة ليحتمي عند صديقه الشيخ قبلان ، من اسرة علي الصغير ، في قلعة هونين . وفي الطريق كمن له الدنكزلي وقتله .

كهذا الشاب ـ ابيض البشرة ، واسع العينين ، صغير الفم ، رقيق الشفتين ، طويل الحاجبين ، مدور الانف ، طويل الذراعين ، خفيف الشعر اسوده(٢) . وكان ظاهر العمر يتردد على بيت عبد الغفار قديما . فلما توفي عبد الغفار ، استدعى ظاهر نجله الشيخ عبد الحليم الى عكا ، فسافر اليها بين ١٧٣٢ و١٧٣٥ . وكان عبد الحيم فقيها شاعرا ، ففوض اليه ظاهر امر الفتوى فى عكا والبلاد الخاضعة لحكمه ، واختاره مربيا لاولاده ، يدرسهم الادآب والفقه .

ظل سعيد يتفرس فى وجه ضيفه وهو يأكل ، ويسائل نفسه : أيكون هذا الشاب من انسباء ظاهر العمر ؟ لقد سمع سعيد أخيرا ان الحرب وقعت بين ظاهر العمر والعثمانيين ، وان حاكم مصر ، « ابا الذهب» جرد جيشا وزحف به على عكا ، ففر ظاهر العمر امامه. ترى هل فر هذا الشاب ، هو الاخر ، من عكا ، وجاء ينشد ملاذا فى دار الشويكي ؟

***

لم يكن سعيد مخطئا فى حدسه ، اذ ما انتهى الضيف من الاكل حتى قال : رأيتك تحدق بي كثيرا ، فهل تريد ان تعرف من آنا ؟

فاجاب سعيد : نعم ... يخيل لي انك من آل الظاهر ، أليس كذلك يا ضيف الخير ؟

قال : اصبت ، انا محمد بن احمد بن ظاهر العمر . وقد تركت قريبكم الشيخ عبد الحليم الشويكي فى بلاد بشاره ، واظنه التجأ الى بيت علي الصغير «شيخ المتاولة» .

فنهض سعيد وعانقه قائلا : انا ابن الشيخ عبد الحليم !

راح الضيف يسرد حكايته ، فقال ما خلاصته : بعد احتلال عكا ، هربت مع جدي الظاهر ، وبقيت معه حتى مقتله على يد احمد

---

(٢) هذه صفات ظاهر العمر كما وردت فى تاريخ «الشيخ ظاهرالعمر» للخوري قسطنطين الباشا المخلصي (ص ١٤٩) .

اغا الدنكزلي . وكان والدك الشيخ عبد الحليم معنا ، فتركته في بلاد بشاره ، ولجأت هناك الى بيت علي الصغير ، وفي نيتي السفر الى دمشق ، وقد آووني واطعموني ، ثم دلوني على الطريق الى دمشق. ومنذ خمسة ايام وانا اسعى من قرية الى قرية ، حتى وصلت صباح اليوم الى هنا . ولما لم يكن لنا في دمشق من اصدقاء غير آل الشويكي، فقد بحثت عنهم ، فدلوني على داركم ، واحمد الله اني حظيت بك ، اني اريد الاختفاء في مكان لا تصل اليه يد الدولة ، لاكون امينا على حياتي حتى يقضي الله امرا كان مفعولا ، فأشر علي بما افعل !

فطمأنه سعيد وهدأ من روعه ، قائلا : انت بعد اليوم منا ، فلا بأس عليك . قم واسترح ، وغدا نرى ما يكون !

***

في صباح اليوم التالي اصطحبه سعيد الى الحمام ، واستبدل له اسماله بثياب شامية . وبعد ايام اخذه الى رئيس مصنع بارود (الأوجاق ـ اليكيجري) الانكشارية وكان صديقا له، فقدم اليه محمدا، زاعما انه نسيبه ، وطلب له عملا في المصنع ، فقبله الرئيس حالا وسلمه الى «الاسطه» ، اي رئيس العملة ، ليعلمه الصنعة . ومنذ ذلك الحين ، تحول اسمه من محمد الظاهر الى محمد البارودي .

وبعد زمن اتقن محمد الصنعة، واصبح رئيسا للمصنع، واحرز رتبة الاغوية . ولم يمض على دخوله دمشق بضع سنوات حتى تزوج ورزق عدة أولاد . وقد لاقى حتفه بحادثة انفجار في المصنع ، فقذفه الانفجار من محلة السنجقدار الى امام دائرة المشيرية في الساحة العسكرية (وهي قصر العدل اليوم) ، فتكسرت اضلاعه ، ولم يسلم غير رأسه . وقد بقي حيا ثلاثة أيام ينازع الموت . وفي اليوم الثالث عاد ولده حسن من الحج ، فمات قرير العين برؤيته .

***

يتضح مما ذكرت ، ان جدي الاول ، محمد بن احمد بن ظاهر العمر ، الذي تلقب بالبارودي ، دخل دمشق سنة ١٧٧٥ م. وعلى

هذا الاساس اكون انا : فخري بن محمود بن محمد حسن بن محمد بن حسن بن محمد الظاهر (الملقب بالبارودي) بن احمد بن ظاهر العمر

اما نسبي من جهة والدتي ، فانا فخري بن نظيرة ابنة امين بن سليمان العلمي ، المعروف بالكيلارامينى ، واصله من القدس .

ولم اذكر نسبي هذا على سبيل التفاخر ، بل لتسجيل الواقع، ورحم الله الشاعر القائل :

قالوا : «ابن من انت يا هذا ؟» ، فقلت لهم :
«اني امرؤ جده الاعلى ابو البشر !»

قالوا : « وهل نال مجدا ؟ » ، قلت : « واعجبي ،
اتسألوني بمجد ليس من ثمري ؟ »

***

ولدت فى الساعة الرابعة من صباح يوم الخميس ، الواقع فى ٥ رجب سنة ١٣٠٤ هجرية، فى دارنا فى حي القنوات بدمشق.

وكان جدي محمد حسن البارودي قد سافر يومئذ الى بيروت فى طريقه الى الاستانة، ونزل فيها ضيفا على صديقه فخري بك ، والد الداماد احمد نامي ، فابرق كاتب دائرتنا يوسف افندي الكاتب الى جدي يبشره بولادتي ، فاجابه جدي مباركا ، تاركا لوالدي الخيار فى ان يسميني اما «محمد فخر الدين » او « واصل » ،

والدي محمود البارودي
(توفى ١٣٣٢ هجرية)

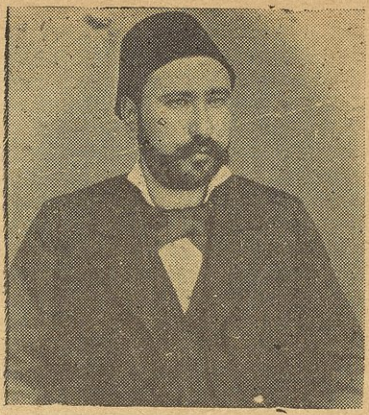

جدي لوالدي محمد حسن البارودي
(توفى ١٣٠٧ هجريـــة)

فاختار والدي الاسم الاول . ومع الزمن حذف الناس منـه اسم « محمد » ، ثم ما لبثوا ان لقبوني بـ « فخري » وحذفوا « الدين »، وهكذا استقر اسمي نهائيا على « فخري » وحده ، وما زال كذلك الى اليـــوم .

●

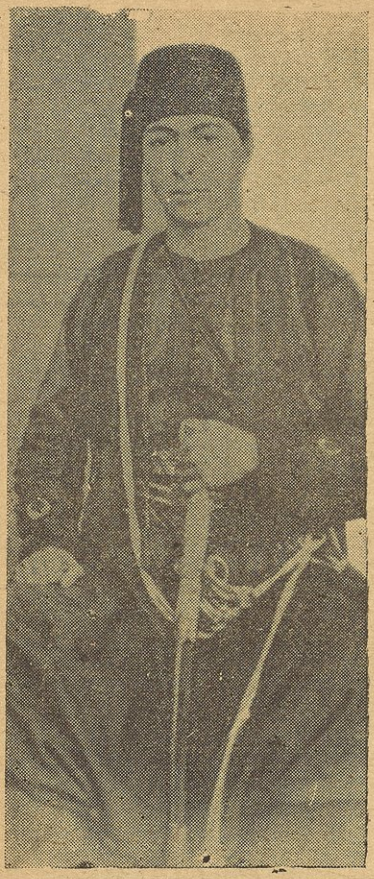

جدي لوالدتي امين العلمي الكيلارامينى ، وهو بلباس « السلاحشور » اي حرس السلطـــــان عبد العزيز .

عهد الكتائب

نشأت فى محيط «ارستقراطي» بالنسبة لذلك الزمن . كان آل البكري اخوال والدي ، وابناء العظم ابناء عمة والدتي ، وآل العلمي أولاد عمها ، وآل العابد والركابي وشيخ الارض والشيخ فضلي والحسيبي وغيرهم من اصهارنا . ونظرا لكثرة التزاوج بين الاسر الدمشقية ، كانت اسر كثيرة تمت الينا بالنسب .

ولما كنت وحيدا لوالدي ، ولم يكن فى هذا الفرع من آل البارودي ولد ذكر سواي ، فقد ربيت بالدلع والدلال ، على ايادي الاهل واكتاف الحشم . ولولا لطف الله ، وانتسابي فى شبابي لحلقة الناهضين من تلامذة الشيخ ظاهر الجزائري رئيس الاحرار فى القرن التاسع عشر ، لكنت اليوم فى عداد الموتى الاحياء !

كان ذلك المحيط محيط نفاق وجهل . وكل من اراد التقرب من الاغنياء لقضاء حاجة ـ حتى ولو كان منتسبا الى الامام علي كرم الله وجهه ، او الى احد الصحابة الكرام رضي الله عنهم ـ يغدق عليهم المديح والثناء جزافا ، فيصدقونه ، وتنتفخ رؤوسهم بغرور دائم . ولا ابالغ اذا قلت ان اكثرهم كانوا ينظرون الى الناس نظرتهم الى العبيد والخدم .

وما زلت اذكر كيف كان هذا التأليه ينعكس فى احاديث الناس ، فقد كنا نسمع الخدم والمزارعين والباعة يذكرون امامنا آباءنا واجدادنا بهذه اللهجة : رحم الله جدك ، ما كان ابهى طلعته ، وما اكرمه ، وما اعظم جاهه . كان عندما يمر فى المحلة ، ينهض الناس اجلالا له ، ويفتحون له الطريق الخ .

هكذا كانوا يحسبون سلام الباشا أو البك نعمة من الله . وفى وسط هذا المحيط نشأت . واني احمد الله انه يسر لجدي احضار مرب لي ، خلصني من ايدي الخدم الجهلاء . ذلك ان السلطان عبد

الحميد لما تولى الملك بعد خلع السلطان مراد ، طرد حاشية السلطان المخلوع ، فتفرق افرادها فى انحاء المملكة ينشدون عملا ، وجاء بعضهم الى دمشق ، فاستخدم جدي منهم مصطفى اغا رئيس طباخي السراي (اشجي باشي) والخصي خير الدين اغا (حرم اغاسي) . وقد اختار خير الدين مربيا لي ، فكان لا يفارقني لحظة ، ويسهر على تربيتي ، ويمنع الاهل والاصدقاء من مداعبتي بكلمات نابية .

***

الخدم والحشم : كان ذوات تلك الايام ، ومعظمهم من اصحاب المزارع الاغنياء ، يكثرون من اقتناء الخدم . فلكل ذات فى داره «وكيل خرج» يشرف على مصروف الدار ، وكاتب للمحاسبة ، وقهوجي ، وحوذي وندل (سفرجي) وسائس . وكانت بيوت «الاكابر» تعج بالخدم من سود وبيض ، خاصة بالمماليك المنتمين الى الشركس والكرج . وكانوا يقتنون ايضا الجواري على اختلاف الوانهن ، ويستولدون الاماء . ومنهم من كان يعترف بولده ، ومنهم من يحرمه اكراما لزوجاته واولاده .

وكان جميع الخدم تقريبا اميين جهلة ، خصوصا ان الذوات كانوا يبحثون عن ارخص الخدم اجرا ، ليوفروا بعض دريهمات فى الشهر . على ان بعضهم كانوا يحسنون معاملة الخدم ، فيستبقونهم فى بيوتهم حيث يتزوجون ويصبحون كأفراد العائلة .

ومما يؤسف له ان تربية الاولاد كانت فى ايدي الخدم الجهلة ، وما تزال كذلك الى اليوم . وانه لمن المؤلم أن حكوماتنا العربية لم تعر هذا الموضوع الاهمية المناسبة حتى الان ، فلم تفتح مدارس لاعداد مربيات الاطفال والخدم .

***

الخجا نفوس(١) : كان فى دمشق نساء يعلمن القرآن

---

(١) الخجا كلمة اصطلحوا على اطلاقها على المرأة التي تعلم الاطفال مبادىء القراءة . وهي مشتقاة من كلمة « خواجة » التركية ، ومعناها المعلم .

الكريم دون سواه ، فارسلتني والدتي الى دار احداهن «الخجا نفوس» ، فى محلة التعديل فى القنوات .

كانت دارها صغيرة ، فيها غرفة متسعة ، يجلس فيها الاولاد. منهم من يأتي بطراحة ، ومنهم من يأتي بجلد شاة . ولا يزيد عمر اكبرهم عن السابعة . يجلسون من الصباح الى المساء فى هذه الغرفة الرطبة . واذا تكلم احدهم او لعب اكل «الفلقة» . وكانت الخجا نفوس كسيحة ، لديها عصي كثيرة مختلفة الطول لضرب الاطفال ، فلا يفوتها طفل قريب او بعيد .

وكانت كبيرات البنات يقمن بخدمة الدار من كنس وشطف وجلي . اما الصبيان فمنهم من يشري حوائج الخجا ، ومنهم من ترسله لجلب «الزوادات» من دور اولاد الاغنياء . اما انا فنظرا لرشاقتي وخفتي ونباهتي ـ على رأيها ـ فقد سلمتني معالجة بعض مشاكل الاولاد .

وكان من تلامذة الخجا المرحوم منير الدلاتي (ابو عصام) . وكان لا يحسن اخراج الحروف صحيحة لصغره ، فاقرأته الخجا يوما حرف الذال ، فلفظه كالزاي ، ولما كررت له الحرف ولم يضبطه، غضبت واحضرت خيطا رفيعا من «المصيص» وعقدت به لسانه عقابا له . ولم يمض عشر دقائق حتى ضب اللسان على الخيط وتورم ، وازرق وجه الطفل . ولما رأت اخته «افاكت» ذلك ركضت عائدة الى بيتها ، فرأت والدها المرحوم محمد الدلاتي امام الباب فاخبرته بما جرى ، فاسرع مع جاره علي الساطي الطبيب الشهير ، الى دار الخجا .

وحاول الساطي قطع الخيط ، فلم يتمكن من ادخال مقصه الرفيع ، لان اللسان كان قد غطى الخيط . وكانت حالة الطفل تزداد سوءا ، وقد جحظت عيناه وكادت روحه تزهق ، لولا ان الله وفق ، وتمكن الساطي من ادخال ميل رفيع بين اللحم والخيط ، فرفع طرفا من الخيط وقطعه بالمقص، فنجا الطفل .

وعلى الاثر شتم الوالد الخجا شتما قبيحا وأنبها تأنيبا عنيفا واخذ ولديه وذهب بهما . ولم يعودا بعد ذلك الى الخجا .

وكنت امازح منيرا بعد ان كبر ، ودخلنا المدرسة الاعدادية . وكان طويل اللسان ، فاقول له : «ليت الخجا قطعت لسانك يا مفزور !» ، فيغرق فى الضحك !

* * *

«الختمة» : من المعلوم ان اولاد المسلمين كانوا يحتفلون باكمال قراءة القرآن الكريم فى الكتاب او الخجا بختمة. وكان للختمة احتفال خاص . وهكذا اقاموا لي مهرجانا يوم ختمت القرآن ، فخرج الطلاب جميعا من دار الخجا نفوس الى دارنا فى موكب مشى فيه الطلاب بصف مزدوج ، ينشدون الاناشيد المدرسية . وكان عمري ست سنوات آنذاك . ومن الاناشيد التي انشدوها :

سلام سلام سلام سلام
سلام عليكم كثير السلام

ومنها : بلبل الاقبال غرد وبشير السعد قال
ظهر الهادى محمد شمس افلاك الكمال

ولما وصل الموكب الى دارنا وقف والدي وجدي لامي ، وجمع غفير من اخوال والدي ووالدتي مع بعض اصدقاء والدي فى باحة دارنا «البراني» الخارجية الخاصة بالرجال ، وتناول احدهم المقرأ ـ ويسمونه كرسي المصحف ـ من على رأس حامله ، فوضعه على حافة حوض الماء (البحرة) ، والمصحف فوق الكرسي ، ووقفت امامه وانا مرتد ثيابا مزركشة بالفضة صنعت خصيصا ليوم الختمة ، وعلى رأسي طربوش زينوه بالماس واللؤلؤ . ثم رفع الطربوش وكيل خرج دائرتنا امين اغا ابو كامل ، وابدله بطربوش جديد بدون حلى، وبدأت قراءة الفاتحة ثم قرأت من اول سورة البقرة ، حتى وصلت الى الاية الكريمة : «والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك

وبالاخرة هم يوقنون. اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون، ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى ابصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم»

ولما وصلت الى هنا ، خطف اكبر الاولاد طربوشي وركض به الى والدي واعطاه اياه مباركا له بالختمة . فأعطاه والدي دينارا ذهبا «حلوانا» له مع الطربوش ، وفرق على كل من الاولاد ريالا مجيديا .

* * *

الختان : ما تزال حفلات الختان التي تقام اليوم فى احياء دمشق النائية ، كما كانت قبل خمسين سنة : يقام الاحتفال فى دار صاحب الختان ، ويحضره تلامذة الخجا او الكتاب الذي يتعلم فيه المختون ، كما يجري فى مهرجان الختمة .

بمناسبة ختاني اقاموا لي مهرجانا فخما ، وزين اهلي رأسي بالماس والجواهر ، واركبوني حصانا سارت امامه صفوف الطلاب بالاناشيد السابقة (سلام سلام سلام سلام) ، فطاف الموكب سوق الحميدية وسوق الطويل ، ثم عدنا الى دارنا .

وبعد ان اكل المدعوون ورفقائي وتلامذة الخجا الحلويات ادخلوني الى غرفة خاصة ، فامسكني رجل قوي العضلات ، بينما اجرى لي الجراح علي الساطي عملية الختان . وكانت العادة ان يجريها المزين (الحلاق) لا الطبيب . وما زلت اذكر ان جرحي لم يشف بسهولة ، فتعذبت ثلاثة اشهر . وقد وعدت والدتي ان تقيم لي «سيرانا» كبيرا عند شفائي وبرت بوعدها .

الكتاب : الكتاب هو شبه مدرسة اهلية ، يتعلم فيها الصغار مبادىء القراءة والكتابة والحساب عند شيخ يتناول اجره اسبوعيا. وكانت الاجرة تسمى «خميسية» لان الاولاد كانوا يأتون بالمرتب يوم الخميس ، وكان يتراوح بين القرش والبشلك فى الاسبوع .

وكثيرا ما كان الوالد ينقل الولد من كتاب الى كتاب ، ليقتصد نصف قرش. وكان الاغنياء يعطون المعلم زيادة عن الخميسية رغيف من الخبز.

والكتاب عبارة عن غرفة رطبة يجلس الاولاد فيها على الارض فوق الحصير ، وامام كل طفل صندوق صغير يضع فيه صبرته(١) وادواته . وكان اكثر الشيوخ من اشباه المتعلمين ، ممن اغلقت فى وجوهم ابواب الرزق ، فتسلطوا على هذه الصنعة للارتزاق .

والواقع ان الكتاتيب كانت زرائب لحبس الاطفال فى النهار ، حتى ترتاح امهاتهم منهم . وكان الشيخ يستخدم الاطفال كما يريد، فمنهم من يكنس ، ومنهم من يشطف ، ومنهم من يقوم بخدمة ساقي الشاي للشيخ وضيوفه .

***

انا فى الكتاب ـ بعد الختمة والختان ، ارسلني اهلي الى كتاب « الشابكلية » فى محلة القنوات . وقد وقع الاختيار عليه لانه قريب من دارنا، فلا يبعد عنها أكثر من ستين مترا .

كان الكتاب عبارة عن غرفة عفنة، اشبه بالسجن منه بالمدرسة وكان شيخه الشيخ عثمان المصري طاعنا فى السن ، يتجاوز عمره الثمانين . وكنت اجلس الى جانب النافذة ، اتطلع منها الى الخارج، ولا افهم كلمة مما اسمع .

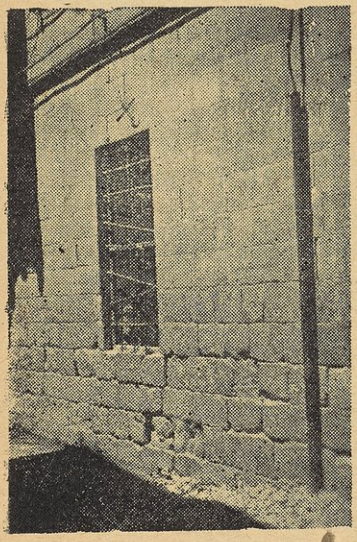

نافذة كتاب « الشابكلية » التي كان فخري يجلس الى جانبها

(١) الصبرة هي اسم الرسالة التي كان يقرأ فيها الغلام مبادىء القراءة وما تزال تدعى بهذا الاسم فى المدارس الصغيرة .

هكذا لم اتعلم عند الشيخ عثمان كلمةواحدة تزيد عما قرأته عند الخجا نفوس . فنقلني والدي الى كتّاب «القبة» ، عند مدخل الدرويشية فى القنوات . وكان شيخه فظا قاسيا ، ومع ذلك تعلمت عنده شيئا من مبادىء الكتابة والحساب .

وبعد بضعة أشهر استعار والي سوريا ناظم باشا دارنا فى القنوات ، وتعهد بان يسلمنا اياها بعد بضعة أشهر ريثما يجد دارامناسبة له . وعلى الاثر انتقلت عائلتي الى بلدة «دوما» حيث تملك دارا واسعة . وبدلا من ان يعيد الينا الوالي دارنا فى دمشق فى بضعة اشهر ، ظل فيها سبع سنوات...

اما انا فقد نقلني والدي مع العائلة من كتاب دمشق ، الى كتاب الشيخ عرابي فى دوما، وهو واقع فى داخل جامع «ابي الرهج». وكان الشيخ عرابي شرسا ، لا يعرف وجهه الضحك ، وكانت غرفة الكتاب لا ترى الشمس ابدا ، فساءت حالتي الصحية من التردد عليه ، وعندئذ نقلني والدي الى كتاب الشيخ احمد مجيد فى جامع الريس ، فى الحارة الشرقية . وكان هذا الشيخ حسن الخط والخلق فعلمني فى مدة قصيرة الحساب والقراءة والخط ، ثم ادخلني فى طريقته ، وهي الطريقة الرشيدية . وكان هو شيخ هذه الطريقة فى دوما . وهي احدى الطرق الصوفية .

وبقيت فى هذا الكتاب الى أن تركنا دوما وعدت مع اسرتي الى دمشق ، حيث استأجر والدي دارا فى السنجقدار لان الوالي لم يشأ ان يترك دارنا فى دمشق . وعندئذ دخلت المدرسة العازرية مما سيرد تفصيله .

* * *

ثلاث أواق لحمة : عندما كنت فى دوما ، وقعت لي حادثة لا بأس من سردها ، لتصوير جانب من حياة ذلك المحيط . ففي ذلك الحين (السنة ١٣١٣ هجرية) قدم من مصر الى دمشق الشيخ محمد الدندراوي ، شيخ مشايخ الطريقة الرشيدية . ثم جاء الى دوما

لزيارتها ، وحل فى بيت آل الريس ، حيث اقيم له استقبال عظيم وما زلت اذكر كيف انه مد رجله امام جميع الناس ، ولم ينهض لاحد من زائريه ، حتى ولا للقائمقام .

وفى المساء ، بعد الطعام ، اقيمت حفلة «ذكر» ،ثم راح الناس يقبلون يده ، ويمرون بها على وجوههم ورؤوسهم . ولما وصلني الدور ، قبلت يده. وكنت يومئذ فى السابعة من عمري ، فقدمني اليه الشيخ احمد مجيد ، وعرفني بانني «النجل الوحيد للحسيب النسيب ، الوجيه النبيه» الى اخر المعزوفة المعروفة . فدعا لي الشيخ بالتوفيق والفتح .

وهنا عصفت بي النخوة ، فدعوت الشيخ الى «سيران» غدا فى «المزرعة» ، وهي دوحة غنية بالمياه والاشجار ، فقبل دعوتي وهو يقول : بارك الله ! بارك الله !

بعد انتهاء الحفلة نصف الليل ، عدت الى البيت ، فايقظت والدتي ، وطلبت اليها ان تعطيني المطمورة(١) التى اجمع فيها خرجيتي ، حتى اشتري ثلاث اواق لحما ، نعمل بها «صفيحة» للشيخ الدندراوي فى المزرعة !

وما ان سمعت والدتي الخبر وادركت انني دعوت فعلا الشيخ الكبير الى «سيران» حتى طار صوابها ، فايقظت والدي وابلغته الحكاية ، فما كان منه الا ان ارتدى ملابسه ، واستدعى الخدم ، واوفد الرسل الى املاكه فى قرى الجرباء والريحان والعبارة لاستقدام الذبائح ، كما ارسل اخرين الى المزرعة لاعداد المكان للسيران . وعند الصباح توافدت علينا الخيول والبغال والحمير لتنقل الضيوف ، وارسل والدي عربته الخاصة لنقل الشيخ الدندراوي ، فكانت حفلة عامرة بكل معنى الكلمة .

عدنا فى المساء الى البيت منهوكي القوى ، وانا افكر فى الدعوة

---

(١) المطمورة هي علبة من الفخار ، ذات شق لادخال الدراهم فيها . وبعضهم يسميها « المكمورة » .

التى كنت اظن ـ على صغر سني ـ ان ثلاث اواق من اللحمة تكفي لها . وفى الصباح التالي استدعاني والدي ، فادركت ما ينتظرني فهربت الى الحوش واختبأت فى زريبة البقر ، ورفضت الذهاب اليه . وعندئذ جاء بنفسه يناديني من خارج «البايكة» ، فلم اجد بدا من الخروج ، ووقفت امامه مطرقا ، واذا به يقول : ايـــه.. هل انبسطت امس يا حبيبي ؟

فلم اجبه ، فقال : لا تخف ! تقدم !

وتقدمت منه ، واذا به يصفعني صفعة على وجهي ، كادت تخلع رأسي ، ففررت من امامه وهو يقول : سود الله وجهك .. كنت تريد ان تسود وجهي بدعوتك ... خذ هذا الدرس عبرة لـك فى المستقبـل !

هذه الصفعة كانت اقوى صفعة «اكلتها» من والدي فى حياتي، وكانت سبب انصرافى عن الطريقة الرشيدية ، بل عن جميع الطرق. وبعد مدة قليلة عادت اسرتنا من دوما الى دمشق ، وانطوت بذلك تلك الصفحة فى حيـــاتي .

من مدرسة الى مدرسة

في المدرسة العازرية : بعد عودتنا من دوما الى دمشق ، ارسلني والدي الى المدرسة العازرية ، تلميذا داخليا ، لكي اتعلم اللغة الفرنسية ، وذلك سنة ١٨٩٧ ـ ١٨٩٨ ، وقد شعرت حالا بالفرق الكبير بينها وبين الكتاتيب التى تعاقبت عليها ، فهذا معهد علمي بكل معنى الكلمة ، لا زرائب للاطفال . والحمد لله على ان وزارات المعارف حاربت تلك الكتاتيب ، وقيدت فتح المدارس الاهلية بشروط علمية وصحية .

ولا اذكر سوى اليسير عن ايامي فى تلك المدرسة . ومن ذلك حادث وقع مع ابن خال والدي فوزي البكري . كان فوزي فى الصف الرابع ، وانا فى الصف الاول . وفى يوم عطلة فى الصيف ، ذهبنا معا الى القابون ، حيث زرنا والده فوزي باشا البكري . ولما سألني الباشا عن حالة المدرسة ، قلت له انها حسنة ، لولا ان عدد «المشمشات» التى يقدمونها الينا بعد الطعام قليل جداً .

فخري فى المدرسة العازرية سنة ١٨٩٨ ميلادية

وفى اليوم التالي اوصلنا الباشا الى المدرسة ، وقابل رئيسها وقال له : ان الاولاد يشكون من قلة الفواكه ، فاذا كنتم لا تقدرون على اشباعهم فاننا نستطيع ان نرسل اليهم المشمش الكافي كل يوم !

فاستحيى الرئيس ووعد باجراء اللازم . وكانت غرفة الطعام كبيرة ، يأكل فيها الطلاب جميعا باشراف احد الرهبان . وبينما كنا نتناول طعام الغداء ، دخل علينا الرئيس ووراءه عدد

من الاساتذة ، وخلفه خادم يحمل طبقا كبيرا مليئا بالمشمش . فوقفنا جميعا احتراما له ، واذا بالرئيس ينادي بصوت عال : مسيو بكري .. اين هو مسيو بكري ؟

فاجاب فوزي : بريزان.. (يعني حاضر)

فتناول الرئيس الطبق من الخادم ، وقدمه الى فوزي قائلا بلهجة كلها سخرية : «تفضل اشبع مشمش» !

وارتبك فوزي ، واجاب : انا لم اطلب فواكه .. ولكن الذي طلبها فخري البارودي !

وكنت اجلس فى زاوية اخرى من القاعة مع صغار الاطفال، فتقدم نحوي الرئيس وقال بلغة عربية محطمة : انتي ما فى شبع مشمش ؟

فاجبته : نعم .. ما فى شبع !

فاعطاني الطبق ، فتناولته بكل بساطة قائلا : مرسي مون بير..

وهكذا وضعت الطبق امامي ، ورحت أفرق منه على رفاقي دون اي خجل ، بعكس فوزي الذي لم يعد يجرأ على النظر الى الرئيس من شدة خجله !

★★★

على الرغم من «شيطنتي» ، ومن ان «السينيال» لم يفارقني يوما واحدا اثناء وجودي فى المدرسة ، فقد تعلمت الفرنسية ، واصبحت اتكلمها بشيء من السهولة . وما يزال لدي دفتر من دفاتر تلك المدرسة ، فيه تاريخ دخولي اليها ، وخروجي منها ، وقد كتبت عليه الادارة الملاحظة التالية عني : «دائما معاقب عقابا خفيفا .»

أديت الفحص للانتقال الى الصف الثاني فى السنة الثانية (١٨٩٨ ـ ٩٩) ، ولكن والدي لم يلبث حتى نقلني الى مدرسة

اخرى . ولا ادري السبب حتى الان ، ولكنني بقيت اتأسف على انتقالي ، لان ذلك صرفني عن اتقان اللغة الفرنسية ، وقد احتجت اليها كثيرا عند دخولي معترك السياسة ، خاصة في العهدالفرنسي.

* * *

المدرسة الريحانية : نقلني والدي من العازرية الى مدرسة «الريحانية» ، وهي مدرسة اهلية اسسها الشيخ محمد المبارك (جد الشيخ محمد المبارك النائب الحالي) وخلفه فيها الشيخ عبد الجليل الدره . وقد جمعت نخبة صالحة من ابناء دمشق.

كانت المدرسة تتألف من ثلاثة صفوف ، ثم اسسوا فيها صفا رابعا سموه «صف مخصوص» لكبار الطلاب ، تعطى فيه الدروس الادبية زيادة عن دروس الصف الثالث ، ويستظهر طلبته قصائد شعرية ، اذكر منها «لامية العجم» و«لامية العرب» ، وغير ذلك . وعلى الرغم من صغر سني ادخلوني الى هذا الصف . وكانت الاجرة فيه ريالا مجيديا فى الشهر .

كان اساتذة المدرسة يسمحون لطلاب «الصف المخصوص» بحضور اجتماعاتهم الخاصة ، وحلقات السمر التى يعقدونها ، فتدور فيها المذاكرات الادبية والاناشيد . ولما كان شرب الشاي نقطة الدائرة فى هذه الاجتماعات ، فقد كان أكثر الاناشيد عنه . واذكر منها :

يا مدير الشاي هيا ... واسقنا كاس الحميا
ان تكن راضي عليا ... ...(نسيت الباقي)

ومنها ايضا :

يا حسن شاي لاح فى بلوره ... يزهو كتبر فى لجين رائق
اداره الساقي على الندمان في ... زينة معشوق ولون العاشق

وبين الطلبة الذين اجيز لهم حضور جلسات الاساتذة ، السادة لطفي الحفار ، عزت حباب ، خليل ملص ، شكري العجلاني

اما انا ، فرغما عن كوني من تلامذة الصف ، فانهم لم يسمحوا لي بالحضور نظرا لصغر سني ، وتعويضا على ذلك «انتدبوني» مع ممدوح العابد لكي نهيىء لهم الشاي ، على ان نبقى خارجا . فكنا نغلي الماء فى «السماور» ، ونخمره فى «البراد» ونصبه فى الكؤوس ، وعندئذ ندق عليهم الباب ، فيخرج الينا الساقي صاحب النوبة فى ذلك اليوم ، ويستلمه منا مع العدة . وكانت العدة مؤلفةمن السماور والبراد وعلبة الشاي والسكر واكياس الفحم وطاسة غسيل الكؤوس والملاعق الصغيرة، والكل موضوع فى صندوق خاص ذي بيوت عديدة . وكان الصندوق رفيق الشيوخ والمعلمين فى «السيران» يوم العطلة الاسبوعية .

الشيخ محمد المبارك
مؤسس المدرسة الريحانية

وبفضل انتدابي لهذه «المهمة» ، اتيح لي عن غير قصد ، ان اتعرف الى محلة «زقاق المحكمة» التى تقوم فيها المدرسة الريحانية وان ادخل بيوتها . ذلك ان الثقاب (الكبريت) كان مجهولا فى تلك الايام . وكان الناس يحتفظون فى بيوتهم بجمرة كبيرة الحجم ، مطمورة فى «المنقل» ، فتبقى ٢٤ ساعة قبل ان تصبح رمادا . وكلما احتاج اصحاب الدار الى «ولعة» ، اقتطعوا من الجمرة قبسا لاشعال النار .

وجرت العادة ان يقترض الجار من جاره قبسا او قطعة من

الجمر . فلما عينوني محضرا للشاي ، اضطررت ان اذهب كل مرة الى البيوت المجاورة ، «اشحذ» منها قبسا لاشعال «السماور» ، وهكذا طرقت مع الزمن ابواب جميع بيوت الحي ، وتعرفت الى اهلها . وما يزال ببالي اسماء بعض تلك الاسر ، منهـا ال الصبان ، وال مراد ، وال الحديـدي ، وسواهم . وكثيرا ما كنـت في ساعة الحشرة استعير الجمرات من اربعة او خمسة بيوت في آن واحد ، على سبيل الاحتياط ، فاذا انطفأت «ولعة» تكون الاخرى جاهزة !

السيد نسيب البكري بالعمامة البيضاء في عهد المدرسة الريحانية

ومر على طـلاب «الصف المخصوص» زمن طفت فيه عليهم «موضة» التعمم بعمة بيضاء . ومن بين الذين تعمموا السادة لطفي الحفار ، خليل ملص ونسيب البكري . واراد الاخير اقناعي بالتعمم ، فلم يفلح . وقد ظل هو متعمما مدة سنة ونصف . وقبل ان ينتقل من المدرسة الريحانية ، الى المدرسة الاعدادية (اي مكتب عنبر) خلع العمامة ، كما خلعها لطفي الحفار . اما خليل ملص فقد «ملص» منها بعد ان اعتمر بها ببضعة ايام . وهكذا تبددت موجة التعمم في تيار العصر الجديد .

المدرسة الياغوشية : كان ابناء «الذوات» فى ذلك الزمن يأنفون دخول المدارس الحكومية ، واذا دخلوها بالغوا فى الصلف والتمرد . وما اقل الذين نجحوا منهم فيها فى تلك الايام .

فى ذلك الحين عين والدي السيد علي السقا اميني ، رئيس كتاب مديرية المعارف ، وليا لامري ، فاقنع والدي بنقلي من المدرسة الريحانية الى «مكتب الياغوشية». وكان الاتراك يطلقون اسم مكتب على المدارس الحكومية . وكان فى دمشق يومئذ ١٣ مدرسة

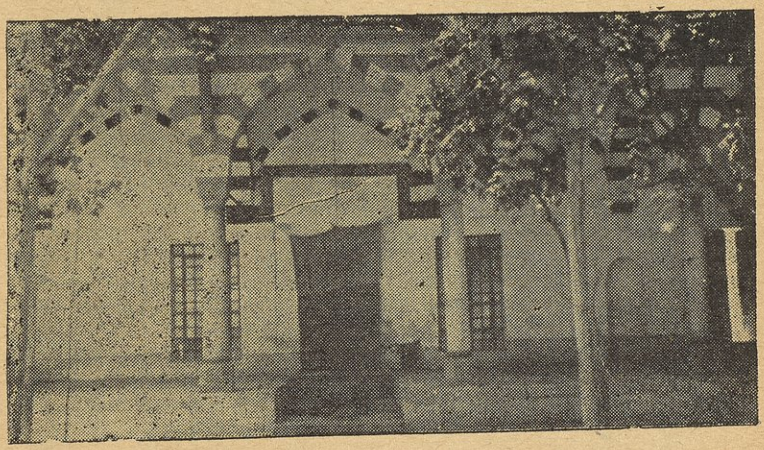

المدرسة الياغوشية كما تبدو اليوم ، وقد اصبحت الان مأوى للاجئين من فلسطين

حكومية للذكور ، ومنها المدرسة الياغوشية المشار اليها ، الواقعة بين محلة الخضيرية والشاغور ، وفيها خمسة صفوف .

اختارت مديرية المعارف لادارة هذه المدرسة ، الشيخ ابو الخير المنير . ورغم عمته البيضاء وانتسابه الى طبقة الشيوخ المعلمين ، فقد كان فتى قويا ، وقد وقع الاختيار عليه لرجولته وشجاعته ، لان المدرسة واقعة بين حيي الشاغور والميدان ، اللذين اشتهر سكانهما بالمرجلة «والقبضايات» .

وكان الحيان فى حالة حرب دائمة ، تقع بينهما المعارك بصورة مستمرة . واذا ذكر الشاغوري او الميداني امام اهل الاحياء الاخرى من دمشق ، قالوا عنه : «دعنا منه ، فان هذا اصبعه ثخينة» . ويقصدون بذلك انه صعب المراس ، قاسى القلب .

وكان من الطبيعي ان تمتد الخصومة بين الحيين الى طلاب المدرسة ، فعند خروجهم فى المساء منها ، كان الشجار يبدأ بين الطلاب الشاغوريين والطلاب الميدانيين . ولو لم يكن مدير المدرسة الشيخ المنير قوي الشكيمة صنديدا ، يملأ قلوب الطلبة رهبة وخوفا ، لدار القتال كل يوم داخل المدرسة من الصباح الى المساء !

ولم يكن الشجار مقصورا على ابناء المدرسة الياغوشية فيما بينهم ، بل كثيرا ما كنا نتشاجر مع ابناء الكتاتيب الاهلية ، فيتدخل رجال الشرطة لتفريقنا . ولا بد من الملاحظة بان ابناء المدرسة ـ على اختلاف احيائهم واحزابهم ـ كانوا يقفون صفا واحدا فى وجه الطلاب الغرباء و ضد «زعران» الحارات . وكانت محافظ الجلد التى نضع فيها الكتب ونحملها على ظهورنا ، دروعنا الواقية فى المعارك !

***

«اسلحة» الطلبة : ما دمنا نتحدث عن مشاجرات الطلاب ، فلا بأس من ذكر «الاسلحة» التى كنا نستعملها فى ذلك الحين ، وهي النقيرة ، والمداحة ، والمقلاع ، والنقفيه ، والشبرية والبونية .

النقيرة قطعة من غصن غليظ ، مقطوع من شجرة «الدردار» او اللوز ، طولها من شبر الى شبر ونصف ، رأسها مبري حاد كراس المسمار .

المداحة قطعة من قماش صوفي ، بيضوية الشكل ، موثوقة الى حبلين من الجانبين ، يلفها التلميذ حول خصره تحت زناره. وعندما يشتبك بشجار ، يخرجها ، ويضع فيها الحجارة ، ويقذفها بها الى مسافات بعيدة .

المقلاع ، ويسميه بعضهم «الصبان» ، هو اكبر من المداحة، فاذا كان حجر المداحة بحجم اللوزة ، فان حجر المقلاع بحجم الجوزة الكبيرة ، وقد يكون احيانا بحجم الرمانة .

النقفيه ، ويقال لها «العقفات» ، هي شعاب من اغصان الشجر ، تشد اليها خيوط من المطاط ، في وسطها جلدة توضع فيها الحصوة ، فتقذفها بعيدا . وكنا نستعملها لصيد العصافير.

الشبرية خنجر صغير ، اما البونية فهي قطعة من حديد او نحاس ، فيها اربعة ثقوب تدخل بالاصابع ، ولها انصال مسننة، وهي خطرة جدا .

بعد وصف هذه «الاسلحة» لا ننسى ذكر الامواس على اختلافها ، ومنها ذات الكباس ، وكذلك العصي والقضبان والحجارة والطوب ، وكل ما تقع عليه الايدي في الازقة ، وفي ساحة «الكونة».

* * *

الكلاوي ومعلم التركية : قلت ان مدير الياغوشية الشيخ المنير كان مرهوب الجانب لقوته وشجاعته ، لذلك استهابه الطلاب. ولكنهم ما كانوا ليترددوا في الاعتداء على المعلم الضعيف . وانني اضرب مثلا على ذلك الحادثة التالية :

كان في مدرسة «القماحين» معلم للغة التركية ، وكان قاسيا على الطلبة ، لا يغفر لهم اي ذنب ، ويجازي كل قصور بالضرب او بالفلق .

وكان بين الطلاب تلميذ «مدلل» عند اهله ، يسمى محمد

حسن راجحه ، من سكان باب الجابية ، له خال معدود بين كبار «القبضايات» ، يلقب بالكلاوي ، وكان الكلاوي يحب ابن اختـــه محمد حسن حبا زائدا ، حتى سماه باسم عائلته ، وكناه من صغره بابي حسن .

هذا الغلام عصى مرة على معلم التركية ، وابى ان يحفظ الدرس فهدده المعلم بالفلق اذا داوم على التمرد ، فخرج الغلام يبكي وذهب يشكوه الى خاله الكلاوي ، فما كان من هذا الا ان اخرج من جيبه مسدسا من نوع «النيكل» واعطاه اياه ، وامره ان يذهب ويطلـق الرصاص على المعلم !

وعاد الغلام بالفعل ، ووجد المعلم فى المكتب ، فاخرج المسدس واطلق عليه رصاصتين شردتا عنه ، فسارع بعض الاولاد وحالوا بين محمد حسن وبين المعلم .

وما يزال هذا المعلم الى اليوم فى قيد الحياة ، وهو السيـد محمود الصباغ مدير البنك الزراعي السابق . وقدرويت هـــذه الحادثة للتدليل على العقلية التى كانت تسود مدارسنا فى نهايـــة القرن التاسع عشر .

* * *

الفحص والشهـادة : فى اخر العام المدرسي (سنة ١٣١٦ — ١٣١٧) انهينا دروسنا وادينا الفحص امام مميزين انتدبتهم مديرية المعارف من موظفي الدولة فنجحت بحمد الله ، ونلت الشهـادة الابتدائية من مدرسة الياغوشية بدرجة اعلى وبهذه الشهادة دخلت المدرسة الاعدادية المعروفة بمكتب عنبر .

سبع سنوات فى الاعدادية

مكتـــب عنبر : كان مكتب عنبر المدرسة الملكية الاعدادية (اي التجهيزية) الوحيدة فى دمشق يومئذ ، يتراوح عدد طلابهـــا دائما بين الخمسمئة والخمسين والستماية . وكان الطلاب النهاريون يتعلمون مجانا ، والداخليون يدفعون اجرة مقابل النوم والطعـام. والمدرسة ذات سبعة صفوف، ولها شهادتان، المتوسطة تعطى فى انتهاء السنة الخامسة ، والاعدادية تعطى فى انتهاء السنة السابعة وتدرس فيها العلوم الاتية : القرآن الكريم ، العلوم الدينية العقائد ، الفقه الشريف منه كتاب الصلاة ، كتاب الصوم ، كتاب الحج ، كتاب الزكـــاة ، كتـــاب النكـــاح .

وكانوا يدرسون فى كل صف كتابا من هذه الكتب ، ثم علـم

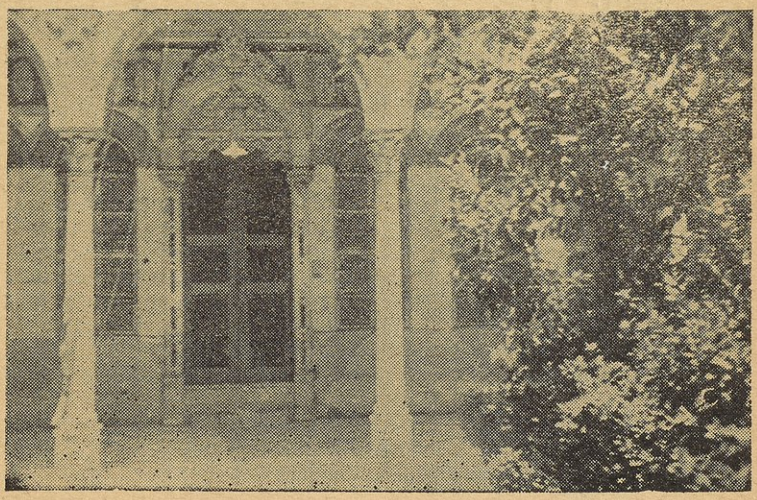

باب قاعة المكتبة فى مكتب عنبـر ، اي المدرســـة الاعدادية

الاخلاق ، المنطق ، اللغة العربية (منها الصرف ، النحو ، ترجمة ، تطبيقات) اللغة التركية ، قواعد ، الكتابة الرسمية ، (الرسائل الديوانية) ، الادبيات العثمانية ، اللغة الفرنسية ، قواعد ، قراءة، املاء ، اللغة الفارسية (قواعد ، قراءة ، ادبيات) كتاب الكلستان، علم الثروة (الاقتصاد) ، علم احوال السماء (قوزموغرافيا) ، جغرافيا عامة ، جغرافية الولايات العثمانية ، تاريخ الدولة العثمانية، تاريخ العمومي ، حفظ الصحة ، خلاصة القوانين ، علم الاشياء ، علم الحساب : العملي والنظري ، الجبر ، الهندسة الخطية ، المجسمة، السطحية ، الرسمية ، المثلثات المستوية ، اصول الزراعة ، الرسم ، حسن الخط ، الكيمياء ، العضوية والمعدنية ، الفيزياء ، ويسمونها علم الحكمة او الماكينا (ميكانيك) اصول مسك الدفاتر (دوبيا) المواليد الثلاثة : المعادن طبقات الارض، النباتات، الحيوانات.

هكذا كانوا يدوخون رؤوس الطلبة بهذه العلوم . وكان مدير المدرسة تركيا ، واكثر معلميها من الاتراك ايضا يأتون بهم من الاناضول والروم ايلي ، والقليلون منهم من الاستانة ، حتى ان معلم العربية فى زمننا كان من الاتراك المعممين الملقبين بالسفطه ، واسمه اسماعيل حقي افندي . ولم يكن فى مكتب عنبر من ابناء العرب غير استاذان : محمد المرعشلي معلم القواعد والقراءة التركية والشيخ محيي الدين الخاني معلم الدينية وكلاهما من دمشق .

***

الولي : كان مفروضا ان يكون لكل تلميذ ولي مسؤول عنه ، فاما ان يكون الوالد او الوصي اذا كان الغلام يتيما . ونظرا لبعد والدي عن دوائر الحكومة وكل امر الولاية علي الى صديقه علي السقا اميني ، رئيس كتاب دائرة المعارف فى دمشق .

وبدون ان يكلفني هذا الولي اي عناء ، استحصل على الاوراق الرسمية(١) التى تلزم لي كتلميذ ، وقدمها الى ادارة المدرسة ،

---

(١) شهادة النفوس الرسمية وتسمى ورقة نفوس ، الشهادة الصحية ، شهادة المدرسة الابتدائية .

فقبلتني فى الصف الاول ، وذلك فى السنة الدراسية ١٣١٧ ـ١٣١٨ ماليـــــة .

★★★

رفـــاقي فى المدرسة : فرحت بدخول هذه المدرســـة فرحـا كبيرا ، لان تلميذ المدرسة الاعدادية ، كان يتمتع فى تلـــك الايام بمكانة عالية فى الاوساط العائلية ، نظرا لتفشي الجهل فيهـا وكان الشاب الذي يحرز الشهادة الاعدادية يعد من ارقى شباب ذلك الزمن ، وينظر اليه الناس نظرة اهل هذا الجيل الى حملـــة الدكتوراه !

واكثر كبار موظفي حكومتنا اليوم هم من خريجي مكتب عنبر، ومنهم فخامة الرئيس شكري القوتلي . واذكر من بين ذوي المهـن الحرة السادة : سعيد محاسن ، سعيد الغزي ، سعيد حيـدر ، والمرحومان فوزي الغزي ومظهر رسلان ، وصفي رسلان ، الدكتور صالح قنباز ، الاداري اسعد خورشيد ، الدكتور فؤاد الساطي ، وغيرهم من رجالات البلاد .

وكانت المدرسة الاعدادية تضم طلابا من جميع ابناء البلاد ، ولم تكن مقتصرة على الدمشقيين فقط ، وهكذا كان اكثر الداخليين، اذا لم اقل جميعهم ، من ابناء عواصم المتصرفيات(١) والاقضية .

وكان عدد طلبة الصف الاول يتراوح بين المائة والخمســين والمائتين ، فلا يتمم التحصيل فيه ويحصل على الشهادة الا قسم قليل منهم ، وهكذا لم يزد عدد الذين كانوا ينالون شهادة مكتـب عنبر ، عن عشرين تلميذا فى كل عام .

عرفت فى هذا المكتب رفاقا كثرا ، ذهب بعضهم فى ما بعـد الى الاستانة ودخلوا مدارسها العالية كالطب، والحقوق، والهندسة والملكية ، والبيطرة ، ودار المعلمين وغير ذلك من المدارس .

---

(١) المتصرفية كانت تسمى عندالاتراك سنجق ، وهي ما يسمى اليوم محافظة

ومن الاخوان الذين رافقتهم فى صف واحد منذ الدخول حتى الصف الاخير السادة : سعيد محاسن ، حسن فرحات ، نسيب النابلسى ، عبد الرحمن رشيدات العجلوني. وكان محاسن وفرحات يتسابقان على الدرجة الاولى دائما ، ولا بد من ان يكون احدهما الاول والاخر الثاني . كذلك كان النابلسى والعجلوني يتسابقان على الدرجة الثالثة دائما ولا بد من ان يكون احدهما الثالث والاخر الرابع . اما انا فكنت من «عفاريت» المكتب ، ولم تكن درجتي متفوقة بل كانت دائما تحت درجة الاعلى ، ولم ارسب اية سنة.

***

اول بيت نظمته : كان من رفاقي فى الصف السيد توفيق الداودي ابن اخ الشيخ محمد الداودي ، المعروف بنظم الشعر . فكان توفيق يردد علينا احيانا قصائد عمه . وفى احد الايام ، ونحن فى الصف الرابع نستعد فى ساعة المذاكرة لدرس الهندسة ، قام توفيق الداودي يقرأ علينا قصيدة لعمه طويلة عريضة ، فشغل الطلاب وازعجهم . ورجاه البعض ان يكف عن القراءة فلم يفعل .

فخري فى المدرسة الاعدادية

وكانت القصيدة دالية فقمت الى اللوح (السبوره) وكتبت عليه هذا البيت ، وهو اول بيت نظمته فى حياتي، على بحر القصيدة التى كان يقرأها :

توفيق ان العلك فى اشعاركم
وقف عليكم يا بني الداوودي!

فضحك الطلاب ، وقامت الضجة ، وغضب توفيق منه وخرج من الصف الى الملعب.

وفى اليوم الثاني جاء توفيق مبكرا وبيده قصيدة ادعى انه نظمها ، هذا مطلعها :

اخسأ بوجهك ايها البارودي واحذر اسودا درعها داوودي !

هجاني فى القصيدة هجاء قبيحا استفزني ، فتوعدته بالجواب فى الغد ، وذهبت الى البيت وانا مضطرب البال ، وقضيت الليل افكر حتى تمكنت من نظم ابيات كلت له فيها الصاع صاعين ، وذهبت فى الصبح مبكرا الى المكتب ، فلما اجتمع الطلاب قرأت قصيدتي ، ومطلعها :

اخسأ بوجهك ايها الداوودي واحذر مدافع حشوها بارودي!

واستمر الهجاء بيننا ، فكان توفيق ينظم ابياته فيصلحها له عمه الشيخ محمد ، وانظم انا ابياتي واعطيها الى الشيخ عبد القادر بدران ، فيصلحها ، وبقينا مدة سنتين ونحن نتهاجى ، ولكننا مع ذلك بقينا اصدقاء نقضي اوقاتنا سوية داخل المدرسة وخارجها . ولما كثرت قصائد الهجاء بيننا ، عقدنا صلحا واتفقنا على ان نتلف جميع ما كتبناه نحن الاثنين واقسمنا الايمان على ذلك . وهكذا حرقت جميع القصائد التى قلتها فيه ، وقال انه حرق قصائده .

ومنذ ذلك الحين اصبح لي بعض الميل الى نظم الشعر . وقد ساعدني على ذلك الشيخ عبد القادر بدران ، احد علماء قصبة دوما الفقهاء على المذهب الحنبلي ، وهو من العلماء المجددين . وكان لسانه سليطا جريئا لا يهاب احدا . فوقعت مرة مشادة بينه وبين رئيس بلدية دوما صالح طه ، وتبادلا الهجاء . وعلى الاثر استصدر طه من الوالي امرا بابعاد الشيخ بدران عن دوما ، فانتقل الى دمشق وحل ضيفا علينا فى بيتنا ، مدة سنتين ونصف ، حتى انتهت مدة نفيه .

كنت يومئذ طالبا فى المدرسة الاعدادية ، فافادني وجوده فى

دارنا اذ ساعدني على تعلم اللغة العربية ، وكان له فضل كبير بتوجيهي وارشادي الى كتب اللغة ومطالعة كتب الادب ودواوين الشعر . وقد قرأت عليه مقامات الحريري باجمعها ، فكان لها تأثير في توجيهي نحو الادب العربي ، خلافا لرفقائي الذين اتجهوا نحو الاداب التركية .

* * *

ممدوح العابد : كان من رفقائي في هذه المدرسة ابن عمتي ممدوح بن رضا العابد . التقينا اولا في الصف الثاني ، ثم بقينا حتى نلنا الشهادة معا . وكان رحمه الله من اخف خلق الله روحا ، وله حوادث كثيرة ، من اغربها اننا صحونا صباح احد ايام الشتاء على ضرب (البوري) . وكنت في القسم الداخلي ، فما كاد الطلاب يستيقظون حتى وقع لغط ، وارتفعت الاصوات من كل جانب ، وتبين لنا ان احد الطلاب قام اثناء الليل ، وخطط بالحبر الاسود وجوه المبصرين(١) تلك الليلة ، كما انه دهن وجوه كبار الطلاب فبدا وجه كل طالب كوجه مهرج المسارح ، له شنبات وحواجب عجيبة !

ونظرا لكثرة عدد الوجوه «المسخمة» ، تعالى الضجيج ، حتى بلغ غرفة المدير المعاون رشيد حكمت ، وكان من اشد المعلمين بطشا ، فجاء مسرعا ليستجلي الخبر ، فلما رأى هذا المشهد لم يتمالك نفسه من الضحك ، وسارع بعض الطلاب نحو ممدوح العابد يتهمونه بهذا العمل !

وكان ممدوح ينام في غرفة صغيرة في اخر المهاجع ، مع ثلاثة طلاب ، فوجدوه غارقا في النوم ، ووجهه هو الاخر مسخم مثل وجوههم فايقظوه واتهموه بما جرى ، فانكر وصاح بهم صياحا شديدا .

---

(١) المبصر هو المناظر الذي يراقب الطلاب في النهار والليل ويسمونه اليوم معيدا

ثم نهض ممدوح ، وذهب نحو المدير المعاون واسر فى اذنه شيئا ، فوافقه المعاون عليه . وهكذا نزل المعاون والمبصران وبعض الطلاب الكبار المدهونة وجوههم ووقفوا امام باب المهجع السفلي من

الباحة الداخلية فى المدرسة الاعدادية، ويبدو فيها قسم من المهجع

الخارج ، ودعوا الطلاب الى نزول السلم واحدا واحدا ، وكلما مر واحد فحصوا اصابعه ، حتى جاء احد الطلاب الحوارنة ، ويسمى محمود الحوراني ، فوجدوا حبرا على سبابته ، فصاح ممدوح : هـذا هو الفاعل !

واخذوا المسكين الى غرفة المعلمين ، وانهالوا عليه ضربا ، وآجر فيه كل من اصابه رشاش تلك الليلة ، حتى كاد يهلك.

وبعد بضعة ايام تبين ان الفاعل هو ممدوح العابد وانه بعد ان «سخم» وجوه الجماعة «سخم» وجهه ايضا ، ودهن اصبع الحوراني المسكين ، ثم اقترح على المعاون ان يعاين اصابع الطلاب، فانطلت الحيلة على المعاون وعلى الطلاب .

ولما عرف الجميع ان الفاعل هو ممدوح ، احضروه الى غرفة

المعلمين ، وشكلوا محكمة من الاساتذة حققت معه فاعترف بجرمه، وقال انه سخن زجاجة الحبر على المدفأة ، حتى لا يصحو احد عند دهن وجهه بحبر بارد. وعندئذ اطعموه «علقة ماكنة» وكدروه علنا امام جميع الطلاب !

* * *

قضاء افندم ! : وهذه حادثة طريفة وقعت لنسيب البكري عندما كان فى أول صف فى المدرسة الاعدادية :

مر بجانبه تلميذ فلاح مجتهد ، فصفعه نسيب صفعة اطارت صوابه ، فراح يشكو امره الى الادارة . فاستدعى المدير نسيب البكري وسأله لماذا ضرب الغلام ، فاجاب : ضربته قضاء أفندم !

وبعد بضعة ايام بينما كان الطلاب بالفرصة ، دوى البوق يدعو الطلاب الى الاجتماع . وكان نسيب البكري وفهمي الحسيبي يسيران جنبا الى جنب لما سمعا البوق ، فقال فهمي : ربما يريدون ان يجمعونا لمجازاة أحد الطلاب !

فقال نسيب : ان شاء الله تكون المجازاة لك يا فهمي !

فاجابه فهمي : بل ان شاء الله تكون لك انت يا نسيب !

.. واستجاب الله دعاء فهمي ، اذ تقدم المدير الثاني نظاميات افندي الى منتصف المربع الذي شكله الطلاب ، وخطب خطابا طويلا باللغة التركية حمل فيه على المعتدين ، ثم اعلن ان السيد البكري اعتدى على الطالب فلان ، وصفعه صفعة قوية بلا سبب ، وكانت صفعته «قضاء افندم» ، لذلك ارتأت الادارة ان تكدره تكديرا علنيا «قضاء أفندم» !

وهكذا انفض الجميع ، وهم يضحكون من النتيجة ، حتى نسيب نفسه راح يقهقه ، كأن القط لم يأكل له عجينا !

ليمون وشنبات : كان نسيب الكيلاني «اشطن» تلميذ فى زمانه مع الداعي لله . ولا اذكر انه مر يوم من السنوات السبع التى قضيتها فى المدرسة الاعدادية ، الا وكنت مسجونا فيه «اذزنيز حرمان» ، مع نسيب الكيلاني .

وذات يوم بقي فى المدرسة عشرة تلامذة مسجونين ، وبينهم نسيب وانا طبعا . وكان فى باحة المدرسة اشجار مثمرة من الليمون الحامض ، فرغب نسيب الكيلاني فى ان يقطف شيئا من ثمرها فاحضر «السيبه» التى يصعد عليها الخدم لاشعال الفوانيس ، وتسلق عليها ، وراح يقطف الثمار ويناولنا اياها . وفى هذه الاثناء جاء معاون المدير المناوب ورأى ما يجري . وكان المعاون مرعبا جدا وله شنب طويل ، فتقدم من التلميذ الواقف فى اسفل السلم واشار اليه باصبعه ان لا يتكلم ، ثم تقدم المعاون الى تحت السلم وراح يستلم الاثمار من نسيب !

ثم نادى نسيب الطالب ليصعد الى الشجرة ويرى ثمرة كبيرة جدا ، فصعد المعاون حتى اصبح الى جانب نسيب ، فمد نسيب ساعده وعانق المعاون وهو يشير الى الليمونة ، والتصق الخدان ، فاحس نسيب بخشونة شعر الشنب ، والتفت مدهوشا وما كاد يرى وجه المعاون ، حتى قفز عن السلم فوقع الى الارض ووقع معه المعاون ، وقام كل منهما ينفض ملابسه ويضحك .

وذهب المعاون الى غرفته وضرب البوق داعيا الطلاب المسجونين الى الاجتماع ، فاجتمعنا . واذا بالمعاون يقول انه نظرا للنكتة التى رافقت الحادث ، فانه يعفو اليوم عن جميع المسجونين!

ثم فرق على كل تلميذ حبة ليمون واحدة ، مشترطا علينا الا نعود الى مثلها ، واخذ الباقي لنفسه ، وخرجنا ندعو للسلطان بالنصر !

خروف المـــدير : بعد مضي ما يقرب من نصف عام على دخولي المدرسة ، خبرت احوالها وطلابها ، فبدأت «شيطنتي» . وكلما مرت الايام كثرت الجزاءات علي ، حتى اصبحت من «زبونات» المدرسة الدائمين ايام التعطيل . ولا ابالغ اذا قلت اني منذ دخولي المدرسة الى يوم احرزت الشهادة فى مدة سبع سنوات ، لم اقض عطلة اسبوعية واحدة فى داري ، بل كنت اقضيها كلها بالحرمان ، مسجونـــا فى المدرسة !

وفى احد الايام نقر المدير على زجاج النافذة بشدة . وكنـا نلعب فى باحة المدرسة اثناء الفرصة ، فالتفت الطلاب جميعهـــم

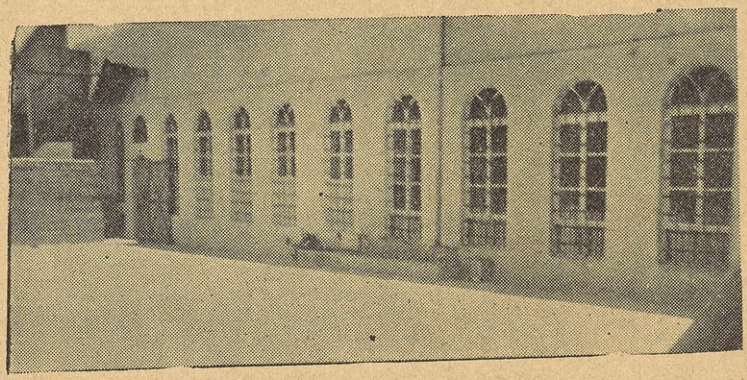

باحة اللعب الواقعة فى الساحـــة الخارجيـــة لمكتب عنبر .

نحوه ، ورأيناه ينادي احدنا باصبعه ، فجعل كل منا ينظر الـى الاخر ليرى المدعو . وما لبثت ان ادركت ان المدير يدعوني ، فذهبت اليه خائفا وظننت ان هناك وشاية ضدي .

صعدت الى غرفة المدير كما يقول المثل العامي «رجل لـورا ورجل لقدام» . ولما دخلت الغرفة ، وجدت بعض المعلمين الذيـن يتكلمون اللغة العربية ، فقال لي المدير : انت فخري البارودي ؟

فسقط قلبي ، وقلت : نعم !

قال : هل ابوك من اصحاب المزارع ؟

فلما اجبت بالايجاب ، قال :

ـ عندكم غنم فى مزرعتكم ؟

فاجبت بالايجاب ، فقال : وهل والدك من الاجواد ؟

قلت : هكذا يقولون !

قال: عندي خروف واريد ارساله الى المرعى ، وقد دلني الناس عليكم ، فهل يمكنك اخذ هذا الخروف الى مزرعتكم والاعتناء به الى ان يكبر ؟ وهل يرضى والدك ؟

قلت : نعم ، بل اظنه يكون شديد السرور بهذا التكليف !

فاشرق وجهه وقال : اذا انت مأذون اليوم . عند انصراف الاولاد من المدرسة خذ الخروف معك ، ونم فى داركم وعد غدا صباحا .

ضربت «تمني» وخرجت اهبط درجات السلم خمسا خمسا ، الى باحة الملعب حيث كان رفاقي ينتظرونني، فابلغتهم الخبر

وفى المساء احتشد اكثر من خمسين طالبا من الطلاب الخارجيين ينتظرون الخروف عند باب المدرسة . ولما خرجت والخروف معي قام الطلاب بمظاهرة ومشينا «بعرآضة» نسحب الخروف ونجره ، ومررنا بسوق مدحت باشا بهذا المهرجان حتى وصلنا الى الدار !

قدمت الخروف الى والدي ورويت له الحكاية فضحك ، وامر وكيل الخرج ان يحضر اللحام ويذبح الخروف ، وقال : عندما يطلبه المدير نحضر له خروفا كبيراً بدلا عنه !

ومضت شهور، وانقضى العام وجاء العام الثاني ، واذا بالمدير يناديني ثانية فاسرعت اليه ، فسألني عن الخروف ، فقلت : انه

بخير ، صحته جيدة يقبل يديكم !
فضحك وامرني باحضاره ، فقلت : سأكتب الى والدي .

ومضت أيام ، وكنت مرارا اطلب الخروف ، والوالد «مطنش» لا كتاب ولا جواب ، وانا اختلق الاعذار للمدير . واخيرا لم ار بدا من الذهاب بنفسي ، فاخبرت المدير وطلبت اذنا للسؤال عن الخروف فسمح لي بالذهاب الى الدار مع الطلاب الخارجيين . ولما اخبرت والدي بالحاح المدير، ارسل الى دوما رسولا ليأتي بخروف. وفي الصباح حضر الرسول ومعه خروف صغير ، اصغر من الخروف الذي استلمناه من المدير . فقلت لوالدي : كيف يمكنني تقديم هذا الخروف بعد هذه المدة ؟

قال : اذهب وقدمه واذا «علك» المدير ، قل له ان خروفه «فطس» وهذا بدلا عنه !

اخذت الخروف الى المدير ، فلما رآه غضب غضبا شديدا ، وصاح بي : نه دربو ؟ (يعني : ما هذا ؟)

قلت: هذا خروف !

قال : بو كديدر ! (يعني هذا قط !)

وبالحقيقة كان هذا الخروف بقدر القط ، فحمله المدير ووضعه على رقبتي ، ودفعني الى خارج المدرسة وقال : اذهب الى والدك وقدمه له هدية مني !

وعدت الى الدار بحالة يرثى لها ، فلما رآني والدي غضب وامر وكيل الخرج باحضار اللحام فاحضره ، وذبح الخروف وقال: اذهب الى المدير وقل له : قبلنا الهدية !

دخلت الى الدار ابكي . وكانت عمة والدي السيدة ليلى البارودي ـ وعمرها آنذاك زهاء السبعين ـ في زيارتنا . فلما عرفت بالامر ، اعطتني دينارا عثمانيا ذهبيا ، وقالت لي : اشتر به كبشا بدل الخروف ، وقدمه الى المدير !

وهكذا كان ، فاشتريت كبشا وذهبت به حالا الى المدرسة وقلت للمدير : اني غلطت بالاول ، فهذا هو كبشك !

فلما رآه المدير فرح به ، وضحك وربت على ظهري ، وخلصني الله من هذه البلية على خير !

مع حياذلك العصر

قلت فى الفصل السابق انني قضيت سبع سنوات فى المدرسة الاعدادية . وقبل ان انتقل بالقارىء الى المرحلة التالية من حياتي ، اود ان استفيض فى الحديث عن حياة الطلبة فى ذلك العهد ، كي تتكون لدى القارىء صورة واضحة عن المجتمع الذي نشأ فيه جيلنا.

***

بكري الدنكوره : كان فى مكتب عنبر «دكان» يؤجر فى المزاد العلني . وقد رسا اثناء اقامتي فى المدرسة على المدعو زكي البقال .

استخدم زكي هذا صانعا لبقا يدعى بكري ، لقبه الاولاد بـ«الدنكوره» . وكان بكري خفيفا نشيطا ، يلبي وحده جميع طلبات الاولاد فى الفرصة ، عندما يحتشدون امام نافذة الدكان ، ويتصاعد صياحهم : دنكوره هات قلما .. دنكوره اعطني رغيفا.. دنكوره هات راحة الخ.

ولم تكن الفرصة القصيرة لتسمح بتأمين حاجات جميع الطلبة لذلك كان «دنكوره» يسمح لابناء الاغنياء بالدخول الى الدكان والاختباء فيها ، وان كان ذلك ممنوعا . وكان «المبصرون» ، اي المراقبون ، يغضون الطرف عنهم مقابل هدايا يقدمها اليهم صاحب الدكان ، وفقا للمثل القائل : اطعم الفم تستحي العين !

***

المحششة خانه : كان التدخين ممنوعا ، ولكن كل ممنوع مرغوب ، لذلك كان كثير من الطلبة يجتمعون فى باحة صغيرة على مقربة من المراحيض ، حيث لا يأتي احد من هيئة

الادارة ، ويشرعون فى التدخين ، بينما يقف احدهم عند المدخل لانذارهم بالخطر !

هكذا ، لا يكاد «بوري» الاستراحة يدق ، حتى يهرع عشاق التدخين الى «المحششة خانه» ، ويبدأون فى التدخين . ولا حاجة للقول انني كنت ، طبعا ، منهم !

***

السيران : كانت ادارة المدرسة تقيم فى فصل الربيع من كل عام سيرانا للطلاب ، تجمع نفقاته منهم ، فتحضر لهم «نوبة» الات موسيقية ، وتستأجر لهم حديقة او بستانا ، ويقضي الطلاب يومهم حتى المساء . واذكر ان الادارة اقامت لنا سنة ١٩٠٧ سيرانا فى حديقة «الافندي» فى حي باب توما ، مثلنا اثناءه رواية باللغة العربية ، فكانت اول رواية مثلت فى مكتب عنبر .

وكان «السيران» فى ذلك العهد جزءا من حياة الناس . وكانت فى دمشق جمعيات مهنية ، غايتها تنظيم التسلية والنزهات لابناء الصنعة . وكان بعض افرادها يركبون فى السيران الرهاوين والخيول ، والبعض الاخر يركب الحمير من هليبية وقبرصية وقروية ، ويسير فرسانِ كل فئة على حدة ، الى مكان السيران ، حيث يترجلون ، ويبدأ الهرج والمرج .

واذكر ان صغار «الزعران» كانوا يجتمعون قرب الحمير ويصيحون فيها : «زعر ! زعر !» ، فتأخذ كلها فى النهيق ، ويتصاعد منها اصوات منكرة ، فتقوم قيامة اصحابها ، ويلحقون الاطفال بالعصي والحجارة .

وما يزال سكان دمشق الى يومنا هذا يحبون «السيران» فتراهم فى الربيع والصيف منتشرين بين البساتين وعلى ضفاف السواقي ، يتمتعون بجمال الطبيعة .

الرياضة فى مكتب عنبر : لم يكن للرياضة ذكر فى مناهج المدارس العثمانية فى زمننا ، ولذلك كانت العابنا بسيطة ، نقوم بها فى باحة المدرسة ، وهي تكاد لا تتسع لسير خمسين طالبا ، فكيف اذا خرج يلعب فيها خمسماية ؟

من ألعابنا فى ذلك الحين ، اذكر لعبة الطيح ، الاسير ، ام عميش ، كسرة اليد ، سباق الركض . هذا كل ما كنا نلعبه فى المدرسة الاعدادية . وكان المدير والمعلمون ينظرون الى الولد الرياضى بعين الازدراء ، وينعتونه بالطائش . ولا عجب فانه لم يكن للرياضة فى دمشق كلها شأن يذكر .

اما الالعاب التى كانت شائعة فى دمشق اجمالا ، فانني اذكر منها لعبة «الدوج» ، وهو عبارة عن حجر «مفلطح» ، يحمله اللاعب ويحاول ان يصيب به «النكرة» ، وهي حصاة بحجم الجوز ، فمن يصبها يربح اللعبة ، ويركب على ظهر رفيقه شوطا !

وهناك لعبة «طابة التيس» ، وهي كرة محشوة بالخرق ، يقذفها اللاعب على حجر يكمن وراءه لاعب أخر ، فاذا اصابته احتل مكانه وراء الحجر . ويشترك فيها عادة خمسة او ستة لاعبين ، وتنتهي بان يمتطي الفائزون ظهور المهزومين !

اما كرة القدم وكرة السلة فلم نكن نعرفهما . واني اذكر ان اول لعبة «فوتبول» رأيتها فى دمشق كانت تمرينا يقوم به الاخوان نوري وحسن الايبش فى مرجة الحشيش قرب «صدر الباز» ، وكان هناك جسر على نهر بردى ، وميدان فسيح للعب الجريد . واذكر ان الكرة سقطت يومئذ على رأس أحد المتفرجين ، المرحوم نعيم الغزي — وكان من المتعممين — فضغطت عمته على رأسه الى ما تحت اذنيه . وكان بين المتفرجين حقي باشا مشير الشام ، فضحك حتى وقع طربوشه فى العربة . وقد شاهدته بنفسي لانني

كنت واقفا مع وكيل خرج دارنا امين اغا الى جانب عربة المشير .
وقد تعلم السيد نوري الايبش يومئذ تلك اللعبة من الجامعة الاميركية فى بيروت ، اذ كان طالبا فيها .

* * *

السيف والترس : كانت لعبة السيف فى ذلك العهد ، أكثر الالعاب انتشارا بين الدمشقيين ، توارثوها ابا عن جد ، لانها تعلم الشباب الرجولة والخفة ، وتروض الاجسام ، وتعود الشباب على الصبر ، ولها اصول ثابتة ، لا يمكن الخروج عنها ، ويشترك فى هذه اللعبة من اثنين الى خمسة لاعبين . فاذا لعب اثنان حمل كل واحد منهما سيفا وترسا ، وقد ينضم اليهما ثالث يحمل سيفين ويتوسط اللعب . واذا لعب خمسة ترأس احدهم المعركة وحمل سيفين فى آن واحد وتوسط اللاعبين .

ويكون اللعب على الاكثر حبيا ، اما اذا وقع خصام بين لاعبين ، فانه ينتهي الى حادث مؤلم . وكان من الرؤساء المشهورين لحلقات السيف والترس ابو سعد الخضري ، ابو شاكر مسلم الخانجي ، الريس العبسه الميداني ، ابو علي الصباغ أبوعلي القباني ، ابو صالح رشيد الخجا ، ابو عز وحسن الارناؤوط ، ابو عادل السروجي . واكثر هؤلاء انتقلوا الى رحمة الله .

من تقاليد لعب السيف والترس «الشد» وهو ان يقطع رئيس اللعبة على التلميذ الجديد عهد الولاء ، وبعد ذلك يكرسه لاعبا رسميا ، وينادیه بلقب «ابني» وكانوا يسمون التلميذ بالشراق ، وهي كلمة فارسية تعني المولى .

وتجري هذه المراسم بحضور رؤساء هذا الفن من جميع الاحياء ، فيقرأ الريس دعاء مخصوصا لهذه اللعبة وهو : «بعد

الفاتحة سبحان ابدي الابد ، سبحان من بسط الارض على ماء جمد ، سبحان مقسم الارزاق ، من لا ينسى من فضله احد ، سبحانه من ذاته وصفاته ، قل هو الله أحد». ثم ينادي باعلى صوته : صحائف النبي (ص) صحائف «العشرة المبشرة» بالجنة من الصحابة الكرام ، صحائف الاسد الكرار علي بن أبي طالب ، ابن عم النبي المختار ، رضى الله عنه وكرم وجهه ، صحائف فاتح الشام ابو عبيدة الجراح ، صحائف سيف الاسلام خالد بن الوليد رضى الله عنه ، صحائف فلان وابي فلان وابي فلان ويعدد اسماء ابرز الحاضرين من وجوه المحلات .

ثم يفتح بقجة من اثياب ، فيها قنباز حريري يسمى بالصاية ، وشملة ، فيلبسون التلميذ الصاية . ومتى زنروه بالمشلح دخل فى جماعة اللاعبين ، ويقرأون الفاتحة ، ويصبح الشاب بعد ذلك لاعبا ، ويمكنه ان يشترك فى طوابق اللعب !

***

لعبة الحكم : لعبة يتمرن عليها اولاد الاحياء ، تمهيدا لانتقالهم الى لعب السيف والترس . ولا يتمكن لاعب السيف من اجادة لعبته الا اذا تعلم الحكم .

عدة هذه اللعبة هي درقتان من جلد ، محشوتان بالصوف او القطن ، وللدرقتين مقابض يتقي بها اللاعب ضربات خصمه . والدرقة الواحدة اسمها «حكمه» ، واللعب يكون بقضيب من الخيزران او السفرجل .

وهذه اللعبة تربي فى الشاب عضلاته ، وتعلمه على الشجاعة والصبر وهي من انفع الالعاب . وليت النوادي تعيدها سيرتها الاولى !

باشاوات واوسمة

اثناء السنوات السبع التى قضيتها فى مكتب عنبر ، لم انل اية اجازة استثنائية ، بسبب «شيطنتي» ، الا يوم انعم السلطان عبد الحميد على خال والدي عطا البكري ، برتبة الباشويـــة . وعندئذ تعطف مدير المدرسة ، واجازني ثلاثة ايام . ولم يبق يومئذ فى دمشق احد من الاصدقاء والاحبـاب الا شاركنا بافراحنا . ولا عجب فان الحصول على الباشوية فى تلك الايام كان حدثـا عظيما، لان مقاييس الدنيا كانت يومئذ رتبا والقابا !

لما كانت الرتب تعطى من الاستانة ، فقد كان اكثر الذيـــن يحظون بها من موظفي الدولة الاتراك ، خصوصا من ابناء الاستانة نفسها ، وممن يتعين فيها من ابناء الولايات . وكانوا يسمون الاقطار الخارجة عن العاصمة «طشره» . وكان لقب الباشوية يعطى لكل من يصبح وزيراً ، ولو لم يكن تركيا. اي من «الطشرليه»

وكان وجوه البلاد من الاغنياء يطمعون بنيل الرتب ، مع انها رتب فخرية لا راتب لها . ومع الزمن ولدت مهنة جديدة ، هـي مهنة السماسرة الذين يتولون الوساطة بين طالب الباشوية وبـين استانبول ، لبيع اللقب بالمال . وفى اواخر ايام السلطان عبد الحميد بلغ ثمن الباشوية مائتي ليرة ذهبية عثمانية ، وهو مبلغ كبـــير بالنسبة الى ذلك العهد .

عرفت سمسارا للرتب باع رتبا كثيرة فى دمشق . فكـــان اذا اختلف مع احد الباشوات اعلن بصوت جهوري على الملأ انـــه سيسحب الباشوية من فلان ، لانه هو الذي اتاه بها !

ركبت يوما مع والدي قاصدين الى دوما ، حتى وصلنا الى قطعة ارض تدعى «البحصة» ، فوقفنا امامها . وكان العمـــال ينصبون فيها مروشا ، اي نصب زيتون ، فالتقينا هناك بسمسار

نوذج من حملة الرتب والالبسة المزركشة: صورة الوفد السلطاني الى تدشين الخط الحجازي فى دمشق سنة ١٩٠٨، وترى فى الصف الاول جلوسا من اليمين : الفريق بحري باشا ، مندوب السلطان رحمي باشا ، المدير العام للخط الحجازي كاظم باشا ، المشير رضا باشا . اما الوقوف فهم من اليمين : الامير الاي ناجي بك ، باشا المدفعية زري باشا ، عبدالرحمن باشا اليوسف ، محمد باشا العظم ، جواد باشا مشير الشام .

مشهور بتدبير الالقاب ، فقال لوالدي : ما رأيك يا ابافخري بباشوية بمائتي ليرة عثمانية ؟

فضحك والدي وقال : ان «مروشة» واحدة من هذه الشجيرات تساوي عندي جميع الرتب الحكومية !

* * *

رتب الدولة العثمانية : كانت الرتب يومئذ على ثلاثة اقسام : ملكية ، وعسكرية ، وعلمية . وكانت تعطى بفرمان ، اي بمرسوم ملكي يصدر عن السلطان ، وهي على درجات متفاوتة .

واذا وجد صاحبا درجة واحدة يتقدم صاحب الرتبة السابقة بالتاريخ زميله حامل نفس الرتبة . ولكل رتبة لباس خاص منقوش بالسيم المعروف عندنا الـ « صرمة » اي القصب .

اما الاعياد والايام الرسمية التى كانوا يرتدون فيها لباس التشريفات ، فهي عيد الاضحى وعيدالفطر وعيدا جلوس وولادة السلطان ، ويوما خروج المحمل من دمشق ، وعودته اليها .

وكان اصحاب الرتب يفرحون فى المواسم الرسمية فرح الاولاد بالاعياد ، فيقضون الليل فى تعهد لباس التشريفات بالمسح والكي ، وتلميع السيم بالزيت لازالة الصدأ عنه .

حدثني مرة صديقي المرحوم تيمور باشا فقال : فى احد ايام المراسم اخرجت لباس التشريفة لتهيئته ، واذا بولدي الصغير يركض ويمسك بالرداء ، ويصر على ان يلبسه . وعبثا حاولنا اقناعه بالعدول عن هذا الطلب ، فقال لي الصغير : لمن تكون زخارف القصب ، أللصغار ام للكبار ؟

قال احمد تيمور : ومن ذلك اليوم لم اعد ارتدي ذلك اللباس!

* * *

وفيما يلي تفصيل الرتب فى العهد العثماني ، مع تفصيل الرتب التى كانت تعطى لها :

الرتب الملكية : رتبة الوزارة باشا ، مير ميران اولى صنف ثاني باشا ، رتبة اولى صنف اول بك ، رتبة ثانية صنف متمايز بك ، رتبة ثانية صنف ثاني بك ، رتبة ثالثة وركاب همايون وقيوجي باشي لغي افندي ، رتبة رابعة وخامسة افندي .

الرتب العسكرية : مشير باشا، فريق اول باشا ، فريق باشا ، ميرالاي بك ، عسكري قائمقامي بك ، الاي اميني وقول اغاسي افندي او اغا ، يوزباشي اغا .

الرتبة العلمية : كانت كلها «افندي» وتعطى الى : صدر روم ايلي ، صدر اناطولي ، حرمين شريفين مولويتي، بلاد خمسة مولويتي ، مخرج مولويتي ، موصلة سليمانية ، خواجكان.

* * *

وسام ... للحمار ! ـ كما كان الاغنياء يتنافسون على الرتب ، كانوا يتنافسون على الاوسمة العثمانية ، ويدفعون ثمنها غاليا. وأذكر بمناسبة حديث الاوسمة حكاية وقعت يوم زار امبراطور المانيا غليوم الثاني، دمشق فى سنة ١٨٩٨ ، فاستقبلته المدينة استقبالا عظيما.

الحمار حامل وسام امبراطور المانيا .. يرئبه حسن تللو (الطفل الصغير)

في اثناء الاستقبال لاحظت الامبراطورة حمارا ابيض، فاستلفت نظرها ، وطلبت الى الوالي أن يأتيها به ، لكي تأخذه معها ذكرى. فراح الوالي يبحث عن صاحب الحمار ، فعلم انه يخص ابا الخير اغا تللو . وكان الاغا من وجوه محلته ، ويفاخر دائما بان له حبيبين: الحمار وحفيده حسني !

استدعى الوالي ابا الخير ، وطلب اليه اهداء الحمار الى الامبراطورة ، فاعتذر . فعرض عليه شراءه منه ، فاصر على الرفض ، ولما اشتد الوالي في الالحاح ، اجابه ابو الخير :

ـ يا افندينا ، ان لدي ستة رؤوس من الخيل الجياد ، ان شئت قدمتها كلها الى الامبراطورة هدية مني ، اما الحمار فلا !

استغرب الوالي هذا الجواب ، وسأله : ولماذا ؟

قال : سيدي ... اذا اخذوا الحمار الى بلادهم ستكتب جرايد الدنيا عنه ، ويصبح الحمار الشامي موضع النكتة وربما السخرية، فيقول الناس ان امبراطورة المانيا لم تجد في دمشق ما يعجبها غير الحمار . لذلك لن اقدمه اليها ، ولن ابيعه !

ونقل الوالي الخبر الى الامبراطور والامبراطورة ، فضحكا كثيرا ، واعجبا بالجواب ، واصدر الامبراطور امره بمنح ابي الخير وساما ، فسماه « وسام الحمار » ، وأشتهر امره زمنا في دمشق !

* * *

الاطفائية ـ ضرب البوق في منتصف احدى الليالي ، وكنا نياما في مهجع «مكتب عنبر»، فصحونا على نداءات متتالية : يانغين وار ! يانغين وار ! (حريق ! حريق !)

نهض كبار الطلاب ، وهرعوا بلباس النوم الى المضخة الموجودة في مدخل المكتب ، وحملوها الى مكان الحريق في المطبخ حيث اطفأوه. وبعد ثلاث ساعات تقريبا وصلت فرقة « الاطفائية » البلدية، ومعها

مضخة على اربع عجلات يدفعهاالناس ، وهم يصيحون : حريقة ! حريقـــــة !

وجرت العادة يومئذ اذا وقع حريق ، ان يخرج موظف الاطفاء فى البلدية الى الساحة ، وينادي « حريقة ! حريقة ! » . وكـــان الرعاع المعروفون باسم « بابا حسن » ، او « كلهان بك » بالتركيـــة، يجتمعون عادة قرب سوق الخيل وساحة المرجة وسوق علي باشـــا وسوق السنجقدار وزقاق رامي ، فعندما يسمعون النداء، يتراكضون الى البلدية ، حتى اذا اصبح عددهم كافيا ، حملوا المضخة ، اوجروها على العربة ، الى مكان الحريق . وكانوا يفعلون ذلك حبا بالنهب . وليس بينهم من يتقاضى «اكرامية» من صاحب المحل المحروق ســـوى رئيس الاطفائيـــة .

يقظة الروح العربية

اربعماية سنة ونيف كانت قد مرت على الاتراك وهم يحكمون بلادنا لما دخلنا مكتب عنبر. وكان من الطبيعي ان يتولد شيء من النفور بين ابناء الحاكم وابناء المحكوم. فالاتراك كانوا يومئذ ابناء الست، ونحن ابناء الجارية. ولم يكن احدنا ليجرأ على رفع رأسه امام المعلمين ورجال الادارة، وكلهم من الاتراك، كما ان رهبة الحكم العثماني كانت تملأ القلوب.

احمد باشا الشمعة

ان انس لا انس مشهدا رأيته امام دار احمد باشا الشمعة. كان احمد باشا من اخص رجال عبد الحميد، سلطان البرين وخاقان البحرين، وقد منحه السلطان امتيازا عن سائر رجال الخاصة اذ اعطاه آلة برق (تلغراف) مرسلة ولاقطة في داره، ليخابر بها السلطان رأسا.

غضب السلطان على احمد باشا يوما، لسبب اجهله، فأمر باعتقاله في داره، ووقف امام بابه «بوليس نظامي»، اي شرطي بلباسه الرسمي، يراقب كل داخل وخارج، ويسجل اسماءهم. وقد مررت يوما من هناك، فرأيت المارة يضطربون عندما يقتربون من

دار الشمعة ، فيثبتون انظارهم الى الامام،حتى لايلتفتوا لفتةواحدة نحو باب الباشا ، خوفا من ان يحاسبوا على النظرات !

بسبب هذاالرعب الذي بثه الحكم العثماني فى النفوس ، لم يكن احد يجرؤ على ذكر العرب والعروبة ، خصوصا من الذين يعيشون مع الاتراك فى السرايات ودوائر الحكومة .

فى تلك الايام بدأت الروح العربية تستيقظ خصوصا فى الشبان وبدأت نغمة ترك وعرب تتردد فى المجتمعات الخاصة ، وأخذ بعض الطلاب فى مكتب عنبر يتمردون على المعلمين الاتراك . وقد سبب ذلك ظهور روح شريرة عند العناصر غير العربية ، كالترك والكريديين والارناؤوط ، فراحوا يتحرشون بنا ، هذا بالنعر وذاكبالنكش،ونحن نرد عليهم بالمثل . وما لبثوا ان شكلوا جمعية من اصحاب الاجسام المتينة سموها « طاغلر جمعيتي » ، اي جمعية الجبال ، وعلىرأسهم بدر الدين السباهي ،شقيق الاستاذ نجم الدين السباهي الاديب التركي المشهور ، وهو من الارناؤوط . وكان من عادة «الطاغلريه» ان ينتظم كل اربعة او خمسة منهم فى صف واحد ، ويركضوا فى الملعب ، فيدفعوا امامهم كل من يعترضهم من الطلاب المفردين . وعلى الاثر شكل الطلبة العرب مقابلهم كتلة من اصحاب الاجسام المتينة ، منهم السيد رشدي القوتلي (ابو راشد) ، والسيد توفيق المالكي (أبو الرعود) والسيد نسيب البكري (ابو عطا) والداعي لله (ابو الحسن) لخ .

ومع الزمن ازدادت العداوة، وانتقل الاحتكاك من اللعب الخشن الى الشجار داخل المكتب ، ثم خارجه . وكنت يومئذ قد بلغت الصف الثالث (حول السنة ١٩٠٤) ، فكنا نتواعد على الصدام معهم فى مكان ما خارج المدرسة . وكانوا يجلبون معهم رفقاءهم من محلة المهاجرين، ونحن نحضر معنا رفقاءنا ، فيدور شجار يكثر فيه الجرحى . واخيرا تدخلت الحكومة ، وجعلت ترسل شرطة خاصة الى الساحات لتمنع الخصام والشجار . هكذا كان النفور يتزايد بيننا وبينهم كلما

تقدمنا بالصفوف ، حتى جاءت سنة ١٩٠٨ م ، ووقع الانقلاب العثماني .

***

معركة شخصية : وفى معرض هذا البحث اذكر حادثاشخصيا وقع لي مع بدري السباهي رئيس جمعية « الطاغلرية» المشار اليها. فقد اشتد العداء بيني وبينه بصورة لا مثيل لها بين سائر الطلبة حتى تواعدت واياه على النزول فى المساء ، بشرط الا يخبر احدنا احدا من رفقائه بالامر ، وبالفعل لم نخبر احدا ، واجتمعنا فى اخر زقاق الحمراوي قرب مدخل «القباقبية»، فتماسكنا وتشابكنا بالايدي، ودار اللكم واللطم ، والخبط والرفس ، والخدش والخمش ، حتى سالت الدماء من وجهينا . ثم ضربته بطبق الطعام « السفرطاس » ، فاصبته فى جبينه بجرح بليغ . وهنا تدخل بعض المارة وفرقونا والدماء تسيل منا .

وبينما كان الناس يبعدون كلا منا عن الاخر ، كانت الشتائم تنطلق من فم كل منا كالرشاش : أنا اشتم بالعربية ، وهو يشتم بالتركية . واعتقد ان الشتائم التركيةاقبح بكثير من الشتائم العربية. وبينما نحن فى هذه الحال ، اذا بالمدير المعاون فىمكتبعنبر، نظاميات افندي ، يمر بنا ، فوقف والقى علينا درسا بالاخلاق ، ولم يفارقنا حتى صالحني واياه ، فقبل احدنا الاخر ، ومشينا سوية كأن لم يجر شيء بيننا اصلا !

عيون تتفتح

بدأت عيوننا تتفتح على الحقائق القومية حول السنة ١٩٠٥ ـ ١٩٠٦ ، وهي السنة التي نلت فيها الشهادة المتوسطة . ولا يستطيع ان يقدر الفرح الذي ساورني بهذا النجاح الامن دخل الفحص ونال الشهادة .

وفى السنة السادسة بدأت أطالع بعض الصحف المصرية التي كانت تتسرب الى دمشق كالمقطم والاهرام والمؤيد ، ولاادري كيف كانت تصل اليها ، لانها كانت ممنوعة . ولم نكن نحن نعرف من الجرائد الا جريدة « الشام » .

واذكر ان بعض اصدقاء لي كمحي الدين الخطيب وعثمان مردم بك ، كانوا يأتون بعدد او عددين من الجرائد المصرية وينقلونها الى عدد محدود من اصدقائهم من الشبان الناشئين ، فيمر العدد من يد ليد بصورة خفية ، دون ان يطلع على ذلك احد .

وكان قد بدأ يتكون فى دمشق جمهور من الشباب العرب ، من خريجي المدارس العالية كالطب والحقوق والمكتب الملكي ، وهو اعلى مدرسة لاخراج الموظفين الاداريين .وكانوا يعقدون اجتماعات خاصة ، ويخوضون فى احاديث جديدة غير مألوفة عند الدمشقيين آنذاك . فبينما كان الدمشقي يومئذ من اي طبقة كان ، لا يتحدث الا عن طعام يومه، وعن الاشكال التي اكلها وكيفية طبخها والدعوات التي دعي اليها ، والحفلات الكبيرة التي اقامها وجهاء البلدة ، كان هؤلاء الشبان الناهضون يتحدثون عن اوروبا وتقدمها وعلومها ، وعن نهضات الشعوب ، والشكوى من ظلم الحكومة ، واستبداد السلطان عبد الحميد ، وسرد حكايات طويلة عريضة عن اغراق الاحرار في بحر مرمرة ، وتعذيب الالوف من الشبان المطالبين بالاصلاح.

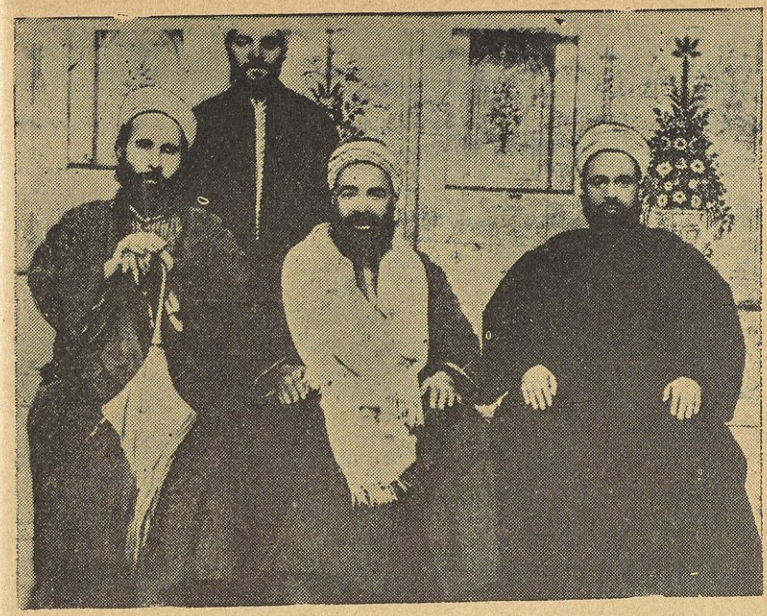

الشيخ طاهر الجزائري المغربي (الى اليسار جلوسا) فالشيخ محمد البارك
فالسيد عبد الباقي الجزائري

وكنا نسمع هذه الاحاديث فى مجالس الشبان كلما سنحت لنا فرصة بالاجتماع اليهم ، ومن بينهم السادة : شكري العسلي ، عبدالوهاب الانكليزي وسليم الجزائري . (وقد شنقهم جلال باشا اثناء الحرب) والاستاذ محمد كرد علي ، والدكتور عبد الرحمن شهبندر ، وعلى رأسهم شيخ احرار العرب ذلك الحين ، الشيخ طاهر المغربي الجزائري ، وهو شيخهم وشيخنا ، وله اكبر فضل فى تنوير الابصار والبصائر ، ودفع العرب فى طريق التقدم . وهو اول من فتح مدارس البنات فى دمشق .

وكان يحضر اجتماعات الشلة الشيخ سليم البخاري ، والشيخ

جمال القاسمي ، والشيخ عبد الرزاق البيطار ، وهم من الشيوخ الاحرار المجددين ، وكانوا جميعا موضع نقمة الحكومة .

وكنا اذا حضرنا مجالسهم ، يتحفظون امامنا . وعلى الرغم من ذلك كانت احاديثهم اصلاحية توجيهية ، فاتهمهم بعض الناس بانهم وهابيون ، واتهمهم اخرون بالماسونية .

فى هذا المحيط فتحت عيني على الدنيا ، ومن رجاله اقتبست الوطنية والحرية ، ومن شبانه تعلمت الجسارة والجراءة . رحم الله من مات منهم ، واحسن الى من بقى حيا !

الانقلاب العثماني

في السنة الدراسية ١٣٢٣ ـ ١٣٢٤ مالية (١) ، اي في العام ١٩٠٨ ، وقع الانقلاب العثماني . وكنا يومئذ في الصف السابع الاخير ، والسنة على وشك الانتهاء ، فقامت القيامة ، وخرج المنادون ينادون في الاسواق باعلان الدستور والحرية والمساواة والعدالة ، واقيمت الزينات ، وراح الناس يهتفون مع الهاتفين ، دون ان يفهموا شيئا مما جرى . وما اقل الذين كانوا يفهمون معنى الحرية التي ينادون بها !

في اثناء المهرجانات ظهرت شلة الاحرار الذين تقدم ذكرهم،على مسرح الانقلاب ، فكانوا في مقدمة فرسان هذا الميدان .

قامت بالانقلاب جمعية « الاتحاد والترقي » ، وكانت سرية حتى وقع الانقلاب ، فظهرت علنا بعده ، وعلى رأس رجالها نيازي وانور .

وفي مدة قليلة تشكلت لها فروع في جميع الولايات ، وساعد على تشكيلها الموظفون الذين نفاهم عبد الحميد من الاستانة . وكان منهم في دمشق مدير معارف الشام حسين عوني بك ، وهو من احرار الترك ، وشى به احدهم الى السلطان ، ففر على الاثر الى انكلترا ملتجئا ، وقضى فيها بعض سنين . من ثم توسطت له السفارة الانكليزية ، وحصلت على عفو ، فعاد بوظيفة مدير معارف ولاية سوريا . وكان ربانا لاحدى بواخر الدولة عند فراره .

هذا الرجل له حوادث عجيبة ما زلت اذكر بعضها . كان

لما كانت اشهر السنة الهجرية تتبدل فصولها على مر الايام ، كان يقع تشويش في جباية اموال الدولة وقيودها ، فقررت لجنة الاصلاحات الخيرية تبديل السنة الهجرية بالسنة الميلادية وطبقوا ذلك في سنة ١٢٥٦ هـ وجعلوا اسم السنة مالية بدلا عن ميلادية .

صلبا ، ضيق الصدر ، قصير القامة اذا مشى بين الاولاد يبدو اقصرهم ، وكثيرا ما كان يدفعه احد الطلاب اثناء ركضه فيثور وينزل بسوطه على الطالب حتى يحرمه العافية .

اتاه مرة احد أبناء الاسر العريقة بكتاب توصية من وزير كبير فى الاستانة ، مرسل اليه بواسطة الوالي ناظم باشا ، فما كان منه الا ان مزق الكتاب وقال للطالب : اذهب وقل للوالي ان يبرق الى قريبك الوزير ، اني مزقت الكتابين ودستهما برجلي هكذا !

ورمى بالاوراق الممزقة الى الارض وداسها برجله وكان ذلك قبل اعلان الدستور بسنة او سنتين .

وهذا الرجل برز بعد الانقلاب العثماني ، واستلم ارفع مركز فى جمعية الاتحاد والترقي ، واصبح هو ومعاونه هاشم بك المسيطرين على فرع الجمعية فى سوريا . وكان الناس قد اخذوا يتهافتون على الانخراط فى الجمعية بكثرة ، مما سيرد تفصيله

هزة الانقلاب

وصل خبر الانقلاب العثماني من الاستانة مساء ١١ تموز فاعلنته حكومة الولاية فى الساعة الحادية عشرة ليلا . وفى الصباح التالي – وكان يوم سبت – خرج المنادون الى الاسواق ينادون به، دون ان يفهم اكثر الناس معناه ومرماه .

وقد اسقط فى ايدي رجال الحكومة المحلية . وحاروا فى تعيين موقفهم من رجال المعارضة بعد هذا الانقلاب . وقدسارع كثيرون منهم الى تبديل خطتهم ، وتقربوا من الاحرار الذين استلموا فرع جمعية الاتحاد والترقي فى دمشق ، وعلى رأسهم حسين عوني بك .

ذكرت فى الفصل السابق شيئا عن حياة حسين عوني بك، وعن اخلاقه . واذكر الان حكاية اخرى عنه :

كانت حكومة عبدالحميد تؤخر فى بعض الاحيان دفع رواتب الموظفين شهرا او يزيد . ولذا كان الموظفون يبيعون سندات رواتبهم الى سماسرة مخصوصين ، يشترون الليرة بريال مجيدي وكان على رأس هؤلاء « دفتر دار » الولاية ، اي مدير ماليتها ، وهو من اتراك الاستانة .

وقدساوم احد السماسرة حسين عوني على شراء راتبه فى احد الاعياد فابى البيع . وعندئذ اخروا دفع راتبه ، فابرق الى السلطان عبدالحميد برقية قال فيها : « جميع الموظفين فرحوا بأخذ رواتبهم فى هذا العيد الا انا ، فقد اخروا عني الدفع . فهل هذا هو العدل السلطاني ؟ انتظر الانصاف ! »

وصدف ان وصلت البرقية بسرعة الى يد السلطان ، فاصدر ارادته بتعيين حسين عوني مديرا للمعارف فى دمشق . وبالرغم من انه اصبح موظفا كبيرا ، ظل تحت المراقبة حتى اعلان الدستور،

اذ ظهر على المسرح السياسي واستلم رياسة فرع جمعيـــة الاتحاد والترقي التي قامت بهذا الانقلاب .

اما اعضاء الفرع فكانوا خليطا من العسكريين والملكيين ، وفيهم بعض ابناء دمشق ، فكان من الاعضاء العاملين بهاء الدين بك المناسترلي واسعد بك اركان حرب ، الذي تعين بعد الدستور مديرا للشرطة في دمشق ، وهو من اسرة الدرويش من طرابلس الشـــام ، المنتمية الى ال قرقمـــــاز .

وكان من اعضاء الفرع السيد احمد ابش، ومن الاعضاء المساعدين مجيد باشا العظم ، عبدالرحمن باشا اليوسف ، جبران لويس وغيرهم

اما المثقفون من ابناء البلاد فانهم ساروا بهذا التيار ومشـــوا مع احرار الاتراك ينادون مثلهم ، ويخطبون ويرشدون النـــــاس الى تفسير ما غاب عنهم تفسيره من الكلمات الجديدة : حريـــت ، مساوات ، عدالت ، اخوت (اي الحرية والمساواة والعدالة والاخوة) .

وجدت هذه الكلمات صدى في نفوس الناس ، وراح الاتحاديون ينادون بالاخاء ، فيجمعون رجال الاديان المختلفة ، ويطلبـون اليهم ان يتعانقوا بعضهم مع بعض ، ويخطبون بعد العناق بتأييد هـــذا الاخاء . وكان اكثر التأييد على ما اظن ظاهريا لان حال البـــلاد بعد اعلان الحرية ظل على ما هو عليه ، ولم يتغير فيها الا الكلمـــات اي بدلا من « بادشاهم جوق يشا » ، اصبحوا ينادون « يشاســـون حريت » . اما الادارة ومعاملات دوائر الدولة فلم تتبدل !

وقد ساعد الاتحاديين على نشر دعايتهم اللوج الماسوني انـــذي كان مغلقا قبل الدستور وكان مربوطا بالمحفل الايطالي ، ومن اركانـــه المرحوم الامير عبدالقادر الجزائري . وبعد الانقلاب فتح المحفل ابوابه وجمع الاعضاء شملهم ، واسسوا محفلا جديدا اسموه محفل « نور دمشق » وربطوه بالمحفل الاسكتلندي ، وقد تعاقب على رئاســـته السادة مصطفى السباعي الخطاط المشهور جبران لويس ، ثـــم

غالب شاوول مدير البنك العثماني ، ثم الاستاذ فارس الخوري ، وهو من اعضاء شلة الاحرار تلامذة الشيخ طاهر الجزائري . وبعد نشاط قصير عادوا فاغلقوا المحفل ، وما يزال مغلقا الى الان .

ظهور الخطباء : استمر الابتهاج بالانقلاب زمنا طويل ، وراح الناس يتسابقون فى اقامة المهرجانات ، فيقوم فيها الخطباء ويستفزون حماسة الجماهير بالعبارات الرنانة المزوقة .

السيد مصطفى السباعي

لم يكن فى دمشق بذلك التاريخ خطباء بالمعنى المقصود من الخطابة وكان خطباء المساجد موظفين يقرأون ايام الجمعة الكراسات المطبوعة . وكانت خطبة المساجد فى العهد العثماني واحدة ،وهي الخطب التي وضعها ابن نباته منذ الف سنة .

اما الخطباء المدنيون فلم نكن نعرف عنهم شيئا ، ولم اسمع فى عمري خطيبا خارج المساجد الا عند اعلان الانقلاب ، حيث قام شبان الاتراك يخطبون باللغة التركية ، وخريجو المدارس العالية من ابنائنا يخطبون باللغة العربية ، ومنهم السادة الانكليزي والشهبندر وفارس الخوري . وكانوا يؤثرون على الجماهير باقوالهم ، ويسترسلون فى الحديث عن الحرية ومعانيها .

ومن اطرف ما وقع فى هذا الموضوع ان ضابطا من ابناء دمشق يدعى احمد جودت كان من اشد المتحمسين للحرية ، فراح يعدو من حي الى حي ليفهم الناس معنى الانقلاب . وقد رأيته ليلة فى حي الميدان يخطب باللهجة العامية ، فحمل على احمد عزت باشا العابد حملة شعواء ، واتهمه بكل شنيعة .

وكان عزت باشا من ابنـــاء الميدان ، واهل الميدان موصوفون بالرجولة ، فاستاؤوا من التعرض لزعيمهم . فلما رأى الخطيب ان العين احمرت عليه ، وسمع الهمهمة من كل جهة، احس بالخطر، فطلب الى ضابط الجوقة الموسيقية العسكرية ان تتهيأ للعزف ، وقال :

ـ اتعرفون يا اخوان ما هي الحرية ؟ الحرية غزالة مسجونة فى قفص، فتحوالها الباب وفرت.. فرت الى الصحراء . هذه هي الحرية !

ثم التفت الى الجوقة وقال : « مزيكه دقي ! » ! فالتهى الناس بانغامها ونزل الخطيب عن المنبر وتوارى !

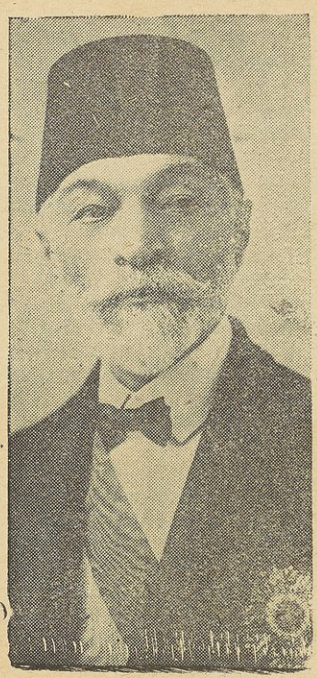

احمد عزت باشا العابد

* * *

المشير فؤاد باشا : كان بين كبار الاتراك المنفيين فى دمشق المشير فؤاد باشا ، المعروف بـ « دلي فؤاد»، اي فؤاد المجنون. وقد نفاه السلطان عبدالحميد من الاستانة الى دمشق ، فسجن فى البناية التي كانت يومئذ ناديا للضباط ، وهي قرب الثكنة العسكرية . وقد اصبحت اليوم جزءا من الجامعة السورية .

المشير فؤاد باشا ، وكان ياورا عند عبد الحميد ، ثم نفاه الى دمشـــق سنة ١٩٠٢ ، وظل فيهـــا حتى سنة ١٩٠٨

ولما اعلنت الحرية لم يطلق سراحه ، ولذلك ذهب الاستاذ فارس الخوري واسعد بك اركان حرب الى مدعي عام الولاية ، وطلبا اليه اخلاء سبيل فؤاد باشا ، فاجاب : لم يصلني اوامر من الاستانة !

قالوا : اي اوامر تنتظر ؟ هل بيدك امر مخطوط بسجنه ؟

فلما اجاب سلبا ، قالوا : اذن القانون يمنعك من ابقائه في السجن!

الامير عبدالقادر الجزائري

وعلى الاثر ذهب المدعي العام مع السيدين الخوري واسعد قرقماز واخرجوا المشير من سجنه ، ولا ادري اين ذهبوا به ولكن الذي اعرفه انهم اقاموا له حفلة تكريم في حديقة الدفتر دار وهي الحديقة الواقعة امام مدرسة التجهيز الاولى ، عزفت فيها الموسيقى العسكرية وخطب فيها الخطباء وسمعنا فيها المرحوم الدكتور عبدالرحمن الشهبندر يخطب لاول مرة في دمشق . واذكر انه اخرج منديله وطلب الى الناس اخراج مناديلهم ، وصار يلوح بمنديله ويقول : « اعملوا مثلما اعمل !» فصار الناس يلوحون بمناديلهم ، فكانت هذه العملية مثارا لانتقاد بعض الاوساط الناقمة على هذا الدور .

ومن الطف ما جرى بهذه الحفلة انهم كلفوا بعض الوجهاء بالقاء كلمة في هذه الحفلة . ولما كان اكثرهم لم يقفوا على المنابر

فى حياتهم ، فقد تلعثموا ، ومنهم الامير علي عبد القادر الجزائري الذي قرأ خطابا مكتوبا ، وكان نور السراج ضعيفا ، فوصل الى كلمة لم يتمكن من قراءتها ، فنادى باعلى صوته « مطموسة »، وترك الكلمة واستمر فى قراءة الخطاب ، فكان لهذه النكتة وقع جميل وصفق له الحاضرون طويلا !

انا وحسين عوني

ذكرت سابقا ان الانقلاب جرى قبيل ايام الفحص ، فكان لنا مفاجأة قوية اضعنا فيها عقولنا ، ثم جاء الفحص فوقعنا بين تيارين يتقاذفاننا : الفحص ونشوة الاحتفالات . وكان مدير المعارف حسين عوني بك (الرئيس الجديد لفرع الاتحاد والترقي) يلقي علينا ثلاثة دروس وهي علم الفلك والمواليد الثلاثة والجبر . فلما جاء فحص علم الفلك دخلت بدوري الى القاعة فاذا بالمدير يقلب وجهه ويكلمني بجفاء ، وانتهرني قائلا :« ارسم على اللوح دائرة ! »

رسمت دائرة ، فقال بصوت عال كأنه يشاجرني : افرض هذا القمر ، فاكتب اوجه وحضيضه !

فكتبت لشدة اضطرابي كلمة « الحضيض » في اعلى الدائرة وكلمة « الاوج » في اسفلها ، فصاح بي بشدة : اخرج ، تنبل !

طار صوابي من هذه المعاملة ، لا سيما وان حسين عوني قد اصبح اكبر من الوالي ومن المشير ، وهو الآمر الناهي في الولاية ، لا ترتد له كلمة . امرني بالخروج فلم افعل ، فدارت بيننا مشادة تركني على اثرها واقفا بجانب اللوح ودعا عدة طلاب فحصهم وانا واقف ، ثم تداخل المميزون في الامر وهدأوا روعه ، فالقى علي بضعة اسئلة اخرى اجبت عليها ونجحت .

ثم جاء دور الفحص في « المواليد الثلاثة » فاراد حسين عوني معاكستي ولكني نجحت ايضا . وجاء دور الجبر فدخلت بدوري فلما رآني ضحك وقال بصوت عال : دوشدنمي (اي هل وقعت ؟)

اجبت بالايجاب ، فالقى علي مسألة ذات خمسة مجاهل ومعلوم واحد ، فلم اقدر على حلها فاعطاني صفرا .

واذكر انني لما لم اجب ، قال : خذ القلم وضع الرقم الذي تستحقه إلى جانب اسمك !

اخذت القلم ووضعت رقم عشرة فضحك واخذ القلم ، ووضع نقطة وهو يقول ، صفر ، صفر ، صفر !

علي السقا اميني

سقط بهذه المسألة تسعة تلامذة جاؤوا بعدي وكان المعلمون قد اجتمعوا خارج غرفة الفحص وانهمكوا كلهم بحل المسألة ، فحلها اخيرا الاستاذ خير الدين افندي انجوق واخذها عنه رفيقنا الدكتور علي الابرش الصالحاني ، فدخل الفحص وفاز باولية الجبر .

وفى دورة الاكمال فحص حسين عوني جميع المكملين ، الا انا فانه لم يقبل ان يفحصني حتى تداخل وكيلي علي افندي السقا اميني ، الذي ولاه ابي امري منذ دخولي مدارس الحكومة ، فقبل ان يفحصني . ولما دخلت عليه قال : ان صدقتني القول نجحتك . هل اتيت بخنجرك ؟

قلت : اي خنجر ؟

قال : الذي تريد ان تقتلني به !

فعرفت عندها ان احد اخصامي فى المدرسة وشى بي اليه وشاية كاذبة ، فقلت له: يا سيدي انت من الاحرار ، وكنت ضحية الوشاية فهل تريد ان تسمع وشاية بتلميذ ضعيف ، وانت رئيس الاحرار فى دمشق ؟

فضحك وكتب على ورقة الاكمال رقم خمسة دون ان يفحصني وقال : اذهب اذن ، وهذا الرقم هو « دفع بلا » عن صحتي !

وقد علمت فى ما بعد ان احد الطلبة الاتراك هو الذي وشى بي الى حسين عوني بك ، انتقاما مني بسبب الخصومة التي قامت بين الطلبة العرب والاتراك فى معهد عنبر ، مما وصفته فى فصل سابق . وكانت هذه الوشايةسبب تنكر حسين عوني لي فى الامتحانات .

* * *

بعد الشهادة : بعد ان اديت فحص اكمال درس الجبر سنة ١٩٠٨ ونجحت فيه ، اصبحت مأذونا من المدرسة الاعدادية وحصلت على شهادتها ، فاقيمت لي الافراح والليالي الملاح .

وطلبت من والدي ان يرسلني الى الاستانة لاتمام التحصيل العالي هناك فوعدني بذلك اذا استقرت الحال بعد الانقلاب . وفى الانتظار انغمست فى تيار الحركة التي انبثقت عن الانقلاب ، ورحت احضر كل حفلة تقام . ولم يكن لنا هم الا انتقادالخطباء .

واقامت المدرسة الاعدادية بهذه المناسبة حفلة خطب فيها مدير المعارف ومدير المدرسة وبعض المعلمين . وقد طلبت من المرحوم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر أن يكتب لي خطابا القيه فى هذه الحفلة ، فكتبه لي ونمقه ، وجعل موضوعه « الحث على العلم » فكان اول خطاب القيته وكان له وقع كبير على المستمعين ، وممن اثر فيهم خطابي المرحوم احمد الدالاتي ، وكان لذلك صلة بزواجي فى ما بعد .

الردة على الانقلاب

كان طبيعيا الا يرتضي السلطان عبد الحميد العهد الذي فرضه عليه الانقلاب ، وهو الذي اشتهر بجبروته العظيم وملكه الواسع ، وكان الموت والحياة بين شفتيه ، ان ركب مشى الاكابر فى ركابه ، وان نزل وقفوا ببابه وخضعوا لموظفيه ، بل وخدامه .

وكانت ادارة البلاد فى عهده بايدي المتسلطين من الاعيان والوجهاء والحشوية من الشيوخ والسفطاء فانقطع رزقهم بعد الانقلاب ، وتهدم نفوذهم ،واضحوا مشردين فى الافاق . وعقب الصدمة الاولى استعادوا جأشهم ، فالف بعض رجال الدين بالاتفاق مع رجال عبد الحميد المعزولين وبتشجيع السلطان نفسه ، حركة خفية ، ظهرت بعد بضعة شهور من الانقلاب باسم « الجمعية المحمدية » فى الولايات والعاصمة . وقد استطاعوا ان يستميلوا كثيرا من العوام ، وراحوا يحاولون هدم ما انشأه الاحرار العثمانيون .

وكان يترأس هؤلاء الرجعيين فى دمشق الشيخ ابو الهدى الصيداوي الحلبي ، فراح يتهجم على الاحرار ، ويحرض الناس عليهم ، فتصدى له المرحوم الشيخ رشيد رضا ، وهو من احرار العرب الميامين الذين جاهدوا لرفع الظلم وبث الاصلاح .

وذات يوم القى السيد رشيد عظة فى الجامع الاموي داعيا الى اصلاح الدين ، فنهض رجل يدعى الشيخ صالح التونسي ، وراح يخطب فى المجسد ضد الشيخ رشيد .

وقد اتى المرحوم الامير شكيب ارسلان على ذكر هذه الحادثة فى كتابه « السيد رشيد رضا ، او اخاء اربعين سنة » فقال :

« ذهب الشيخ الى دمشق عند اعلان الدستور ، وهناك القى درسا يتعلق بالعقيدة ، ذهب الشيخ صالح الشريف التونسي ـ وكان

حاضرا ذلك الدرس ـ الى ان فيه تعرضا للاولياء ، وان فيه شيئا من الوهابية . وتكلم الشيخ بشدة ، فمال الجمهور ممن يقال لهم «الحشوية» الى كلام الشيخ صالح ، كما ان اصحاب النزعة الجديدة والدستوريين مالوا الى كلام الشيخ رشيد رضا ، وحصل ضجة عظيمة فى الجامع ، واتصلت بالحكومة فاستدعت الشيخ صالح الى دائرة البوليس بحجة انه اعتدى على الشيخ رشيد وانه كفره فشاع فى دمشق ان الشيخ التونسي اعتقل، واوجب ذلك هياج العامة فاجتمعوا وجاؤوا لتخليص الشيخ صالح من السجن والحقيقة انه لم يكن قد سجن بل استوقفوه بحجة انه هو الذي تعرض للشيخ رشيد . ولما رأى الوالي هذه الحالة ، وخاف الهرج والمرج ، ركب العربة واجلس الشيخ صالح بجانبه وانني لم احضر تلك الواقعة ولكنني سمعت خبرها .»

هذه رواية الامير شكيب عن الحادث اما انا فقد حضرت الواقعة فارويها كما شهدتها :

القى الشيخ رشيد رضا فى ٢٦ رمضان سنة ١٣٢٦ درسا تحت قبة النسر كان له وقع بليغ على الاهلين ، فتداعى الناس فى اليوم الثاني اي (٢٧ منه) الى المسجد ليسمعوا هذا الشيخ الفاضل ، وكثر الجمع حتى قدر بالالوف .

وبينما يلقي الشيخ رشيد رضا درسه ويشرح الآيات والاحاديث ويطلب الى الناس الرجوع الى سيرة الصحابة ، واتباع اوامر النبي والعمل بها، الى غير ذلك من النصائح والارشادات ، واذا بشيخ مغربي يدعى الشيخ صالح الشريف التونسي يشق طريقا بين الواقفين حتى وصل الى وسط الحلقة ووقف خلف الجالسين من المستمعين والشر باد فى عينيه. وبعد ان وقف قليلا يستمع ويجيل نظره بالحاضرين كأنه يزن الموقف ، صاح بصوته : ايها المسلمون اسمعوا لي كلمتين !

فالتفت الناس جميعهم اليه وسكت الشيخ رشيد ، فراح

الشيخ صالح يحذر من الوهابية ويقول : « واياكم ان يضلوكم عن دينكم ، ومنهم هذا الشيخ ـ واشار الى الشيخ رشيد ـ الذي يحرم زيارة قبور الانبياء والاولياء والصالحين ، ويمنع التوسل بهم ولا يعتقد بكراماتهم ، فهذا فعل الوهابية ، فانا احذركم منه فالانبياء والاولياء والصالحون يقربون الانسان الى الله ، ويقضون حوائج الناس اذا سمعوا الدعاء الخ . »

وهناك وقف الشيخ رشيد ليرد عليه وليثبت للحاضرين انه لم يذكر ما قاله الشيخ فى درسه ، ولكن الناس كانوا قد هاجوا وماجوا ، وكان بين الحاضرين عثمان بك العظم والقومسير يحيى افندي تللو ، وغيرهما من الشبان المنورين ، فالتفوا حول الشيخ رشيد واخرجوه من الجامع ، وخرج الناس من المسجد الى الشارع بهياج عظيم ، فذهبت الى داري .

وبعد الفطور سمعنا الضوضاء تأتي من الشوارع ، واذا باهل الاحياء قد خرجوا بمظاهرات مسلحة نحو سراي الحكومة يهتفون بسقوط مدير الشرطة العام اسعد بك ، وسقوط جمعية الاتحاد والترقي ، ومنهم من كان ينادي بسقوط « جمعية التفريق والتدني » واجتمع الوف الناس فى ساحة المرجة ، وكان والي سوريا يومذاك هو شكري باشا ، وقد اسماه الدمشقيون « شكرية خانم » لضعف شخصيته اذ كان يحكم الشام بالفعل اسعد بك المذكور .

وهجم المتظاهرون على دائرة الحكومة لاخراج الشيخ صالح من سجن النظارة ، وتعالت الاصوات :« اقتلوهم ! اقتلوهم ! » ، واتجه قسم من المتظاهرين واراد كسر باب الغرفة التي كان فيها اسعد بك مدير الشرطة العام . وقبل ان يصلوا الى غرفته ركض السيد شكري الطباع ، وهو من « قبضايات » حي القنوات ووقف امام باب غرفة اسعد بك وفتح ذراعيه ووضعهما على عضائد الباب قائلا : لا يصل احد الى اسعد بك الا على جثتي !

وانبرى ابناء محلته يردون الناس عن باب الغرفة الى ان تمكنوا من انقاذ من فى داخلها ، وكان من بينهم الدكتور حسين حيدر من بعلبك ، وعمر فرحات مدير شرطة دمشق وعلى الاثر هرب اسعد بك الى بيروت .

هذه الفتنة كانت ولا ريب مبيتة ضد جمعية الاتحاد والترقي وساعد الجهل على اذكائها ونجح الرجعيون بمؤامرتهم التي قاموا بها خلف ستار الدين . وبعد المظاهرة نزل الوالي شكري باشا الى دائرة الشرطة واخرج الشيخ صالح وركب واياه عربته الخاصة ودار به شوارع البلدة ليرى الناس ان الشيخ اطلق سراحه . وهكذا انتهت الفتنة ولكن ذيولها لم تنقطع .

* * *

احمد كمكوم : هذا الحديث عن الهجوم على السراي يجرني الى حديث اخر ، من نوع شخصي . ذلك انني شاهدت ذلك الهجوم برفقة رجل مولج بالمحافظة علي ، يدعى « احمد كمكوم » . ولهذا الشاب حكاية اخرى ، اود ان اسردها على القراء ، للتدليل على بعض مظاهر العهد الذي نشأ فيه جيلنا .

كان احمد هذا ، نجل جندي مصري من جنود ابراهيم باشا ، تخلف فى دمشق واستوطنها ، ويدعى سليم كمكوم ، وكان له ثلاث اخوات ، فلما بلغ العاشرة من عمره ، غضب على اخته الكبرى — وعمرها ست سنوات — فخنقها ، ثم ذهب وخنق الثانية ، ثم وضع وسادة على رأس الثالثة وجلس عليها حتى ماتت . وبعد ذلك ذهب الى والده يبلغه انه قتل اخواته الثلاث ، خوفا من عارهن عندما يكبرن !

انهال ابوه عليه بالضرب ، وصدف ان مر فى تلك الساعة جدي محمد حسن البارودي ، فخلص الولد منه واخذه الى داره ، لانه صغير لا يعي ما يفعل ، فرباه عنده واصبح « قبضايا » مرهوب الجانب .

وذات يوم تشاجر احمد مع شاب اخرس ، فقتله بطعنة خنجر عن غير قصد ، فالتجأ الى دارنا ، وحماه جدي من الحكومة ، حتى هدأت الاعصاب، واستطاع والدي استرضاء والدي القتيل بدفع الدية.

بعد ذلك عاش احمد كمكوم في دارنا، واقسم انه سيمسح احذية العائلة البارودية حتى الموت ، وكان يأتي كل اسبوع بصندوق البويا ويمسح احذيتنا ، ويدعو الله الا يميته الا على باب دارنا .

وذات يوم وكان قد تجاوز الثمانين ، شعر بقرب منيته ، فطلب الى زوجته ان تقوده الى دارنا ، حيث جلس امام باب الاسطبل، وبعد دقائق اسلم الروح هناك .

وكان كمكوم يحترف صنعة « البسطاطية» ، اي بيع الحوائج القديمة ، كادوات النجارة والحدادة ، وما اشبه ذلك من مطارق ومناشير وامواس . وكان يبيع حاجاته بالرخص لان بعضها «لقطة» او مسروق . وكان البسطاطيون من اشقى فتيان دمشق. ومنذ عشرين سنة تقريبا انتظمت هذه الحرفة ، وفتحوا لها الحوانيت. وهي رائجة اليوم في سوق الدرويشية .

عبد الحميد

في العهد الذي نشأت فيه كان اسم وأحد يتقدم على كل اسم ، ولا يذكره الناس الا بخشوع صادر عن رعب، هو اسم السلطان عبدالحميد الثاني بن عبدالمجيد بن محمود الثاني . كانت والدته سرية أرمنية ، ونشأ بين العبيد والسراري . واشتهر منذ صغره بحب الانفراد وقد اتهمه الكتاب الاحرار بعد خلعه بكل نقيصة ولم يذكروا له حسنة واحدة . على ان بعض الكتاب في ايام حكمه كانوا يصفونه بالحلم والشجاعة .

وعلى كل ، فقد كان عبدالحميد من ادهى ملوك هذا العصر واذكاهم . ولو كان على جانب من العلم والثقافة لما وقع بما وقع فيه من خطيئات ، ولما اعتمد في حاشيته المنافقين دون سواهم وكان يستشير المنجمين المشعوذين والدجالين من شيوخ الدين ويستخدم رهطا من شياطين رجال السياسة ممن اتقنوا النفاق والمداجاة . وقد جمع حوله جيشا من الجواسيس واطلق العيون في العاصمة والولايات بعد ان عطل الدستور وابعد الاحرار وحل مجلس « المبعوثان » وسجن المثقفين .

وكان عبدالحميد يرهب الانتقام ، فصار يصدق كل وشاية يحملها اليه جواسيسه . وقد عرف هؤلاء نقطة الضعف فيه، فراحوا يكثرون من تلك التقارير التي تثير الاعصاب ، ويزيدون استفزازه حتى جعل همه من الدنيا محاربة الاحرار ومقاومتهم ، والكيد لرجال الجمعيات الوطنية ، الى أن وقع الانقلاب ، كما اسلفنا . ولما لم يقدر على تحمل الحكم الدستوري، رتب بواسطة رجاله حركة رجعية اسمها « الجمعية المحمدية» ، انضم اليها رجال الدين ، ورأس عليها احد اعوانه الدرويش « وحدتي» ، وانتصر لها كل ناقم على العهد الجديد .

وقد اتصل عملاء هذه الجمعية بالجيش ، فنجحوا فى اجتذاب بعض الرقباء فى ثكنة « اولوقشلة » فى الاستانة ، وتظاهر الجنود وهجموا على مجلس المبعوثان وقتلوا بعض النواب ، ومنهم المرحوم الامير محمد ارسلان شقيق المرحوم الامير امين ارسلان .

هكذا استعاد الرجعيون السيطرة على الاستانة بفضل دسائس عبدالحميد . ولكن الاحرار سارعوا الى ارسال جيشهم من سلانيك فوصل الى الاستانة وأطفأ الفتنة وخلع عبد الحميد عن عرشه .

ومما يؤسف له ان الاحرار لم يختاروا لتبليغ قرار الخلع الى عبد الحميد — وهو سلطان المسلمين — غير عمانوئيل قره صو ، وهو زعيم يهود سلانيك . وكانت وقعت له حادثة تاريخية مع عبدالحميد ، طرده على أثرها من القصر ، ففي سنة ١٩٠٠ دخل قره

صو على السلطان ، بفضل القرين عارف بك ، وابلغه انه موفد من قبل الجمعية العالمية الصهيونية ، وانه قادم يطلب اليه اعطاء تلك الجمعية الاراضي الواقعة فى المثلث القائم ما بين يافا وغزه والبحر الميت ، مقابل خمسة ملايين ليرة عثمانية ذهبية تدفعها الجمعية الصهيونية ، هدية الى الخزينة الخاصة ، وعشرين مليونا تقرضها الجمعية الى الحكومة دون فائدة لمدة تعينها الحكومة ، فغضب السلطان وطرده من حضرته .

وعلى الاثر ألف اليهود جمعية سرية اكثر اعضائها من اليهود المعروفين بالدونمة (١) . فاتصلت باحرار الاتراك ، ودخل اعضاؤها حزب الاتحاد والترقي ، وتعاونوا مع كثيرين من شبان الضباط كأنور ونيازي ، وكانت لهم اليدا لطولى فى الانقلاب الثاني وخلع عبدالحميد

وظل اليهود ذوي نفوذ قوي فى اوساط الاتحاديين ، وكانوا فى جملة العناصر التي بثت الفساد فى الشعب التركي وفى حكامه .

مقهى الله كريم : بعد خلع السلطان عبدالحميد ، احال الاتحاديون على التقاعد قسما كبيراً من الضباط الذين ناصروه .

وكان الضباط المتقاعدون فى دمشق يجتمعون فى مقهى البغا ، قرب جامع « يلبغا» الواقع بين محلتي البحصة وسوق الخيل . فلما انضم اليهم الضباط الحميديون المتقاعدون تزايد عددهم ، حتى اصبح ذلك المقهى خاصا بهم تقريبا .

وكانوا يجلسون فيه طول النهار ، حتى اذا مر امامهم ضابط حديث ، يتبادلون النظرات ويرددون : «الله كريم !» ، املا منهم فى أن يعود عبدالحميد الى العرش ويعودوا معه الى مناصبهم . ولكن عهد عبدالحميد لم يعد ، ولم يبق لهم من آمالهم سوى عبارة « الله كريم !» التي اصبحت اسما للمقهى .

---

(١) دونمة لقب يطلقه الاتراك على جماعة اليهود الذين هاجروا الى تركيا من اسبانيا ، واستوطنوا سلانيك وهم طائفة يتظاهر افرادها بالاسلام ، مع احتفاظهم باطنا بالدين اليهودي . ومنهم جاويد بك وبعض كبار رجال الاتحاد والترقي .

الدستور العثماني : تحدثت كثيراً عن الانقلاب الذي ادى الى اعلان الدستور . والواقع ان الحكومة العثمانية اعلنت الدستور اول مرة سنة ١٨٧٦ ، وكان مؤلفا يومئذ من ١١٩ مادة ، اهم ما فيها بالنسبة الى ذلك العهد :

١ ــ المساواة بين الرعية على مختلف المذاهب والاديان .

٢ ــ حرية التعليم ، على ان يكون اجباريا ، وحرية المطبوعات .

٣ ــ الغاء السخرة ومنع المصادرة والتعذيب .

٤ ــ جعل اللغة التركية اللغة الرسمية للدولة .

ولكن السلطان عبد الحميد لم يلبث حتى تنكر للدستور الذي اعلنه ، فالغاه فى ١٤ شباط ١٨٧٨ ، اي بعد اعلانه بسنة واحدة . وظل يحكم البلاد حكما استبداديا حتى وقع الانقلاب سنة ١٩٠٨

وقد قرأت فى مجلة « الهلال » فى العدد العاشر من المجلد السابع عشر ، مقالا عن اسباب الغاء الدستور سنة ١٨٧٨ وحل مجلس « المبعوثان » ، يلقي التبعة على جهل الشعب لحقوقه وواجباته اذ لم يكن يفهم معنى الدستور والانتخابات .

وكان النواب مجموعة قوميات ، فمنهم التركي والعربي والسرياني والبلغاري والبوسني والسلافى والصربي والقلاخي والفارسي والكردي، ولكل منهم لغة مستقلة كما كانت اديانهم متباينة. وقد كان هذا التباين سببا فى مشاكل مذهبية ، اتخذها السلطان ذريعة لحل المجلس .

انا صاحب جريدة !

لم تمض مدة قليلة ، على الانقلاب ، الا واصبحت كلمة الحرية على كل لسان ، بعد ان كانت محظورة فى عهد عبد الحميد ، بيد ان الكثيرين اساؤوا استعمالها ، ظنا منهم بان الحرية غير محدودة .

وكانت الصحافة قبيل هذا الدور غير معروفة بل عديمة الاثر . ولم يكن منها فى دمشق غير صحيفة واحدة اسمها « الشام » كان يصدرها مصطفى افندي الشقللي ، مرة فى الاسبوع .

وكان الدمشقيون يسمون الجريدة « كزيطة » ، وهي تحريف كلمة « غازيتا » الايطالية . وما يزال بعض الشيوخ من عوام الدور الحميدي يسمون الجريدة « كزيطة » الى اليوم .

باعلان الدستور العثماني ، فتح باب الصحافة على مصراعيه ، فصدرت فى دمشق اول جريدة يومية متزنة وطنية هي جريدة « المقتبس » للاستاذ محمد بك كرد علي . وكانت ادارتها مجمعا للعلماء والادباء والمفكرين من العرب على اختلاف اقطارهم . ومما لا شك فيه انها كانت الاولى التي نبهت اذهان الناس الى واجبهم نحو وطنهم . واذا كان من فضل لاحد علي فى توجيهي من الناحية الوطنية ، فهو اولا للشيخ طاهر الجزائري المغربي استاذنا ، والى تلامذته الاحرار ، ومنهم الاستاذ كرد علي الذي صحبته مدة غير يسيرة من الزمن ، علمني خلالها كيف اطالب بالحق وانادي به .

وفى العام ١٩٠٩ خطر لي ان اصدر جريدة . وهكذا ، دون ان استشير احدا ، اصدرت جريدة اسميتها « حط بالخرج » ، وكانت اول جريدة فكاهية صدرت فى دمشق ، اخرجتها دون ان احصل على رخصة من الحكومة ، لانني كنت اجهل ان اصدار الجرائد يحتاج للرخصة ، كما انني كنت اتوهم ان رأس مال الجريدة لا يزيد عن قلم وورقة .

الاستاذ محمد كرد علي مؤسس « المقتبس » فى شبابه

وفعلا اصدرت العددين الاولين بتوقيع « عزرائيل » ، فراجا رواجا كبيرا ، وكنت أحررها باللهجة العامية .

ولما عرف والدي بالامر ، قامت قيامته وغضب غضبا شديدا ، واقسم ان يطردني اذا نشرت اسمي صريحا على الجريدة . وعلى الاثر اتفقت مع المرحوم « الدده » عارف الهبل على ان يضع اسمه فى الجريدة ، وان يتخذ صفة مديرها المسؤول ، على ان اتابع انا تحريرها ، فقبل . وهكذا وضعنا اسمه فى العدد الثالث واستمرت الجريدة فى الصدور ، فكان لها ضجة فى مختلف الاوساط .

ولما كنت اجهل اصول الصحف الفكاهية ، فقد استحضرت من القاهرة ما توصلت اليه من الجرائد الفكاهية الصادرة هناك ، كجريدة « ابي نظارة » وجريدة « المسمار » وغيرهما ، وجعلت اسير على نهجهما ، مما لم يكن معروفا في دمشق قبلا .

ولما راجت الجريدة ، ومال الناس الى هذا النوع من الكتابة ، اخذ بعض الشبان يصدرون جرائد فكاهية اخرى . فلما رأيت ان الجرائد قد تبذلت ، وان اصحاب الجرايد يبيعون انفسهم للاتحاديين مقابل عشرين ليرة عثمانية في الشهر ، تركت جريدتي وانقطعت عنها .

وكان الاستاذ كرد علي قد دعاني مرارا الى العمل معه في « المقتبس » ، فاعتذرت بانشغالي بجريدتي . فلما تركت جريدتي ، لبيت دعوته ، وقضيت عنده في « المقتبس » مدة تزيد عن السنة ، تمرنت خلالها على الترجمة من التركية الى العربية . وكان يصحح لي اغلاطي ويشرف على لغتي . وبقيت بعد ذلك اتردد عليه الى ان سافرت الى اوروبا ، كما سيرد ذكره .

★ ★ ★

رفاقي في الصف : بينما كانت الحوادث الانفة الذكر جارية ، كان رفاقي الذين تخرجوا من مكتب عنبر معي يستعدون للالتحاق بالمدارس العالية . وقد سافر اكثرهم الى الاستانة . وكان عدد ابناء صفي الذين نالوا الشهادة معي ١٦ شخصا ، هم السادة : سعيد الزيبق ، علي الابرش (اكمل الطب ونال الدكتوراه) ، خالد جوجه ، زكي القصيباتي ، ابراهيم الترك ، نسيب النابلسي (انهى مدرسة الملكية) . مصطفى الترك (اكمل الطب وصار طبيبا) عثمان السمان (اصبح طبيبا) ، ممدوح العابد ، عبد الرحمن الرشيدات العجلوني (حصل الحقوق) جلال البخاري (حصل الحقوق) محمود الصاحب (صار طبيبا) محمدسيف الدين (حقوق) فخري البارودي (صار تقاعدا) ، توفيق الداوودي ، مصطفى الصالحاني .

وطلبت الى والدي ارسالي الى الاستانة لاتمام تحصيلي ، فوعدني بذلك، ولكنه اصر بالتريث الى العام القادم، ريثما تهدأ الحالة هناك خشية ان تقع اضطرابات جديدة اذهب ضحيتها واكد لي انه

طلاب صفي الذين نالوا الشهادة معي ، وانا اتوسط الصف الاخير

سوف يرسلني حتما عندما يستقر الحال ، فصبرت على مضض ، وطلبت منه أن يجد لي عملا موقتا ، حتى لا ابقى عاطلا فالتزم لي «عشر» قرية متين ، وجبيته ذلك العام . وهكذا مرت سنة ١٩٠٩ ، والاضطرابات لما تنته فى الاستانة .

* * *

الاعشار : لا شك ان التزام الاعشار المشار اليه فى الفقرة السابقة ، هو تعبير مجهول عند الجيل الجديد ، لذلك اود أن اوضحه لهم .

العشر ضريبة كانت تحصلها الدولة العثمانية من رعاياها ، وهي

١٢،٥ بالمائة من مجموع محصول المزارع . كان فى البداية عشرة بالماية ، فضمت اليه حكومة عبد الحميد اثنين ونصف بالماية حصة للمعارف .

وكانت الدولة تطرح الاعشار فى المزاد العلني ، لكي تقبض ريعها من الملتزم سلفا ، وتطلق له العنان فى تحصيلها من المكلفين . وكم تحمل الناس من ظلم الملتزمين عند التحصيل ، فقد كان هؤلاء من ارباب النفوذ الاقطاعيين ، وكانوا يتفقون مع الحكام على سلب الفلاح ، معتمدين طرقا خاصة فى التخمين ، وفى ابتزاز المال منه بدلا من اخذ الاعشار عينا على المنتجات السريعة العطب ، كالعنب والبطيخ . اما المواد التي كانوا يأخذون عشرها عينا ، فهي الحبوب على الاطلاق ، والزبيب واللوز والجوز .

وكان فى كل قرية بضعة اشخاص يسمون بالعوانية ، اتخذوا تحصيل العشر مهنة لهم ، فكان الملتزمون يستعينون بهم فى التحصيل مقابل نصيب من الارباح .

اعرف أحد المتنفذين فى دوما ، كان يلتزم اعشار القصبة فى اكثر الاعوام ، واذا صدف أن التزمها احدغيره ، كان الملتزم يتنازل له عنها مقابل أعفائه من الدفع بتاتا . واذكر انه لم يحصل منه احد من الملتزمين قرشا واحدا الا انا فقد حصلت ـ عند التزامي الاعشار ـ الحصة كاملة ، وقدرها اربعماية ليرة عثمانية ذهبا . على انني تركت اعشار الفقراء الصغار ، الذين يتجاوز المترتب عليهم ٤ ليرات ، مما ساعد على تنبه الافكار ضد المعشرين .

حياة التسلية

شغلني تحصيل الاعشار فى تلك السنة (١٩٠٩) اشهراً قليلة ، وما عدا ذلك كنت اقضي أيامي فى دمشق فى التسلية على أختلافها ، وكان ذلك بداية اصطدامات كثيرة بيني وبين والدي ، بسبب القسوة التي كان الاباء يعاملون بها ابناءهم فى ذلك العهد .

ومع اني وحيد والدي ، فانني لا اذكر انه قبلني الا مرة واحدة، وانا فى السابعة من عمري . كنت نائما وصحوت على نفس حار ، ففتحت عيني فرأيت والدي منحنيا على فراشي يقبلني . هذا كل ما عرفته من قبلات والدي .

اما الضحك فى وجهي فلم أعرفه منه ، وقليلا ما رأيت أسارير وجهه تنفرج عندما تبدر مني نكتة ما .

عودني والدي على الا اطلب منه شيئا مباشرة ، بل بالواسطة. وكان له صديق ودود ، قضى العمر فى معاشرته (مثلي ومثل صديقي حسني تلو الذي لم يفارقني منذ خمسين سنة) ، يدعى كمال أفندي المهايني من أسرة المهايني الكريمة ، وهي من اكبر اسر دمشق ، تقطن محلة الميدان الفوقا .

وكنت اذا احتجت الى شيء ما ، طلبته من والدي بواسطة كمال افندي ، فكان ــ مثلا ــ يأخذ لي أذنا كل شهرين او ثلاثة لقضاء سهرة فى احد المسارح، فيوافق والدي ويرفق اذنه مصحوبا بريالين: ريال اجرة «اللوج» وريال للشبرقة !

وكان رفاقي الذين رافقتهم منذ الصغر حتى فرقتنا الحرب العامة الاولى هم السادة محمد علي الدالاتي، نسيب البكري ، محمد المهايني ، شقيق كمال افندي المهايني

« شلة » رفاقي ، وهم حسب تسلسل الارقام : خليل ملص ، سامي البكري ، فخري البارودي ، محمد علي الدالاتي ، نسيب البكري ، محمد المهايني ، اسعد البكري ، حسن سلام ، مظهـــر البكري

هؤلاء السادة هم « الشلة » اليومية التي لم يفترق افرادهـــا بعضهـــم عـــن بعض فى جميـــع اوقـــات الفـــراغ .. كـــان كل منا يدعو رفاقه الى المسرح فى دوره، او نمشي على اصول التعاون (عشرة حلبية) .

وفى رمضان احدى السنين ، بعـــد ان انهيت تعليمي وحـــزت الشهادة ، طلبت من والدي ــ بالواسطة طبعا ــ اذنا للذهاب مـــع رفقائي الى « التياترو » فسمح لي . وفى اليوم الثاني كررت الطلب فنفر والدي وقال الى كمال افندي المهايني : بلغ فخري انني لا اسمح بالسهر يوميا ، ولو فى رمضان .

جاءني الرسول يبلغني ذلـــك ، فقلت له : ان ســـني تجـــاوز العشرين ، واصبحت رجلا ، يمكنني ان ادير شؤون نفسى بنفسى ،

واذا كان والدي قد احسن تربيتي ، فعليه ألا يخشى علي من شيء . واذا كانت تربيتي عاطلة ، فليس بامكانه تقويمي بعد الان ، ولهذا فاني اعد نفسي منذ الليلة حرا اتصرف باموري كما اشاء دون الرجوع الى والدي بشيء !

وهكذا خلصت من انتداب والدي ، فلم يعد يمنعني عن الخروج ، حتى مات رحمه الله .

* * *

مغاني دمشق : كانت اسباب التسلية العامة فى عهد شبابي محدودة ، فهناك المقاهي ، وهناك « التياترو » ، وهناك المغنيات . وقد اصطلح اهل دمشق على تسمية المغنيات البلديات بالمغاني ، واللواتي يأتين من مصر بالعوالم .

عرفت فى شبابي عشرات من « المغاني » اللواتي يحترفن الغناء والرقص ، وكان معظمهن من اليهوديات ، حتى ان احداهن « اشترتني » بربع ريال . ذلك انه كان فى دمشق عادة غريبة ، تقضى على الام بان تبيع طفلها رمزيا من احدى المغنيات ، فيحفظه الله عندئذ لاهله . هكذا « باعتني » والدتي من المغنية « هانولا » بربع ريال .

من اشهر مغنيات ذلك العهد رحلو الترك ، رحلو سلطانه ، بنات الشطاح ، نظيره عنبه ، بدريه مواس ، بدرية سعادة (وكانت جميلة العينين) ، بنات مكنو حسيبه ، مريم ، روجينا ، طيره ، شفيقه ، سمحه ، حسيبة اتشي . ومن اجملهن صلحه الابيض . وكان غواتها من ارقى الدمشقيين ، حتى ان احدهم كان ينام على عتبة بابها حتى الصباح ، اذا لم تستقبله !

ومن المغنيات المسلمات « رسمية جمعة » ، وكانت كفيفة البصر تضرب بالعود ولا تحضر الا حفلات النساء . ومنهن ايضا بنات « علي عمك » ، فهمية ضاربة القانون ، وشقيقاتها اللواتي كن يضحكن الحضور ، وبنت « ابو قفة » وهي من الضاربات على

مغنية يهودية من مغنيات عصرنا الذي اتحدث عنه

النقرزان ، وبنات « مكنو » وهن جوقة كاملة كن يقمن بافراح دمشق من اعراس وسهرات ويستأثرن بالافراح الكبيرة . وهن اللائي اقمن لي فرحة العرس ولم يصعدن المسارح الا فى ايام الحفلات التي كان يقيمها فرع جمعية الاتحاد والترقي .

وكان يفد على دمشق عدد كبير من مغنيات الاروام والارمن والاتراك ، ومن شهيراتهن « كوزل دنبل » ، كوزل بلانش ، كوزل فاني ، والجميع روميات .

وكان فى دمشق من المسارح ، مسرح قهوة الجنينة ، ومسرح الاصلاح خانة ، ومسرح القوتلي . ومن اشهر اصحاب المسارح المرحوم احمد اغا الخباز ، صاحب قهوة الخباز . وكان اذا جلس امام مدخل المسرح ، لا يجرؤ احد من فتيان البلدة ان يطل برأسه على المسرح .

وكان فى سوق ساروجة ومحلة البحصة وزقاق رامي عدة شبان من « الزكرت » يأخذون الغفارات ، من اصحاب المسارح ومن الراقصات . واذا تمنع احدهم عن دفع (الغفارة) انتقموا منه ومن حضور حفلاته . وكانت الحكومة تتجاهل دائما هذه الاعتداءات ، الا فى حالة واحدة جرت على يد فرحات اغا ، وهو عبد من عبيد السلطان عبد العزيز المنفيين الى دمشق .

كان هذا العبد شرطيا جريئا اعجز اشقياء دمشق . وقد رأيته مرة يدخل المسرح لتأديب بعض الفتوات المتسلطين على المسارح ، ويطردهم .

اما الكحول فكانت ممنوعة فى المسارح ، وكان المدمنون على الشراب يذهبون الى « الخمارات » ويشربون كفايتهم منها قبل الدخول الى المسارح . وكان بعضهم يخفي في جيب سترته زجاجة « مفلطحة » تسمى « بطحة » يضع فيها عودا من القنب ، يرشف بواسطته الخمر من البطحة .

اما برامج المسارح فكانت واحدة تقريبا . يبدأ المنهاج بوصلة غناء من احد الرجال . وكان اكثر رؤساء التخوت من المصريين ، فيفتتح الفصل بوصلة موشحات ، ثم ليالي ، ثم تقاسيم ودور من النغمة التي غنوا بها الموشحات ، ثم يختتمون الفصل بقصيدة على الوحدة ، تفتتح بهذا البيت :

آه يا انا ، ويش للعواذل عندنا
قم ضيع العذال ، وواصلني انا !

اما القصيدة فمن اي بحر ، ومن اي قافية ، وليس لها اقل ارتباط بالمدخل المذكور ابدا ، وانما كان هذا البيت فاتحة قصيدة ليعطي الوزن لاصحاب الالات .

وبعد انتهاء الفصل ينزل الستار للاستراحة . ثم يبدأ الرقص. وكلما انتهت راقصة ، استراحت النوبة عشر دقائق الى ان يأتي دور رئيسة الراقصات. وتكون عادة من ذوات الصوت الرخيم ، ومن ربات الصنعة ، فتؤدي دورها وتغني قصيدة على الوحدة ايضا.

ثم يمثل فريق من اللاعبين مع اجمل بنت بين الراقصات فصلا هزليا لتسلية الناس .

وهكذا كنا نقضي سهرات المسارح ، واستمرت المناهج على هذا الشكل حتى مدة قريبة .

* * *

روايات الفروسية : كانت الروايات في زمننا شبه معدومة . وكان بعض الكتاب المتخرجين من المدارس الاجنبية يترجمون ما اشتهر من الروايات من تمثيلية ومن تاريخية .

اما الكتب التي كنا نعتمد عليها للتسلية فكانت سيرة عنتر ، وقصة الملك الظاهر (وهي غير مطبوعة ، تقع في ٩٢ جزءا مكتوبة بالخط الثلث العريض) ، وقصص ابي زيد الهلالي سلامة ، والزير ابي ليلى المهلهل ، وغيرها من القصص التي تعلم الفروسية والبطولة.

وقد طالعت بعض هذه القصص وانا صغير ، وبعضها بعد خروجي من المدرسة . واذكر اني لما كنت في الصف الثالث الاعدادي ، جاء الى دمشق رئيس وزراء دولة ايران ، وزار المدرسة يصحبه الوالي وكبار الموظفين ، ومدير المعارف حسين عوني . وكان

مكاني فى اخر الصف ، وخلفي نافذة يستطيع الناظر أن يشرف منها على الصف كله . وكنت غارقا فى مطالعة فصل من الملك الظاهر ، فلم انتبه لمجيء الضيوف ، ولا الى الجلبة التي حدثت فى الصف . ووقف الوزير والوالي يطلان علينا من النافذة خلفي ، فوقع نظر الضيف على الكتاب الذي اقرأه ، ونظر الى كتب الطلاب بجانبي ، فاستغرب اختلافها ، وسأل الوالي عن السبب ، فنقل الوالي السؤال الى مدير المعارف ، فاطل علي . وما أن رأى الرواية فى يدي حتى ثارت ثائرته وضرب على زجاج النافذة ضربا مزعجا نبهني من غفلتي، وصاح بصوت عال مرعب : نه دربو كتاب ؟ (يعني ما هذا الكتاب ؟)

فى الحال اطبقت الكتاب ، ورفعت يدي نحو السماء ، وقلت : دعا أفندم ! دعا افندم !

وسبل الله الستر ، وجازت الحيلة ، أو ان الرجل اختصرها . لا ادري .

* * *

الحكواتي : اما الحكواتي فلا يزال موجودا الى الان ، يقص على الاميين قصة عنتر والملك الظاهر ، جالسا على دكة عالية بحيث يراهم جميع من فى المقهى ، فيقرأ فصلا من القصة ، ويجبى « البخشيش »

هذه القصص وضعت على ما اظن ايام الحروب الصليبية ، وفيها شيء من اثارة النعرات، كان بالامكان تهذيبها وحذف المضر منها.

حياة البطالة

ذكرت فى فصل سابق كيفانني اصدرت مجلة « حط بالخرج » ثم سلمتها الى « الدده » عارف الهبل . ولقد ايقظت المـــدة التي حررت فيها ، وتلك التي داومت فيها فى جريدة « المقتبس » روح الصحافة فى نفسي ، فرحت افكر باصدار جريدة يومية .

ومن ممارستي لمهنة التحرير ، ادركت انه يتوجب على صاحب الجريدة قبل كل شيء ان يملك مطبعة ، وان يعرف صناعة الطباعة بالفعل لا بالنظر . هكذا احببت ان اتمرن على صف الحروف ، فدخلت بطولي وعرضي صانعا فى مطبعة « بدائع الفنون » ، لصاحبها السيد تاج الدين الصلاحي .

وكان رئيس العمال آنذاك السيد سعدي العمري ، فكنـــت اقضي كل يوم اربع ساعات ، فى صف الحروف ، وبقيت مدة ستـــة اشهر وانا اداوم على العمل مجانا ، حتى اتقنت شيئا من الصنعـــة . وما زلت اذكر من رفاقي فى المطبعة ، « مستوالميداني »، غابت عني كنيته ، وما زال حيـــا .

بقيت فكرة الجريدة والمطبعة تراودني حتى سافرت الى اوروبا كما سيرد ذكره . ولكني بعد رجوعي من اوروبا عدلت عن الصحافة لاني رأيت ان الصحيفة التي يمكنها ان تعيش ، يجب ان تكـــون صحيفة حزب قوي غني ، او ملكا لشركة قادرة على تمويل الجريدة، خصوصا فى بلاد دستورية الاسم استبدادية الفعل كما كانت حكومة الاتحاديين التي عقبت حكومة عبدالحميد ، ولذلك نفضت الصحافة من رأسي ، حتى ايام الكتلة الوطنية ، اذ اصدرنا مع بعض الاخـوان جريدة « الايام » كما سيجيء .

واول مطبعة وصلت دمشق فى ذلك العهد هي مطبعة الحكومـــة وكانت حجرية ، ويشرف عليها مصطفى افندي الشقللي . وبعد مدة

استحضروا لها الحروف . وكان رئيس عمالها يحي صدقي . ومن عمالها الذين اسسوا مطابع فيما بعد مصطفى شورى ، وتاج الدين الصلاحي وسعدي العمري ، وخليل الترك وقد جاء من الاستانة وهو الذي علم صناع دمشق صف الحروف .

واول مطبعة تجارية تأسست في دمشق مطبعة «الفيحاء» لصاحبها فهمي شوري والثانية مطبعة « الانصاف » لصاحبها صالح الجيلاتي . وقد قلب اسمها الى مطبعة الترقي بعد حريق سوق الحميدية سنة ١٩١٢ .

***

والدي يعرقل سفري : في عام ١٩١٠ بعد ان اخذت الاحوال تستقر شيئا فشيئا راجعت والدي ، راجيا تنفيذ وعده بارسالي الى الاستانة لاتمام تحصيلي ، فتهرب طالبا التأجيل ،خوفا منه علي ، بوصفي ولده الوحيد . وبهذه الفكرة قضى على اتمام تحصيلي في الاستانة .

وكان اكثر رفقائي الذين خرجوا قبلي او معي من المدرسة بل وبعدي ، قد سافروا الى الاستانة . فلما يئست من اقناع والدي بالموافقة على سفري ، جعلت اضرب اخماسا بأسداس ، لايجاد طريقة تمكنني من اتمام تحصيلي ، خوفا من أن يتقدم علي رفقائي الذين سافروا الى الاستانة ودخلوا مكاتبها العالية ، فلم يخطر لي اي حل ، وقنطت من اكمال دراستي ،

***

حياة المقاهي : للمحيط تأثير عظيم على الانسان ، خاصة في سن المراهقة وفجر الشباب ، والبطالة هي مفتاح الفساد . ولما كانت دمشق في ايام شبابي خالية من كل ناد علمي او ادبي ، فني او رياضي ، كان من الطبيعي ان ألجأ الى المجتمعات العامة والخاصة التي سأصف كل منها باختصار ، ليمشي معي القارىء في هذه الرحلة ويتحسس بما كنت اتحسس به .

بقيت مدة طويلة بلا عمل ، اقضي بضع ساعات فى ادارة جريدة « المقتبس » واخرج منها الى المقاهي ، وكانت مقاهي البلد قسمين : بلدي ومدني . فالبلدي ما تزال منه بعض النماذج فى ضواحي دمشق النائية ، يجلس فيها الناس على الحصر والكراسي المربعة،امام مناضد خشبية موازية للكراسي ، تقدم فيها النراجيل والقهوة المرة . هكذا يقطع الناس الساعات الطوال فى لعب الضاما والدومينو والورق والنرد

اما المقاهي المدنية فمقاعدها من الكراسي الخيزران ـ وفيها حسب قيمة المقهى ـ ما يلزم من ادوات اللعب كالشطرنج والنرد، والبيلارد ، والبيزيك وجميع انواع العاب الورق ، ويلعب فيها الناس مختلف انواع العاب الميسر الخفيفة كالبوكر والباشكاوالاوتوزبر

وكان اقدم مقهى فى دمشق مقهى « ديمتري » وهو يوناني، انتقل الى دمشق ، وفتح مقهى على الطرز الحديث ، فكان مجتمعا لارقى طبقة من طبقات الدمشقيين ، الذين لا يرتادون « القناقات » ولا يفتحون دورهم للإستقبال .

وكان مقهى ديمتري فى المرجه . وفى هذه الساحة نفسها فتح الخواجه ابو خليل الشماس مقهى منظما اسماه «زهرة دمشق» استحضر له ما يلزم من ادوات اللعب ، كما انه جعل فى صدره مسرحا وعلى جوانبه الواجا ، فكان يستعمله فى الليل مسرحا للتمثيل او الرقص والغناء ، وفى النهار للعب القمار ومختلف الالعاب .

وشارك ديمتري فى عمله رجل يدعى « ابو فاضل الاوبجي » ، وهو قبضاي معروف ، استقدمه ديمتري ليتقي به شر الرعاع ، وليحمي المحل من الفضوليين والمسترجلين .

وحدث مرة ان علق احدهم فى صدر المقهى صورة للشاعر الفرنسي الكبير فكتور هيغو . وكان ذكره يومئذ قد وصل الى الشرق فلمارأى ديمتري الصورة سأل ايا فاضل عنها . وكان ابو فاضل يجهل الاسم، فتظاهر بالمعرفة، واجاب: هذا شيخ « قهوجية »باريس!

هكذا اصبح فيكتور هيغو عند رواد القهوة شيخ القهوجية، وظلت هذه النكتة موضع التندر زمنا طويلا .

***

قهوة كركوز : الى جانب المقاهي ، كنا نتردد على محلات «خيال

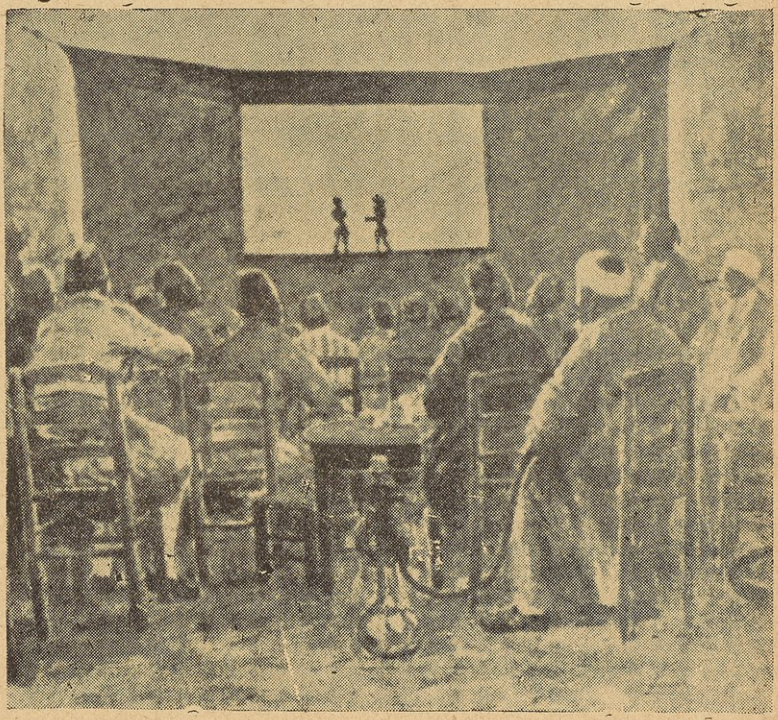

خيمة الظل ، اي لعبة « كراكوز » ، كما تبدو فى لوحة زيتية للرسام التركي هـ. صايم

الظل » المعروف باسم « قهوة كركوز » ، وهي طليعة السينما اليوم . فكان مدير اللعبة يضع فى صدر المقهى ستارا من قماش فى وسطها قطعة مدورة من الخام الابيض ، فى اسفلها رف من خشب

يوضع عليه سراج من فخار ينار بزيت الزيتون ، ويقف الرجل خلف الستارة التي يسمونها « الخيمة » ويمسك بيده عصى رفيعة يحرك رسوم اشخاص من جلد ، اذا وضعت على الشاشة ظهر خيالها مجسما من عكس النور عليها من الخلف . ثم يتكلم الرجل ويحرك الخيال ، فيبدو وكأنه يتكلم . وكان يبدل صوته حسب اصوات الرسوم .

كان لهذه اللعبة مكانة فى القديم ، ولكنها تبذلت اليوم ، وادخلوا فيها بعض الكلمات البذيئة المستقبحة ، وهي على وشك الانقراض . اما فى زمننا فكان « الكركوز » تسلية فكهة ، يذهب اليها جميع الناس فى رمضان ، والاولاد فى بقية ليالي السنة . وكان ابطال الخيالات يتبدلون مع الفصول . اما اشخاص الكركوز الدائمة التي تظهر خيالاتها فى كل فصل فهي « **كركوز** » و« **عيواظ** » ، وعليهما تتركب اللعبة . ثم «المدلل» وهو اصغر خيال فى الخيمة ، و«قريطم» الخيال الذي يمثل الرجل المصري بكلامه، و« ابو اركيلة » قشقو بكري مصطفى ، ام كركوز «بالتصغير». وللخيمة حمار يدعى«كرش» وقد نشأت هذه اللعبة فى الصين وانتقلت الى الهند فالى بلاد فارس ثم الى بلاد العرب فبلاد الترك ثم الى البلاد الغربية.

وقد عني المستشرق الالماني جورج جاكوب (١٨٦٢ ـ ١٩٣٧م) بدراسة هذه اللعبة ، فوقف على طبع اجزاء من كتاب « طيف الخيال » لابن دانيال .

وفى مكتبة المدرسة العلمانية الافرنسية فى دمشق كتاب باللغة الالمانية يبحث عن هذه اللعبة ، وفيه من الرسوم القديمة طائفة غير قليلة ، بطبع ممتاز وورق جيد جدا .

ومن مشهوري رجال هذه الصنعة فى زمننا خالد بن حبيب الذي كان والده حبيب من اعلم الناس بالموسيقى والانغام ، وهو استاذ المرحوم الشيخ ابو خليل القباني فى علم الموسيقى .

ألى اليمين : « كركوز » ، والى اليسار « عيواظ » ، او حاج ايواد

وليت الحكومات تلتفت الى تنبيه اللاعبين ، واجبارهم على حذف بعض الجمل البذيئة التي يتكلمون بها ، وحذف بعض الخيالات كالخيال الذي يمثل شخصية طرمان .

انا جندى

كانت الخدمة العسكرية فى الزمن الحميدي اجبارية ، ومدتها سنتان . ونظرا لسعة المملكة كان الجنود يفرون بكثرة . وكان الناس يتذرعون بكل وسيلة للتهرب من الخدمة . على ان السلطة كانت تعاقب الفار بمضاعفة مدة الخدمة ، وابعاده إلى اقطار نائية حتى يعسر عليه الرجوع الى بلده .

وكانت الفتن قائمة دائما ، والحكومة فى شبه حرب مستمرة ان فى اليمن ، او فى بلاد الروم ايلى . وكان عدد القتلى كبيرا فى القطع المرسلة لتأديب العصاة، لذلك اصبح اسم الجندية مقارنا لاسم الكوليرا خصوصا فى الولايات غير التركية . وكان كل قادر على تقديم البدل النقدي عن الخدمة ٥٠ ليرة عثمانية ذهبية لا يتوانى عن دفعه مقابل الخلاص من الجيش .

ومع ان مدة الخدمة الفعلية سنتان ، فان اكثر الجنود كانوا يغيبون فيها الثلاث والاربع سنوات ، لانشغال الدولة فى محاربة العصابات ، وتمديد الخدمة الموقتة بين حين وحين .

وفى عام ١٩٠٨ جاءت قرعتي ، فباشرت بدفع البدل ، وتمت المعاملة فى ١٩٠٩ فبقي علي ان اتمرن على حمل السلاح مدة ثلاثة أشهر ، عينوها لي فى السنة التالية .

وفى الوقت المعين ، اي فى منتصف سنة ١٩١٠ التحقت بالقطعة التي عينوها لي ، وهي: « بشونجي اوردوي همايون ، طقوزنجي فرقة ، اوتوز اوجنجي الاي ، اوجنجي طابور ، برنجي بلوك ، برنجي طاقم ، برنجي مانغة » .

وكان مركز الطابور فى سراي العسكرية فى دمشق ، وقائده البكباشي (المقدم) سعدي بك الكحالة ، وهو يقيم فى باب السراي،

ايام الخدمة العسكرية سنة ١٩١٠ ، من اليمين : الرقيب عبدالله جاويش النفر فخري البارودي ، النفر ممدوح العابـــد .

امام مدخل سوق الحميدية الان تماما . وكان مركز السرية فى البناية التي تقع خلف اللوازم ، ومحلها دار نقطة الحليب فى شارع النصر اليوم

دخلت على سعدي بك ، وهو صديق لوالدي ، وتربطنا بـــه قرابة بعيدة ، فاستقبلني استقبالا حسنا ، وكان من ابناء قرعتي

ممدوح العابد ،التحقت واياه فى يو م واحد ، وقيدونا فى قطعة واحدة لذلك ارسلنا سعدي بك معا ، يرفقة احد الضباط الى قطعتنـــا ، فسلمنا الى « جاويش » الحظيرة التي قيدونا فيها ، حيث انضممنا الى بعض « البدلجية » امثالنا فى « القاووش » ، أي المهجع .

كان الجندي المكلف يسمونه « معذبا » ، وكان القاووش يتسع لماية جندي ، ارضه من التراب ، فيه « تختيتة » للنوم والجلـــوس ولكل جندي فراش من خيش محشو بالتبن او شبشول الذرة ، و« جانطة » قمطر لوضع حاجات الجندي وكبوت (يسمى باغمورلق) وهو للارتداء والغطاء ولم يكن فى الزمن الحميدي «بطانيات» للجنود بل كانوا يلتحفون الاردية فقط ، ولكنهم بعد الحرية سلموا الجنود بطانيات .

وكان المهجع قليل النوافذ رائحته عفنة كريهة ، يزيد بكراهتها رائحة اقدام الجنود عند عودتهم من التدريب حينما يقلعون احذيتهم ولم تكن النظافة معروفة .

وكان صغار الرتباء يتحكمون بالجنود تحكيما غريبا . ولا يعرف هذا الا الذي عاناه بنفسه . وانه لمن الضروري فى رأيي ان يتمـــرن طلا ب المدرسة الحربية بضعة شهور فى القطع العسكرية ، لـــيروا بأعينهم كيف يعامل الرتباء معيتهم من الجنود ، لان الضابط الذي يدرس بنفسه ذلك يستطيع ان يحسن ادارة معيته .

مهما يكن من امر فان مدة التدريب القصيرة افادتني فى الحـرب العامة افادة حقيقية ، وقد تعلمت خلالها جميع الدروس ، خـــلافا لرفقائي الذين كانوا يفرون من التعليم .

لقد مارست جميع اعمال الجندي ، من استعمال البندقيـــة الى حمل القروانة ، وحلقت شعري عند حلاقي الجنود الذين كانـــوا يجلسون فى السنجقدار امام مدخل القلعة ، فكان المزين يسلخ الجنود كالماشية ، مقابل اجرة خمس بارات ، وتسمى « ام الخمسة » . وما زلت اذكر كيف كان المزين « يقيش » الموسى على حذائه !

وكان اكثر رفقائي تملصا من واجبات الجندية لاسباب صحية، السادة لطفي الحفار واخوه جمال الحفار ، حسن العاني ، عبدالقادر ابو نصوح الدوجي ، ممدوح العابد .

ويوم انهينا التعليم واخذت « التذكرة » ، يعني شهادة انهاء الخدمة ، اشتريت علبة من القصدير ، ذات شريط يدخله الجندي المسرح فى رقبته ، فتتدلى القصديرة من تحت ابطه ، ويضع فيها « التذكرة » . وكان من عادة الجنود المسرحين ان يشتروا بندقية صيد مزدوجة ، ويسيروا بها فى الاسواق . وقد قمت بهذا الدور فحملت « جفتا » وقصديرة التذكرة لاري الناس اني انهيت خدمتي!

اذكر انني دخلت الى حانوت فى سوق الحميدية ، لاطلع صاحبه ـ وهو صديقي ـ على التذكرة، واخبره بخلاصي من الجندية وانتقالي الى صنف الرديف (اي الاحتياطي) . وكان يجلس عنده ضابط برتبة رئيس ، فنسيت ان القي عليه التحية العسكرية .

وبارك لي الحضور بالخلاص ، ولكن الضابط حدجني بنظرة قاسية وسألني : هل انهيت تعليمك ؟

فأجبت بالايجاب وعرضت عليه التذكرة ، فقال : ماذا تعلمت ؟

قلت : جميع ما يلزم الجندي .

قال : وهل اتممت تعليمك حتى استحققت هذه التذكرة ؟

فلما اجبت بالايجاب قال : انك لم تزل عجمي (وهي كلمة تعني ان الجندي لم يزل غرا . والغر هو الجندي الحديث يطلق عليه هذا النعت الى ان يحسن التعليم ويقوم بوظائف الجندي تماما) .

سألته السبب، فاجاب : ما هو اول درس اخذتموه ؟

قلت : احترام الآمرين .

قال : واين احترام الآمر (وتقال له « ما فوق ») .

فانتبهت انني لم اؤد له التحية العسكرية ، فنهضت واقفا فى الحال ، واخذت الوضع العسكري ، وحييته معتذرا ، فضحك وقال : الان عرفت انك اخذت تذكرتك بحق . وصافحني . ومنذ ذلك اليوم لم تفتني فرصة للاعراب عن احترام الجميع ...

دار العجزة والمتيتم

دخلت السنة ١٩١١ ، وانا ما زلت بلا عمل ، اعيش بلا غاية ، واقضي اوقاتي فى السهرات الخاصة وفى المحلات العامة ، وكلما مر الزمن ، ازداد خلقي ضيقا ، مع ان الله خلقني حركة دائمة ، لا احب ان ابقى دقيقة واحدة فى حالة البطالة .

ولما ضاق ذرعي بالبطالة خطر لي ان اؤلف جمعية خيرية تقوم بتأسيس دار عجزة وميتما للاطفال ، فكتبت سلسلة مقالات في جريدة « المقتبس » تحت عنوان « اين من يحبون المشاريع الحيوية» عالجت فيه حالة المتسولين والعاجزين .

وكان فى دمشق يومئذ جمعية للشحاذين ، لها شيخ حرفة وجاويش ودفاتر لضبط اسماء الشحاذين فى دمشق من نساء ورجال . وكان الجميع يطيعون الشيخ ولا يخرج احدهم عن ارادته، وكان للشيخ زبانية لتأديب المخالفين من زعران اهل هذه الحرفة . فاكثرت من الكتابة عن المتسولين المحترفين، الذين يوجد بينهم اغنياء حقيقيون ، ورحت افضح اسرارهم فى كتاباتي فقامت قيامتهم وجاءني شيخ الشحاذين مع بضعة اشخاص من « وجوه » هذه الحرفة يطلبون الي — او يأمروني امرا — بان اكف عن التعرض لهم، والا قتلوني . وكان تهديدهم لي جديا ، فاقلعت عن الكتابة بهذا الموضوع وتركت المشروع ، لاني لم اجد فردا واحدا اتعاون معه على القيام به ، واخذت اطبع على حيطان دمشق — بواسطة لوحة من القصدير المحفور — عبارة « تعلم يا فتى فالجهل عار » . واني اذكر جيدا انني لم ادع حائطا من حيطان الشوارع والحارات ، حتى « الدخلات » الصغيرة فى اي محلة من محلات دمشق ، الا وكتبت عليها هذه الجملة .

وفى عام ١٩١٩ ، بعد الحرب عاودت الكرة فى هذا البحث في جريدة « المقتبس » فكتبت مقالات متسلسلة تحت العنوان السابق، ولكن ذلك لم يفدني ، ولم إتمكن من تأسيس غرفةواحدة ، فعدلت ويقيت انتظر فرصة اخرى ، حتى سنحت فى سنة ١٩٤٠ ، فأعدت الكرة ، وتأسست دار العجزة والميتم كما سيجيء ذكره .

زواجي

كانت والدتي وجدتي لوالدي قد فاتحتاني سنة ١٩١٠ بالزواج فرفضت البحث في ذلك وقلت انني لن اتزوج قبل اتمام تحصيلي . ثم اعادتا الكرة بعد ذلك ببضعة اشهر ، فاصررت على الرفض ، ولكنهما ظلتا مع ذلك تبحثان عن فتاة مناسبة لي .

وفي سنة ١٩١١ عادتا الى ملاحقتي ، وقالتا : اذا وجدنا لك فتاة صالحة خطبناها وسيجري « كتب الكتاب » ، فاذا ذهبت الى التحصيل تبقى الفتاة بانتظارك ، فيجري العرس !

وهكذا اقنعتاني ، فطلبت اليهما في اول الشروط ان تكون صاحبة اخلاق حسنة ، وان تعرف القراءة والكتابة بصورة جيدة ! وتتقن ادارة البيت .

وهكذا راح اهلي يخطبون لي . في ذلك العهد لم يكن الخطيب يرى خطيبته ، بل يكتفي بوصف قريباته لها ، فيقلن له : عيونها كذا ، شعرها كذا ، وجهها كذا ، طولها كذا . وعلى الوصف يتوكل الرجل على الله ويعقد العقد ، وسعدك يا ابو السعود !

خال والدي خليل افندي البكري الذي كان له علاقة بمشكلة زواجي

وعلى هذه الطريقة جعلت جدتي ووالدتي تصفان لي البنات

اللواتي خطبتهن لي الى ان سمعت من ابنة خالي بوصف قرينتي الحالية ، كريمة المرحوم احمد افندي الدالاتي ، فطلبت الى والدتي خطبتها فابت جدتي ، بدعوى ان خال والدي خليل افندي البكري خطبها لاحد اولاده ، فتمنع ابوها ولذلك لا يمكن لجدتي ان تقدم على هـــذا العمـــل .

اصررت على طلبي . وكان والدي صديقا للمرحوم احمد افندي الدالاتي ، ولم يكن قد بقي عنده غير فتاة واحدة عزباء ، هي اصغر اولاده . وقد طلبها الكثيرون من اهل دمشق فرفض والدها زواجها

ولما لمس والدي اصراري حار بالامر ، وقال : لا اريد ان تقوم بيني وبين احمد افندي الدالاتي برودة او عداوة ، ولذلك فاني لـن اطلب منه ابنته خوفا من الرفض ، فاذا رفض فستكون بيننا عداوة ابدية لا سمح الله !

بقيت القضية بيننا : جدتي في عناد ، ووالدي على الحياد ، وانا في اصراري على رأيي بازدياد ، الى ان علم بالامر محمد افنـدي المهايني ــ صديقي وابن عمة الفتاة ــ فتدخل في الامر وسعى مـع شقيق الفتاة منير الدالاتي ، لاقناع والدة منير بقبول هذه الخطبة . وعلمت ايضا من المهايني ان الدالاتي افنـدي راض عني منـذ سمع خطابي في مكتب عنبر عند اعلان الحرية . وفهمت اننا اذا خطبنـــا الفتاة فانه لن يتأخر . وعلى الاثر تقدم باسم والدي احـد اصدقاء الطرفين سعيد افندي العسلي ، وخطب لي الفتاة من ابيها ، فوعده بالجواب بعد ثلاثة ايام ليستخبر الله .

وذهبت الى قصبة دوما في اثناء هذه المدة ، وفي اليوم المعـين ذهب العسلي لاخذ الجواب ، فاذا به بالموافقـة . وفي الحـال دعوا والدي حالا ، واحضروا احد المشايخ وعقدوا العقد وانا انتظر فـي دوما . واذ «بصراحيتي ليموناضة» ، اي شراب الليمون ، تصلانني الى دوما ، في صينية من الفضة محاطة بقطعة من التول الحريري ، مربوطـة بشريطة حريرية خضراء ، دليلا على عقد العقـــد .

وقبل وصولهما الى الدار، جاءني المبشر يركض يطلب مني بشارته. ولا تسل عن الفرح الذي اصابني فقد اصبحت زوجا بحمد الله ، ومع ذلك لا اعرف الزوج التي اختاروها لي ، ولا تمكنت من رؤيتها الا يوم عرسي كما سيجيء .

ومن الغريب اني قبلت بالزواج وانا دون عمل ، وليس لي وارد يكفيني وحدي ، فضلا عن الزوجة . ومن السخف ان يتزوج المرؤ اذا لم يكن ذا صنعة يكفيه واردها لفتح بيت . ومن العار ان يتكل الولد على ثروة ابيه ، مهما كان غنيا فيتزوج ، وهو مفلس . ولذا فاني انصح كل شاب ألا يتزوج الا اذا كان له من الوارد ما يكفيه وزوجه ، والاسرة التي ستتشكل منهما .

المجتمعات الخاصة

ما دام حديثي قد تناول المقاهي والمحلات العامة في عهد شبابي فانني سأكمله الان بحديث عن المجتمعات الخاصة . فقد كان للدمشقيين مجتمعات خاصة ، شتاء في الدور وصحوا في البساتين، وكانوا يسمون الدور التي يجتمعون فيها « قناق» وهي كلمة تركية اصلها « قوناق » يعني الدار ، اخذها الدمشقيون عن الاتراك واستعملوها « للبراني » اي لمحل اجتماع الرجال .

وكان أكثر القناقات يبعد عشرات الامتار عن دار سكن صاحب القناق ، فيختلف اليها اصدقاؤه الخصوصيون وزواره ، ويعقدون « الادوار » وقد اصطلحوا على اطلاق اسم « الدور » على اجتماع « شلة » من الرفاق من طبقة واحدة ، فيقضون سهراتهم في احد القناقات او البيوت . وكان لكل فرد « دور » معين ، فتكون الادوار اما يومية او اسبوعية . فاذا كانت يومية يكون الدور الاول عند زيد في اليوم الفلاني ، وفي اليوم الثاني عند عمرو والثالث عند بكر، الى ان ينتهي الدور عند اخر فرد من افراد الشلة، ويعود من جديد.

وكانت اسباب التسلية في الادوار بسيطة ، يدور اكثرها على المقرعة ، كلعبة « عبك » ،وهي ان يخبىء احدهم خاتما مثلا او حاجة صغيرة في « عب » احد الرفاق ، اذ يدخل يده في جيوب الحاضرين، ويترك الحاجة في جيب من شاء ، ثم يسأل الاول « اين الحاجة ؟» فيقول في جيب فلان ، فاذا اخطأ يقرعه مقرعة على كفه ، ثم يسأل الثاني الخ. ومن يحزر يقوم ويستلم المقرعة مكانه . وهكذا يقضي معظم الوقت بضرب المقارع !

لعبة السلطة : ومن العاب التسلية لعبة السلطة، فيقف احدهم وبيده المقرعة ، ويعطي كل فرد من الافراد اسما من اسماء

البقول التي يعمل منها السلطة ، وتسمى هذه البقول « زرزاوات » ثم يقول : « اني اريد ان اعمل صحنا من السلطة ، وعندي كل شيء من الزرزاوات الا البقدونس » .

ويكون الجميع منتبهين فيقول من تسمى بالبقدونس:« بقدونس فى ولكن ملح ما فى » ، فيقول من تسمى بالملح : « ملح فى، ولكن كزيرة ما فى » . وهكذا فالذي ينتبه ويجيب بالسرعة دون توقف نفد من ضرب المقرعة . واذا تأخر ضربه الواقف مقرعة على يده ، وهكذا يمضي وقت طويل فى ضرب المقارع .

لعبة المروحة : هذه اللعبة لعبة ضرب ايضا ولكن ضربها صفع بالكف على ظاهر الكف ، لا ضرب مقارع .

يقف صف من اللاعبين بحسب اتساع المكان ، ويقف خلف الصف صف اخر بعدد افراد الصف الاول .

يضع افراد الصف الاول ايديهم على رقابهم مشبكة الاصابع بحيث تلتصق الكفوف برقبة اللاعب، ويهز افراد الصف الثاني ايديهم المرفوعة هز المراوح ، وتبقى اوجه الصف الامامي متجهة الى الامام . ثم يبدأ اللعب بان يصفع لاعب من الصف الثاني رفيقا واقفا فى الصف الاول . وعندئذ يلتفت المضروب ليحزر اليد الضاربة فان اخطأ عاود الصفع ، وان حزر انتقل الصف الاول مكان الصف الثاني ، وهكذا حتى يمضي ردح من الزمن والصفع قائم !

هكذا كان الوقت يسير والعاينا ضرب وصفع . وكم كنت احاول ان اغير شيئا من اساليب التسلية بقراءة شيء من كتب التاريخ او كتب الادب ذات الفائدة ، فلا انجح الا نادرا . وما تزال الى اليوم الالعاب عند بعض طبقات الناس تسير على هذا الشكل ، فنحن نهزل ونضرب، وغيرنا يشيد ويجد ...

الطـــــقة : قلنا ان الادوار كانت يومية او اسبوعية ، ووصفنا اليومية كما مر . اما الاسبوعية فتقضي بان يبقى الدور عندزيد طوال الاسبوع . وفى اخر يوم من اسبوع الدور يقدم صاحبه الى رفاقه ما تيسر من الطعام الخفيف ، كالجبن والشاي وبعض الحلـــــوى والفواكه ، على ان بعضهم، خاصة من حديثي النعمة ، كانوا يبالغون فى تقديم الاشكال والالوان ، من اعمر الموائد . وكم جلبت هذه العادة الشجار بين الاصدقاء ، اذ يريد كل منهم ان يقدم طعاما احسن مـن غيره، كأنها مباريات فى الاكل . وليتهم كانوا يتبارون فى تقديم المبرات الى المؤسسات العامة كالمستشفيات والمياتم ودور العجزة وغير ذلـــك ولكن ما العمل ويلادنا ويا للاسف لم تعتد حتى الان على القيام بمثل هذه الاعمال ؟ وكم رأينا وارثا غنيا يصرف الليرات بالالوف على اشياء تافهة ، ويضن على وطنه بليرة سوري لاي مشروع خيري اواجتماعي فلا حول ولا قوة الا بالله !

***

قنـاق البكـري : مـن القنـاقات المشهورة قنـاق آل البكري ، وكانوا ممثلين فى شبان ، ذوي اعمار متقاربة ، هم رشدي افندي وانور افندي ومدحت افندي ، وكلهم اولاد خليل افندي البكري . كانوا مشهورين بالفتوة ، ولهم ولع بالصيد والقنص ولعب الشطرنج وكش الحمام . ولم يكن قناقهم يخلو ليلة من الزوار . ولا بأس من ذكر شيء عن سهراتهم ليطلع القارىء على لون من حياتنـا فى ذلك العصر .

كانت السهرة تبدأ من الساعة السابعة مساء تقريبا . وكلمـا جاء احد من الرفاق ، قام له الجميع . وبعد ان تقدم اليـه القهوة ـ المرة طبعا ـ ، يشترك فى الحديث مع الحضور ، وهو يدور عادة حول الصيد ، وتربية الحمام والشطرنج ، فيروى كل واحد اطرف ما جرى له من الحوادث .

تربية الحمام : كانت تربية الحمام تشكل صنعة قائمة بذاتها ، لم تزل شائعة الى اليوم على ايدي « الحميماتية » ، الذين يجمعون انواعا من طيور الحمام ، ويسكنونها اماكن خاصة في اعالي الدور ، في محل يسمى « حضير » ، وهو بناء منفرد كالغرفة ، داخله مربعات خشبية تغطي الحيطان ، فيوضع في كل مربع زوج من الحمام ، وكل نوع له اسم خاص ، فمنها البربريسي والاخضر ، والابلق ، والازرق ، والابيض والمرقع ، والحلبي ، والبغدادي ، والقلاب . والابلق منه ابلق بحلسه ، وابلق بخضرة ، وغير ذلك من الانواع .

هذه الطيور لها ساعات معينة لاطعامها ولاخراجها من الحضير ، ولا بد لكل حضير من باحة سماوية تطير من عليها الطيور وتعود اليها . والحميماتية قسمان : محترف وغاو ، فالمحترف يكون على الاكثر من اصحاب الرجولة ، يجمع اقوى اصناف الطيور وارخصها ثمنا ويدر بها على الطيران ، ولهم في تدريبها اصول وعادات ساكتب فيها كتابا خاصا اذا ساعدني الوقت .

وللحميماتية آلات للصيد من حبال المرس ، منها طارات بمرس تسمى شبكة ، تشبه بضفر حبالها شبكة صيد السمك . ومنها آلة ثابتة تسمى « سقلب » هي الاخرى من نوع الشبك ، ولكنها مثبتة بعصي رفيعة على حافة ظهر الحضير ، فعندما تهبط الطيور العائدة من التمرين ، يقلب الرجل السقلب عليها اذا كان بينها طير او طيور غريبة ، فيصيدها ويبيعها ، او يعيدها الى اصحابها مقابل مبلغ من المال يتفق عليه بينهما ويسمى هذا المبلغ « الفكاك » ، وقد يبلغ ١٠ ليرات ذهبا . وهناك محترفون يعيشون من اقتناص حمامات سواهم ، ثم يرجعونها مقابل الفكاك !

وكثيرا ما كنت احضر الى حضير اولاد خالي ، واقضي الساعات بالفرجة على « كش الكشه » ، واختلاط الكشات في السماء ،

واهتمام اصحابها بابعاد طيورهم عن سماء الحضير . من ذلك ان صاحب الطيور المدربة ، اذا كان ساكنا فى محلة ابي جرش في الصالحية مثلا ، يستطيع ارسال كشة « طيوره » الى سماء الميدان الفوقاني ، او الى سماء باب شرقي . والكشة هو اسم مجموعة الطيور التي يطلقها صاحبها ، سواء أكان عددها خمسة ام خمسين.

وللحميماتية المتخصصين معرفة تامة باشكال الطيور ، فاذا اراد احدهم خلط كشته بكشة غيره ، يصفر للطيور فتطير وتحلق فوق داره ، ويحمل بيده « كشاشة » وهي عصا ، يزيد طولها عن الثلاثة او الاربعة امتار ، فى رأسها شلة من الخرق ، يحركها للطيور فتعرف من حركتها الاتجاه الذي يراد ان تتبعه فتسير فيه . واذا عاكسته ، يضع الرجل فى « المداحة او الصبان » قشرة ليمونة معصورة ويضربها فيها . وكثيرا ما يصيب طائرا فيرميه ، وبهذا تذل الكشة وتتجه الى الناحية التي يريدها .

وعندما تصل الكشة الى كشة اخرى طائرة ، اي الى الكشة المرسلة اليها ، تختلط الطيور وتدور مجتمعة طول المدة التي يريدها صاحبها .

والحميماتي يعرف من مكانه انواع الطيور المختلطة ، وقوة افرادها . ومتى رأى ضعف الطير الذي يريد صيده ، اخرج طيرة انثى من الحضير ، وقبض عليها من تحت جناحيها وجعل يهز بها ، وهي ترفرف بجناحيها ، الى ان يرى طيوره اتجهت نحوه وقربت من داره ، فيلقي الطيرة امام باب الحضير ويختفي فى مكان لا يظهر منه . فتهبط الطيور ، وبينها الطير الغريب الذي اصطحبها . وبمهارة زائدة يرمى عليه السقلب او الطارة ويصيده . ولا تسل عن الفرح الذي يصيبه عندما يصيد طيرا ثمينا !

وكان رزق عشرات الحميماتية فى زمننا على الله ، وعلى صالح بك العظم ، الذي كان له غرام زائد فى هذه اللعبة . ولا استطيع ان احصى الاموال التي دفعها فكاكا عن طيور ، ولكن بامكاني ان اقول انه دفع مدة غوايته ما يزيد عن العشرة الاف دينار ذهبا . وكان حديثه بين الحميماتية لا ينقطع مدة حياته ، وما يزالون والى اليوم يتندرون باحاديثه .

* * *

الشطرنج : قلت ان الشطرنج كان موضوع الحديث في القناقات . وبعد ان يشبع الحضور من الكلام عنه يحضرون الرقع ويتبارى اللاعبون ، كل طبقة مع الطبقة المعادلة لها .

وكان من مشاهير اللاعبين فى دمشق فى ذلك الزمن الخصي سعيد افندي ، وهو احد عبيد السلطان عبد العزيز ، نفاه السلطان عبد الحميد مع من نفى من رجال معية عمه . ومن الدمشقيين المشهورين بهذه اللعبة محمود افندي حمزه مفتي دمشق الشهير ، والسيد توفيق ، والسيد رسمي اولاد الميداني وكان يعجبني فى هذه اللعبة التي تعلمتها ان اللاعبين كانوا لا يلعبون على رهن ، اي لا يقامرون بها ، بل كانوا يلعبون على انواع من الفاكهة ، يأكلونها في اخر السهرة .

وهكذا كانت تقضي ليالي القناقات فى الالعاب ، وفى النرد والورق . ومن الذ العاب الورق لعبة « ابو الفول » ، وهو اخراج جميع الصور ، وترك صورة واحدة بين الورق ، وتفريقه على الحاضرين ، فيصيب اللاعب بضعة اوراق يزاوج بينها ، ويرمي الازواج . وما زاد يسحب الواحد من الثاني ، بالدور ليزوجوا الاوراق المفردة . ومن بقى بيده الصورة يغنون له بقولهم « بو الفول عليك فطور ! » ويصفقون ، وهكذا تنتهي السهرة !

مع الوالد الحياة في دمشق

النور في الشوارع : قبل تمديد الكهرباء في دمشق ، كانت الشوارع تنار بمصابيح البترول ، وكان اكثرها يطفأ ، لان الاولاد يضربون الواح البلور بالحصى فيكسرونها ، ويدخل الهواء فيطفىء النور . وكان الناس يسيرون وفي ايديهم مصابيح من ورق، يضعون فيها الشموع تنير لهم الطريق ، تسمى « فنار » . وقد مر وقت منعت فيه الحكومة سير الناس بعد صلاة العشاء بدون مصابيح

ومن الطرائف ان صالح بك العظم ، وهو من اعظم ابطال دمشق ، كان في شبابه مغرما باحدى اليهوديات . وقد سهر عندها في احدى الليالي ، يرافقه السيد سليم الميداني ، وهو من نوادر زمانه .

وبعد منتصف الليل بساعتين او ثلاث، خرجا من حارة اليهود عائدين . وبينما كانا يجتازان محلة مأذنة الشحم ، صادفا دورية البوليس ، تقدم رئيسها ورفع مصباحه ليرى المارين بلا مصباح ، فلما تميز صالح بك ، وهو يترنح ، قال له : يا سيدي انت ابن الحكومة ، وانتم تضعون القوانين ، فلماذا تخالفها ؟

قال : باي شيء اخالفها ؟

قال : نك تسير بلا مصباح ، وهذا لا يجوز .

قال : مصباحي معي ، اذهب في طريقك ! وسأله الشرطي عن مصباحه ، فادار له ظهره . ورفع ذيل سترته ، وقال : هذا مصباحي!

ومشى صالح بك ، وخلفه السيد سليم ، فقال له المفوض : وانت يا رجل ، اين مصباحك ؟

قال : انا سائر على ضوء البك !

فضحك رجال الدورية وذهب كل واحد في سبيله !

التشليح في الحارات : كان الامن شبه مفقود في تلك الايام وكثيرا ما كان اللصوص يسلبون من يستفردونه في المحلات النائية من البلدة . ولم يكن في دمشق في الليل محل امين، الا المواقع الممتدة من موقع السنانية الى باب الجابية ، فالسنجقدار ، فساحة المرجة . اما بقية الاحياء فكان المار فيها ، خصوصا بعد منتصف الليل ، يحتاج الى حراس وخفراء .

مر شرطي يهودي مرة في العمارة ، فصادف ابا فياض البغل — وهو احد الفتيان المشهورين بالرجولة — يعربد وفي يده خنجر ، يعترض به المارة ويضربهم بقبضة الخنجر على رؤوسهم ، ولا يجرؤ احد على معارضته . فلما رأى الشرطي اليهودي تقدم اليه وضربه على رأسه بالقبضة ضربة قوية طفر منها الدم ، وغسل وجهه ورداءه .

ولما رجع الشرطي الى داره ، ورأته زوجته ، ولولت وصاحت: ويه ... شو صابك ؟

قال : البغل ضربني !

قالت : ويه عليك ، شو فوتك عالخان ؟

قال : ولك ليس الذي ضربني بغل حيوان ، بل هو بغل انسان!

فقالت له : اذن اذهب واشلح بدلة السلطان ما دمت لا تقدر على حمايتها !

* * *

القبضايات : كلمة مأخوذة عن التركية ، معناها الخال الغليظ « قبادايي » ، وتطلق عندنا على كل موصوف بالرجولة ، او « زكرت » وفي بغداد يسمونه « ابو جاسملر » وفي حلب يسمونه الحاج حمده . وهناك رجال يدعون هذه الصفة زورا ، وهم من الزعران المعروفين بالـ « بابا حسن » .

ويسيطر القبضايات عادة على المحلة، ويضعون انفسهم في خدمة وجهاء المحلة من باشاوات وبكوات وافندية .

تضامن اهل دمشق : كان معروفا عن اهل دمشق في ذلك الحين انهم متحدون ، يطيعون زعماءهم ، وينتصر بعضهم لبعض ضد الغريب ، عاملين بالحديث : « انصر اخاك ظالما او مظلوما » ، بعكس هذه الايام التي عزت فيها الصداقة والوفاء . واضرب على ذلك المثل التالي :

حدثني الشيخ حسن النحاس قال : في ايام راشد ناشد باشا ، اختلف المفتي ونقيب الاشراف في دمشق . وكان المفتي من العلماء المشهورين ونقيب الاشراف لا يحمل من العلم الا العمامة الخضراء . وكان سبب الخصام استهتار النقيب بمنصبه وبواجباته الدينية .

وكان مدير الامن العام يسمى « الاي بكي » ، وهو اكبر ضابط في الجاندرمة ، اي الدرك . فوقع بينه وبين النقيب نزاع شديد ، وتربص بالنقيب الدوائر حتى اخبروه انه في بستان من بساتين دمشق مع خليلة يحبها ، فانتهز الفرصة وذهب الى البستان بقوة كبيرة ، واعتقل النقيب وخليلته وعاد بهما الى السجن .

وذهب احد المنافقين الى المفتي ليبشره بسجن عدوه ، فلما سمع الخبر نهر الرجل وكذبه امام الحاضرين ، وارسل خلف السجان حالا ، ولما جاء قال : ستطلك سيدة بعد قليل ، فضعها حالا مكان السجينة التي ارسلوها اليك اليوم . واياك ان يفهم احد ، واذا فهت بكلمة فليس لك مقام في هذه البلدة !

ووعد السجان بتنفيذ الامر ، لان مقام المفتي كان اعظم مقام في الدولة ، يعني شيخ الاسلام في العاصمة والمفتي في عاصمة الولاية .

ثم ارسل المفتي دون تمهل رسولا دعا زوجة النقيب، فحضرت سريعا، ودخلت الى الحرم فافهمتها زوجة المفتي القضية ، وارسلوها الى السجن ، ووضعوها محل الخليلة المسجونة .

وبعد ان اطمأن المفتي للعمل ارسل واستدعى جميع وجهاء الشام ، وكان بينهم الشيخ عبد الله الحلبي شيخ الشام واعلم علمائها فى زمنه ،واخبرهم ان العداوة بين النقيب وقائد الدرك توترت الى درجة تجاسر فيها « الالاي بكي » على سجن النقيب وزوجه : هذا فى سجن الرجال وهي فى سجن النساء ، وان الحال مع هؤلاء الحكام لم يعد يطاق ، فثار ثائر القوم ، وتشاوروا ماذا يعملون فقر القرار بعد المشاورة على مراجعة الوالي لاخراج النقيب، ومجازاة المفتري .

وهكذا ذهب كل واحد الى محلته و « دبوا الصوت »، واوعزوا الى القبضايات ان يهيئوا انفسهم وجماعتهم ، وان ينتظروا الاوامر التي تصدر عن المفتي ، فان سمع الوالي شكواهم واخرج المساجين وجازى المفتري كان به ، والا فعليهم ان يهجموا على السجن ويخرجوا النقيب .

وبالفعل ، ركب العلماء والزعماء دوابهم وذهبوا الى دار الوالي ، وكان ذلك عند منتصف الليل . وكانت دار الوالي واقعة فى البنايات المجاورة، لجسر الصالحية، التي فتحوا فيها شارع الرئيس والشارع الجديد . ولما وصلوا الى دار الوالي ايقظه « الحرم اغاسى» واعلمه بمجيء زعماء دمشق ، فخرج مضطربا ، فقدموا له مفاتيح الدور واوراق « الطابور » ، يعني اوراق التمليك ، وقالوا : نحن

لا نبقى فى هذه البلاد عرضة للظلم والجور !

سأل عن السبب ، فاخبروه ان « الالاي بكى » سجن النقيب وزوجه ، وانهم لا يرضون الا باخراج السجين وطرد المفتري من سلك الدرك وسجنه مكبلا بالحديد فى قلعة بعبدا ليلقى جزاء الافتراء

فهدأ روعهم وطمأنهم ، وامر باستحضار الالاي بكي ، فجاء مسرعا . ولما رأى هذا الجمع حار فى امره ، وسأله الوالي بحضور الجميع : لماذا سجنت النقيب وزوجته ؟

قال : يا افندينا (وهذه كلمة تطلق على السلطان وعلى وكيله فى الولايات والايالات) : اني وجدته بحال مريبة مع مومس فى احد البساتين ، فاودعتهما السجن الى ان يجري التحقيق معهما !

فقال المفتي : يا دولة الباشا ان المرأة التي كانت معه هي زوجة النقيب لا خليلته ، وهي بالسجن الان ، فاذا تحقق لكم هذا ارجو اصدار امركم باطلاق سراحهما ومجازاة المفتري .

فارسل الوالي زوجته مع بعض الحراس الى سجن النساء ، وكان فى باب البريد ، فاخرجت المسجونة وحضرت بها الى دار الوالي واخبرته ان المسجونة هي زوجة النقيب ، فامر حالا باطلاق زوجها ، وقطع خرج الالاي بكي وامر بسجنه مكبلا واعتذر عن هذه الهفوة .

وفى اليوم الثاني جاء النقيب الى دار المفتي للشكر ، فلم يقبله وقال له ان العداوة التي بيننا لم تزل هي هي !

وبعد بضعة ايام ركب المفتي بغلته وسار الى دار النقيب ، ولما درى هذا ان المفتي فى طريقه الى داره ركض حافيا لاستقباله ، فاختلى المفتي بالنقيب وقال : ان عداوتنا لم تزل باقية واني اتيت اليك لنذهب الى الوالي ونستعطفه حتى يطلق سراح المظلوم الذي سجنه لاجلك يا ظالم !

وسارا سوية الى السراي ، ودخلا على الوالي ، فاستقبلهما بالحفاوة، فقال المفتي : يا مولانا ان اصل النقيب اجبره على الحضور بين ايديكم ليطلب منكم العفو عن الالاي بكي ، وقد اخبرني انه منذ ذلك اليوم الى اليوم لم يغمض له جفن من تأثره ، وانه عفا عن هذا الذنب ،وهو يطلب منكم العفو واطلاق سراحه وارجاعه الى رتبته ، على ان يكون مقامه فى غير هذه البلدة .

فاثنى الوالي على علو النفس و « هذه الاصالة والنجابة » وامر باطلاق سراحه وارسله بوظيفته الى مدينة حماه .

وهكذا بقي راشد ناشد باشا طوال مدة ولايته لا يرى الا تكاتف الزعماء والعلماء وكلمتهم واحدة ، حتى انه لما خرج من الشام وخرج الناس لوداعه عند جسر « توره » بكى ، فسأله احدهم : لم تبكي يا افندينا ، أعلى فراق دمشق ؟

قال : لا بكيت لاني طول مدة اقامتي فيها لم اقدر ان افرق بين اثنين من اهلها !

اما المفتي فقد اوعز الى النقيب بالاستقالة سترا لطابقه وخوفا من سقوط الاعتبار لمقام نقابة الاشراف ، فاستقال النقيب ، وكانت استقالته سببا للصلح بينه وبين المفتي .

من هذه القصة نعرف مقدار تماسك الدمشقيين فى ذلك الزمان اما اليوم فما لي ان اقول الا : لا حول ولا قوة الا بالله . . .

ليالي الانس

كان والدي رحمه الله من اصحاب القناقات المشهورة ، وعنده كل ليلة كيف وطرب . ومنذ وعيت على الدنيا وانا اسمع الغناء في قناق والدي ، اذ كانت له تقريبا جوقة خاصة ، افرادها من ابرع الموسيقيين فى ذاك العصر .

وكانت سهرات والدي العامرة ليلية تقريبا ، وجوقته مركبة من عمر الجراح القانوني ومن اخيه ابراهيم العواد ، واحيانا يأتي معهما اخوهما الثالث محمد الجراح العازف الوحيد على الكمان في عصره .

ولما اختل ابراهيم العواد استبدله والدي ببديع محسن ، وكان من اجمل شبان عصره . اما المغنون فكانوا الشيخ عبد الله ابو حرب والشيخ رشيد عرفه ، وهما من المداومين ليليا . وكان الغناء القديم كله موشحات وادوار وقصائد على الوحدة .

ولكثرة سماعي لهذه الاغاني فى كل ليلة تولدت عندي ملكة السماع . وكنت اصلا اميل الى الموسيقى . ولعلي ورثت ذلك عن جدي لوالدتي امين العلمي ، الذي كان من الموهوبين بصوت حسن مع عزف لطيف على الناي والفلوت وكان جدي حتى وفاته من زبونات القناق الدائميين ، وكذلك كمال افندي المهايني الذي لم يترك والدي منذ شبابه حتى فرق بينهما الموت ، فكانا يجتمعان يوميا فى السفر والحضر ، فى الليل والنهار . وقل ان ترى صداقة كصداقتهما التي كانت مضرب المثل فى دمشق .

وكان من هذه الشلة السيد رشيد الحناوي ، من وجوه التجار ومن ذوي الذكاء النادر . وكانت السهرات تضم اظرف الندماء المشهورين فى دمشق ، كالشبوعن وعبده الحمامي وكزابر ،

وغيرهم ممن خصهم الله بخفة الروح وسرعة النكتة ، كما ان اكثر الموسيقيين كانوا كذلك من اخف الندماء روحا واسرعهم نكتة . وعندما يجتمع هؤلاء وهؤلاء معا فى ليلة آنس ، لا يستطيع الانسان مهما كان منقبضا ، الا ان يتبدل ويساهم معهم فى النكات . وساضع كتابا عن ظرفاء دمشق فى القرن التاسع عشر اذا مد الله بالعمر ، اذكر فيه كل نديم ظريف مع شيء من نوادره ، كحسن حمد الله وسليم شاكر وبكران وابو علي انبوبا وغيرهم .

وكان لوالدي فى قصبته دوما ندماء ظرفاء لا يقلون خفة عن ظرفاء دمشق المذكورين . كان والدي يقضي نهاره فى العمل ويعود مساء الى دمشق . فاذا قضي عليه المبيت فى دوما ، كان يأتيه الندماء، ومنهم مصطفى صلاح، عبد الحميد شاكر، مصطفى حسون، عبدالله الحلاج وغيرهم . ومن اظرف الندماء فى ذاك العصر عبدالنافع ابوغنيم، وكان يجمع والدي فى الاعياد والمواسم بين ظرفاء دمشق وظرفاء دوما فيقضون ساعات فريدة .

ومن مشاهير المغنين فى دوما آنذاك عبد المولى، وكان يغني على طريقة القبضايات ، مواويل بغدادية وشروقية وعتابا ، يصحبه على الناي سعدو حسون . ومن لطائف ما وقع من النكات ، نكتة عملها ابو غنيم عبد النافع ، ما زال الناس يتندرون بها الى اليوم وهي :

كان زاهد افندي الالشي قاضيا فى دوما ، وهو من المشهورين بخفة الروح . جاءه محمد عبد النافع ابو غنيم يوما بعرضحال يقول فيها أن الله سبحانه وتعالى خلقه بغير ارادته ، ودفع به الى خضم هذا العالم دون ان يستشيره ، وحكم عليه بقدرته ان يتزوج ففعل ، وانعم عليه باولاد من ذكور واناث ما يزيد عددهم عن تلامذة مدرسة ابتدائية ، ومن كثرتهم افلس ، فكانوا سببا لمصيبته ، ولذلك فانه يرجو من حضرة القاضى جلب المدعى عليه ليقاضيه ويسأله لماذا خلقه ، ولماذا قطع رزقه ، حتى انه اوعز الى اصحاب الحوانيت من

التجار ان لا يسلفوه حاجة ، مهما كان ثمنها . وهو يطلب الانصاف من القاضي لانه لم يعد يحتمل مرارة هذه الحياة !

اخذ القاضي المعروض وذهب الى القائمقام ، وكان الامير امين ارسلان على ما اظن ، فاطلعه على القصة ، وقال له : سأنظر في قضيته بعد اتمام القضايا التي بين يدي اليوم ، واطلب اليك ان تحضر الجلسة .

وهكذا كان ، فعقد القاضي جلسة خاصة ، ومنع حضورها الا على كبار موظفي الدولة . ثم طلب المدعي ، وهو يتكلف الجد ، وسأله عن دعواه ، وطلب اليه ان يحضر المدعى عليه ، فاجابه : انه حاضر ناظر في كل مكان !

ثم قال : ان قصتي بيدك مكتوبة !

فامره ان يرويها ثانية ، فاعاد شكواه ، واصفا البؤس الذي يحيط باسرته من كثرة افرادها ، فقال له القاضي : منذ متى هذه العداوة بينكما ؟

قال المدعي : منذ مدة طويلة !

سأله القاضي : منذ تلك المدة الى اليوم كم قاض جاء الى دوما ؟

قال : كثيرون !

فقال القاضي : لماذا لم تتقدم اليهم بهذه الشكوى ، لينصفوك في دعواك ؟

فاجاب : ان الذين تقدموك لم يكونوا مثلك اصحاب جرأة ومتانة ، والجميع كانوا يخافونه ، ولهذا لم اقدم لاحد شكواي . ولما رأيتك انك الوحيد الذي لا يخافه ، اتيتك بشكواي طالبا منك الانصاف !

فصعق القاضى ، وصفق الحاضرون . وبعد ان ذهبت موجة الدهشة قال القاضى : هل تريد الصلح مع خصمك ؟

فلما اجاب بالايجاب، قال القاضى: اذن تعال فى المساء الى داري!

وفى المساء ذهب عبد النافع الى دار القاضى فقدم اليه خمسة دنانير ذهبية، واعطاه طحينا ومؤونة الدار لمدة سنة من زيت ودبس وبرغل وزيتون ، وقال : اكتب براءة بينكما .

فكتب له براءة ، فوضعها القاضى فى جيبه وقال للشهود الحاضرين بعد ان اشهدهم فيها : اني ساوصي بانزالها فى قبري ، واذا حاسبني الله ساعطيه هذه البراءة الشاهدة بتخليص ذمته ليعفو عني !

بهذه الصفحة انتهى الجزء

الاول من مذكرات البارودي

المرجو من القراء تصحيح الخطأ قبل المطالعة

جدول الخطأ والصواب

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٥	١٣	خالد	خالدا
١٤	٢٠	محمد	احمد
١٩	٢١	والعبارة	والعبادة
٢١	١٣	فوزي باشا	عطا باشا
٢٣	٥	مدرسة	المدرسة
٣١	٦	تاريخ	التاريخ
٣٨	٤	اذز نيز	اذن سيز
٤٢	٤	وخلفني	وخلصني
٤٣	العنوان	من حياذلك	من حياة ذلك
٥١	٩	حسن	حسني
٥٨	٦	جلال باشا	جمال باشا
٦٤	٤	طويل	طويلا
٧٠	١٣	الشيخ ابو الهدى	احدرجال الشيخابوالهدى
٨٢	٧	متين	منين
٩٠	١٧	يراهم	يراه
٩٢	٧	الجيلاتي	الحيلاني
٩٢	٢٦	كل	كلا
١٠٠	١٩	عجمي	عجميا
١٠٤	٢١	ليستخبر	ليستخير
١٠٤	٢٣	به بالموافقة	به يظفر بالموافقة
١٠٨	١٢	سوري	سورية
١١١	٣	طيور	طيوره
١١١	٢٣	ليزوجو	ليزاوجو
١١١	٢٤	بو الفول	ابو الفول
١١٣	١٧	بدلة	بذلة
١١٥	١٨	الوالي واقعة في	الوالي في
١١٥	٢٢	الطابور	الطابو
١١٦	٤	بعيدا	بعيدة
١١٨	٢٤	كالشبوعن	كالشبؤون
١١٨	٢٤	كزاير	كزابر
١٩١	٨	قصبته	قصبة

حقوق الطبع محفوظة

ثمن النسخة
١٠٠ ق ل. س.
١٠٠ فلس. مل

طبع على مطابع «دارالحياة» ـ بيروت

مذكرات البارودي

من شاء منكم أن يعز بلاده
فليسع سعيي معزها البارودي
«الرصافي»

الجزء الثاني

دمشق ١٩٥٢ م

إذا اختصم الحق وأخي، فأنا مع الحق ارسطو

مذكرات البارودي

ستون سنة تكلم

بقلم
فخري البارودي

الجزء الثاني

دمشق عام ١٩٥٢

حقوق النشر واعادة الطبع حق
للناشر
عاطف العجة

طبع في مطابع « عجه واتحاد »
بدمشق

الإهداء

الى شبان العرب :

اهدي مذكراتي هـــذه ليطلعوا على صفحات من تاريخ بلادهم الحديث لعلهم يجدون فيها عبرة وذكرى .

دمشق ، اول آب ١٩٥١

فخري البارودي

4-16-57 ٥٧٧ (٢٧)

رسمي

قبل سفري الى اوربا عام ١٩١١

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

هـــذا هو الجزء الثاني من مذكراتي التي ستصدر تباعاً في عشرة اجزاء .

هذه المذكرات تدوين صحيح وتسجيل جديد لحوادث ستين سنة لم يحسر عنها نقاب ، ولم يتحدث عن بعض نواحيها مؤرخ برغم ماتحفل به أيامها من زعازع ، وما تموج به لياليها من أرزاء ، وبالرغم من هذا الصراع بين الحق المهضوم والباطل المفروض : بين حر أعزل ضعيف ومستعمر مسلح قوي ، بين شعب مسالم ذكي ومتسلط طماع يرتكز على طائفة من المأجورين الذين عاشوا كالسوس ينخر في جسم العروبة فاحرص ايها القارىء الكريم على ضم اجزاء هذه المجموعة التاريخية الفريدة الى بعضها لتكون لديك مجموعة كاملة تقف منها على اسرار الحقبة الاخيرة من تاريخ هذه البلاد .

وأسباب تأخر صدور هـذا الجزء هو اني كنت اتفقت مع صاحب الحياة على نشر المذكرات في جريدته وفعلا نشر الجزء الاول متسلسلا

فيها ونظراً لبعدي عن بيروت اضطررت لقطع النشر في الجريدة وعزمت على طبعها اجزاء ولأسباب عديدة تأخرت عن اصدار هذا الجزء وارجو ان تساعدني الظروف على اتمام النشر في مدد قريبة فلا تتأخر الاجزاء الباقية عن الصدور في اوقاتها حتى تتم السلسلة وعلى الله الاتكال .

فخري البارودي

فكرة السفر الى اوربا

مداوم في قلم محكمة الاستئناف :

ذكرت في الجزء الاول ان والدي بعد ان كان يعدني بارسالي الى الآستانة . نكل وأراد ان يزوجني ليفرح بي وعقد عقد نكاحي كما جاء سابقاً ومضت سنة (١٩١٠) وأنا بدون عمل ورأس العاطل كما لايخفى هو محطة الشيطان وبامكاني ان أقول انني لم أترك ناحية من نواحي (الجهل) الا جرَّبت حظي فيها حتى مللت فتقدمت باستدعاء الى مدعي عام الاستئناف طلبت فيه قبولي في قلم محكمته مداوماً بدون راتب عسايَ اتمكن من التمرن على الكتابة التركية الرسمية فيساعدني ذلك في مستقبلي . قُبلت وداومت ولكن دوامي لم يكن يأخذ جميع وقتي بل كنت غير مجبور على قضاء جميع اوقات الدوام في العدلية بل كنت أذهب حسبما أريد ولما كانت كتابتي التركية بالنسبة الى كتابة الاخرين من الكتّاب أصلح من كتابتهم كان رئيس الكتاب يعتمد علي ببياض مايلزم وعلى هذا بقيت مداوماً الى ان فررت الى اوربا كما سيجيء .

***

والدي في الآستانة :

في عام ١٩١١ م حصل لوالدي اشغال خاصة في الآستانة فسافر اليها في اوائل كانون الثاني وكان بعض رفقائي في المدرسة واكثر ابناء الصفوف الذين تخرجوا بعدي سافروا الى (اسطنبول) الآستانة وبقيت مبلبل الفكر اضرب اخماساً في اسداس للخروج من هذه الورطة

الوبيلة وكنت افكر في أكثر اوقاتي بالحالة التي وصلت اليها وقد خطر لي خاطر كان شغلي الشاغل من بعد سفر والدي وكانت نفسي تحدثني بلزوم تنفيذ هذه الفكرة وهي ان اسافر الى اوربا لتحصيل الزراعة في احدى مدارسها طالما منعني والدي عن السفر الى الآستانة . راجعت الاستاذ محمد بك كرد علي بهذه الفكرة فاستصوبها وشجعني عليها وما زلت افكر بها حتى تجسمت برأسي .

وصرت كالمأخوذ ان قمت او قعدت ، ان نمت او صحوت لاافكر الا بالسفر وجعلت الخيالات تمر في مخيلتي مرور مناظر السينما فبينما كنت افكر في ايام المدرسة الماضية ينتصب امامي المستقبل فمرة أرى نفسي في مدرسة زراعية في فرانسا واخرى أرى نفسي في دمشق ثم يمر أمامي مناظر حياة عائلية فيها اولادي . يطلبون مني « خرجية » وأنا فقير ومرة ارى السعادة في يدي وهي شهادة المدرسة الزراعية ، ثم يمر في مخيلتي المجد والعلاء ومراتب العلم والأدب واخيراً تمكنت الفكرة مني وعزمت على السفر الى فرانسا والدخول في مدرسة زراعية فيها لأني رأيت بعد شدة التفكير انني لايمكنني سحب فلس واحد من كد يميني في هذه البلدة لأن الناس كانوا يعيرون أبناء « الذوات » اذا اشتغلوا فكيف اشتغل وانا فخري بن محمود البارودي ووحيده ، أي عمل يليق بي القيام به دون ان يعيرني الناس فيه ، أي صنعة اقوم بها دون ان ينقدني المجتمع فيها . هاهم ابناء الذوات أكثرهم عائشون في دور اهلهم يتناولون رواتبهم من آبائهم وهم في جهلهم يسبحون ، اكبر شاب منهم لايحسن قراءة رسالة او كتابة مكتوب فهل ابقى مثلهم أمد يدى لوالدي أشحذ منه راتبي الشهري بدلا من ان تكون بيدي صنعة اساعد والدي من نتاجها . هذا بعض ماتشخص لي

فوطدت العزم على السفر وجمعت ماقدرت جمعه من المال فبلغ مائة وثلاثين ليرة افرنسية ذهبية دفعت ديوني منها واشتريت أدوات طبخ وضعتها في صنـــدوق خشبي صغير ونقلت جميع ملابسي التي اصطحبتها معي من « الجواني » دائرة الحرم الى « البراني » ووضعتها في الحقيبة التي اشتريتها خصيصاً لهذه السفرة . حضّرت الاشياء ويوم الجمعة الواقع في ١٥ شباط سنة ١٩١١ وصلتني برقية من والدي من اسكندرونة يشعرني فيها بأنه سيصل الى دمشق الاحد مساء وخوفاً من ان يصل والدي الى دمشـــق قبل مغادرتي اياها أسرعت باتمام جميع مايلزمني وقطعت علائقي ودفعت ديوني التي لاتزيد عن بضع ليرات وأخذت البرقيـــة الى خال والدي (عطا باشا البكري) وعدت الى الدار واطلعت سيدتي الجدة لوالدي ووالدتي على البرقية وقلت لهما اني سأذهب الى دوما لأرى الاعمال واعود غداً لاخبر والدي بعـــد وصوله بحسن سيرها وأمرت الحوذي باحضار العجلة (العربة) ونقلت الامتعة اليها دون

خال والدي عطا باشا البكري

ان يشعر بي احد وبعد ان خرجنا من المحلة الى الشارع قلت اذهب الى فندق « اوتيل فيكتوريا » وكان مكانه مقابل البنك السوري اليوم على ضفة بردى الثانية ووضعت الحقيبة والصندوق في الفندق وقلت للحوذي

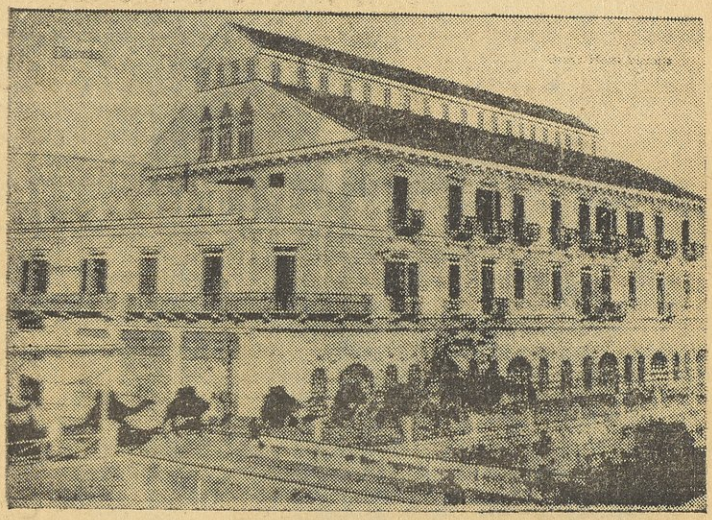

اوتيل فيكتوريا في دمشق

اذهب الى الدار بعد قليل واخبرهم اني بقيت في الضيعة لاشغال ضرورية وغداً صباحاً تعال الى الفندق وذهب الحوذي بالعربة وبقيت في الفندق .

***

الفنادق في دمشق :

لم تكن دمشق تعرف الفنادق بل كانت الخانات تقوم مقام الفنادق فيها وسيأتي بحثها منفرداً وأول فندق « اوتيل » تأسس في دمشق هو « اوتيل ديمتري » وديمتري هـــذا رجل نمساوي فتح غير الفندق مقهى

في ساحة المرجة على الطرز الجديد مما لا عهـــد لدمشق به وشاركه بالفندق رجل يدعى الآغا ممنون وفتحوا الفندق في طلعة جوزة الحدبا ، ثم فتح المسيو (بيتروبو ليوفيتش) فندقاً اسماه « اوتيل اميركا » موقعه مكان اوتيل امية اليوم وهو ثاني فندق اسس في دمشق ثم فتح الخواجات خوام فندقا في محلة القنوات في الدار المعروفة بدار تمر ثم انتقلوا الى جانب اوتيل فيكتوريا وبقوا فيه الى ان بنوا اوتيل « اوريان بالاس » الحالي واليوم في دمشق اكثر من مائة فندق وفيها من الفنادق البديعة ما يضاهي أجمل فنادق العالم .

وحتى اعلان الدستور العثماني كان اصحاب الفنادق جميعهم من المسيحيين وبدأ المسلمون بفتح الفنادق منذ ذلك التاريخ فأسسوا دار الفرح ودار السرور والخديوية الى غير ذلك ، اما المسيحيون فكانوا يسمون فنادقهم باسماء افرنجية وظل هـــذا الى خروج الافرنسيين من دمشق حيث قام الأهلون وطلبوا من اصحاب الفنادق تغيير الأسماء الأفرنجية بأسماء عربية فبدلوها وأصبحت كما هي معروفة به اليوم .

***

الخانات :

الخان كلمة تترية معناها ملك ورئيس يلقب بهـــا كل الأمراء الملكيين التتر وهي من القاب ملوك الفرس والسلاطين العثمانيين ، ويطلق الخان عند الاتراك على الفندق وعنهم أخذه العرب . كان قديماً يبنيه الملوك على الطرق العامة لتبيت فيه القوافل وأبناء السبيل . والخان على الاكثر يبنى عادة على هيئة ساحة مربعة في داخلها صفوف من المماشي بعضهـا مبني فوق بعض فتكون من طابقين على جوانبها غرف صغيرة وفي احدى جوانبها

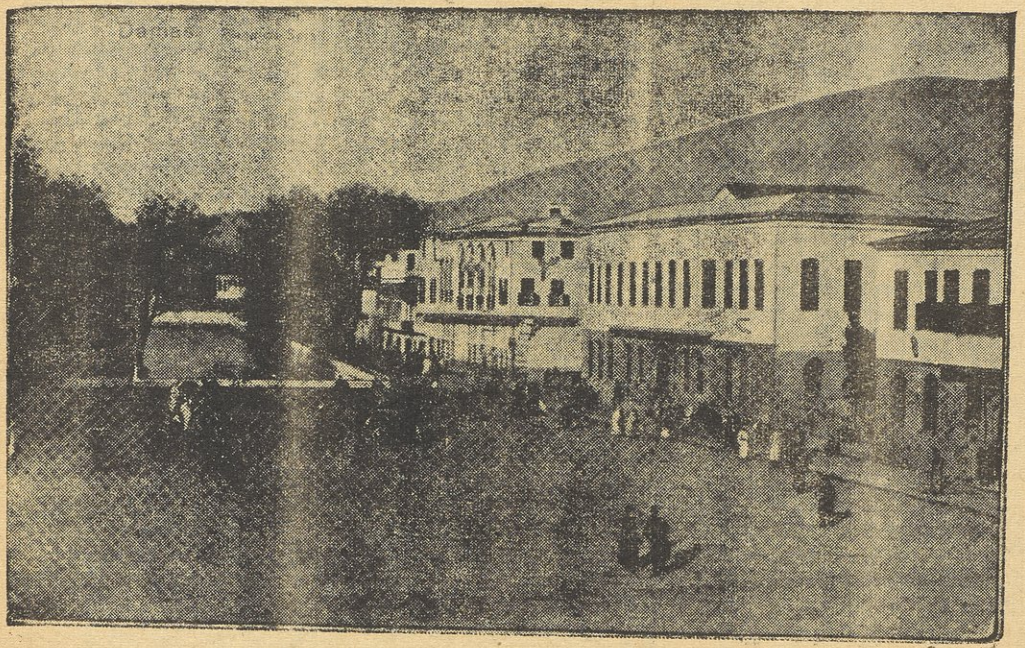

١ – بناية البرق والبريد ٢ – بناية العدلية السابقة ٣ – اوتيل امبركا

اسطبلات وعلى طول حيطان الاسطبلات من الخارج (معالف) لربط الدواب في الصيف ويسمى (مصيف) وكانت هذه الخانات لحماية المسافرين من الاشقياء وقطاع الطرق لايدفعون اجراً عن المبيت فيها . هـــذا في الخانات الواقعة خارج المدن ، وتكون هذه الخانات مبنية بالحجر والجص وهي اقرب الى الحصون والقلاع منها الى الدور . يبيت المسافر في الدور الأعلا ويضع الحيوانات في الدور الأسفل .

***

خانات المدن :

خانات المدن أي التي تبنى في داخل المدينة هي على قسمين : احدهما خان التجارة والثاني خان المسافرين .

فخان المسافرين يؤجره أصحابه الى اناس مخصوصين بادارة مصلحة الفنادق فيأخذون من المسافرين أجر المبيت والأجور تختلف حسب الزمان والمكان وعلى كل كانت الاجور طفيفة يتحملها كل انسان والغرف كان منها المفروش برياش بسيطة ومنها العاري من الفرش . والغريب الذي يبيت بالخان لايكون له في البلدة التي ينزلها من يعرفه ، أما من له أدنى معرفة بأي شخص كان فانه يذهب ويحل ضيفاً في داره . ولم يزل الى الآن بعض الخانات في دمشق ينزلها أهل القرى الذين يأمون دمشق للبيع والشراء .

***

خانات التجارة :

والقسم الثاني خانات التجارة المعروفة لدى بعض الأهلين اليوم ولم تزل على حالها كما كانت قبل عدة قرون ولا بأس من ذكرها ليطلع عليها القراء .

كانت البلاد قديماً على اختلاف العصور وفي اكثر الأوقات مرتعاً

للأشقياء والزعران، والتجار غير امينين على اموالهم ولذلك اقيمت الخانات التجارية على نسق خانات الفنادق التي مر ذكرها وهي من دورين ايضاً وفي الأســـتانة خانات تجارية من ثلاثة ادوار تكون غرفها حوانيت (دكاكين) للتجار والغرف صغيرة بطبيعة الحال يستعملها التاجر مكتباً يضع فيها البضائع الثمينة خفيفة الحمل كالحرير وانواع الملابس على اختلاف

خان من خانات المسافرين الطابق العلوي لنوم المسافرين والطابق الارضي لربط الدواب

اشكالها . أما بضائع (مال القبان) يعني الأرز والسكر والسمن والبن والشاي وامثالها فتوضع في صحن الخان ولكل خان بواب يستأجر ساحة الخان ويأخذ أجره من المشترين بحيث يدفع المشتري الى البواب عنـــد اخراج البضاعة عن كل وحدة مبلغاً طفيفاً ، مثلا في الزمن الحميدي كان

يؤخذ عن الوحدة يعنى كيس ارز أو بن أو غيره وعن (القفة) وعن « قصديرة » السمن (تنكة) متليكاً وهو ربع قرش عثماني صاغ وسيأتي بحث العملة العثمانية . ثم ارتفعت اجرة الوحدة الى نصف قرش ثم الى قرش ثم الى نصف البشلك أي قرش ونصف وفي حوالي سنة ٩٣٠ - ٩٣٥ ميلادي أصبح التجار البائمون يدفعون للبواب اجراً مقطوعاً وعدل عن الاخذ من الشاري ولكل بواب خان مساعدان احدهما يسمى الناطور ووظيفته حراسة الأرزاق ليلا يبيت داخل الخان وفي الصباح يسلم البواب مقابل اجر يتفق والحـــالة الحاضرة . أما المساعد الثاني فكان يقوم بكنس وتنظيم باحة الخان والمحافظة على نظافة الباحة دائماً مقابل اجر معين .

***

حالة التجار آنذاك :

الذي اعرفه واتخطره جيداً ان بعض كبار التجار كان لهم امام ابواب غرفهم تخوت صغيرة يجلسون عليها يحيط بهـا بعض المقاعد من كراسي القش العالية والواطئة يجلس عليها المشترون في اوقات الفراغ تكون كمجالس سمر يتحدثون فيهـا مختلف الأحاديث الفكاهية ويقضون ساعات هنيئة لم نعد نرى مثلها منذ طغيان المادة على المجتمع .

***

أخلاق التجار :

كان التجار في تلك الأيام لهم حالة خاصة واكثرهم لايخرج عن عرف طبقته فـــلم يكن لتاجر عربة ركوب خصوصية من العربات التي كانت مختصة بطبقة الذوات من الزراع ، اما التجـار الذين يضطرون للركوب فمنهم اصحاب الطواحين وتجار الحبوب فيركبون

الرهاوين(١) كما ان البعض يركبون البغال والبعض لهم عناية خاصة بالخيول الاصايل . والبعض الآخر يركبون الحمير القبرصية البيضاء وحمير الصُلَيب والذين ليس لهم حيوان المركوب يستأجرون الحمير من سوق الخيل . والركوب في القطار كان لعموم التجار تقريباً في الدرجة الثالثة والتاجر الذي يضطر لركوب عربة الأجرة كان يواري وجهه ويستحي

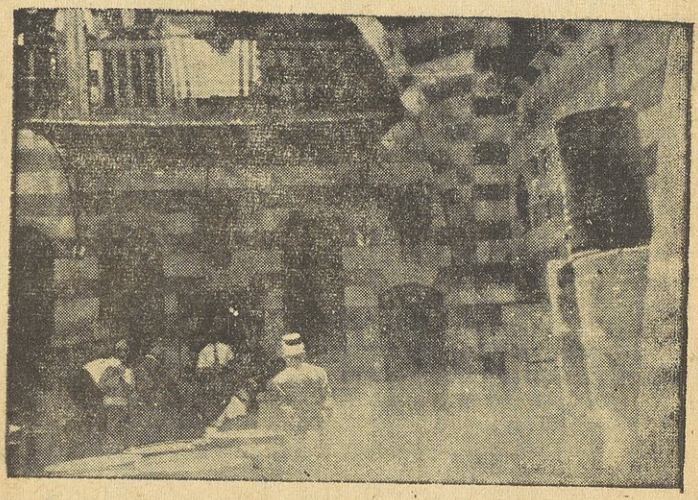

احدى غرف التجار في الخانات ، وصاحبها يوزع الدراهم على الفقراء يوم الخميس والبواب واقف في منتصف الخان

بنفسه اذا رآه احد من الناس راكباً في العربة . هذا كان من التجار المتوسطين . أما كبار التجار الذين لهم املاك عظيمة ومزارع فكانوا يقتنون العربات والخيول ومنهم من يحمل رتب السلطان ويشترك بالاحتفالات

(١) الرهوان كلمة فارسية اصلها راهوان نوع من الخيول سريع السير له مشية خاصة لايمكن لبقية الخيول مسايرته في الطريق نظراً لسرعته .

الرسمية في الأعياد ومواسم الحج فيرتدون لباس « القصب ـ الصرما » ويمشون في (الألاي) وهو ماسيأتي ذكره في غير مكان من المذكرات .

وأكثر التجار كانوا يتاجرون بثلث اموالهم يضعونه رأس مال والثلث الثاني يبقونه احتياطاً خوفاً من الأزمات والثلث الثالث يشترون به املاكاً تكون لهم ذخراً يحتفظون بها للأيام السوداء ، والتاجر الذي يشتغل بثلث أو نصف ماله يكون بعيداً جداً عن الأفلاس بعكس تجار اليوم خصوصاً الشبان منهم الذين يشتغلون بأضعاف رأس مالهم فيكونون عرضة للطوارىء والأزمات . وكم رأينا تاجراً اشتغل بأضعاف رأس ماله فكُسر وجلب الشقاء أو الأفلاس لعشرات من التجار الذين يستدين منهم البضائع .

ثم من المستحيل ان يستغل تاجر صنفاً معيناً بغير انواع تجارته التي تخصص بها بعكس اليوم والأختصاص في أي عمل كان هو أس النجاح .

***

الحزّامون :

الحزّام هو الذي يحزم البضائع للتجار مقابل أجر على الوحدة ، وتسمى كل وحدة من البضائع المحزومة « فردة » وحزم البضائع صنعة قائمة بذاتها ولكل خان من الخانات التجارية حزّامون خصوصيون لايمكن ان يأتي غيرهم الى خانهم والاجرة تؤخذ على الفردة وتختلف باختلاف الزمان ، والفردة التي يحزمها الحزّام « الأسطه » أي المعلم لايمكن ان تفك في الطريق مهما كانت مسافة السفر طويلة . وكما ان لكل خان حزّامون كذلك فان لكل خان حمالين خصوصيين ايضاً لايمكن لغيرهم ان يدخل الى خانهم ، وخانات التجار محصورة في دمشق بين سوق الطويل

وهو الذي يسمى سوق مدحت باشا وبين سوق الحرير وسوق البزورية وخانات دمشق المعروفة هي :

اسم الخان	السوق الذي فيه الخان
خان اسعد باشا	البزورية
« العامود	«
« الصدرانيّة	«
« الصوف	«
« الدكة	مدحت باشا
« سليمان باشا ويسمى الخماصنه	« «
« جقمق	« «
« الزيت كان قديماً للزيت واليوم لمال الفاتورة	مدحت باشا
« الحرير	سوق الحرير
« الزعفرنجي	« «
« الحرمين وكانوا يسمونه سوق (الجواري)	
« الكمرك	سوق النسوان
« باب البريد	سوق باب البريد
« الزيت ولم يزل للزيت	سوق العتيق .
« الدبس	« «

خان البطيخ اصبح كاراجاً

وقد كانت مراكز أعظم تجارة دمشق في سوق الطويل وخاناته وهذا السوق يمتد من باب الجابية الى مأذنة الشحم(١) والحوانيت على

---

(١) سوف ابحث عن هذا السوق وتاريخ تأسيسه في الأعداد الآتية .

جانبيه وكان ضيقاً جداً وعندما تولى مدحت باشا ولاية الشام امر باخلاء السوق لتوسيعه فلم يقبل التجار فأمر بحرقه فحرقوه بالفعل وبمدة قريبة عمّره اصحابه واصبح كما هو عليه اليوم . ولم يكن في زمن تلمذتي في مكتب عنبر من تجار هذا السوق من يعرف الكتابة والقراءة الا افراداً قلائل وكان لهذا السوق بعض الكتاب من المسيحيين واليهود ومن المسلمين رجل واحد يسمى الشيخ حسن الدسوقي يحملون في زنارهم

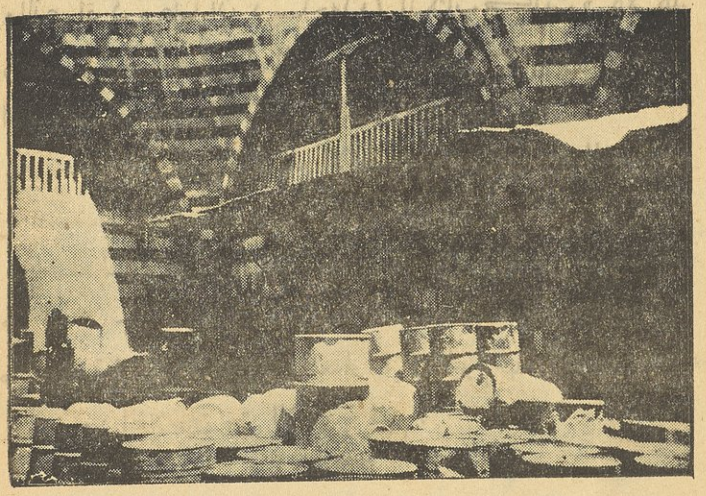

خان من خانات التجارة ، والباحة ملأى بالبضائع

دواة من نحاس لها ذنب طويل يضعون في الذنب أقلاماً من القصب وهو اليراع يبريه الكاتب بموسى رفيعة أو « بقلم تراش » ، وهو نوع من السكاكين مخصوص لبري الاقلام وهؤلاء الكتاب يزورون التجار مرة او مرتين في الأسبوع ويكتبون لهم المبيعات في دفاترهم وكنا كلما نمر في طريقنا الى المدرسة الواقعة في حي الخراب يناديني بعض التجار لقيد

بعض النفدات في ورقة « تسمى طيارة » يحفظونها الى ان يأتي الكاتب فتكون كمفكرة لهم وكانوا ينادون التلميذ بقولهم يا ابني الله يفتح عليك « خط لي هل خطين » فكنا نساعدهم . واذكر ان ثمن ذراع الخام من معمولات دمشق كان ثلاث « نحاسات » وهي تساوي سبع بارات ونصف من القرش ومجموع بارات القرش اربعون بارة .

***

جناب الاكرم :

والذي اذكره تماماً ان ديباجة(١) الكتاب كانت « كالاكليشة المطبوعة » لم ازل احفظها الى اليوم ، كان يكتبها جميع من كتب رسالة من العلماء الى الموظفين الى الطلاب الى الاهلين الى التجار .

وهي جناب الأكرم والمقام الافخم حميد المزايا كريم الشيم حضرة اخونا السيد... افندي المحترم دام بقاه آمين .

من بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته والسؤال عن شريف الخاطر العاطر انه ان جاز سؤالكم عنا فانا لله الحمد بالف خير وعافية الخ ... هذه الديباجة لم يزل الكثيرون يستعملونها الى اليوم في مكاتباتهم خصوصاً المزارعين من الفلاحين حتى الأفندية منهم .

***

دام بقاه :

بمناسبة هذه الديباجة وقعت حادثة لطيفة لا بأس من ذكرها هنا كان لأحد التجار عميل في القاهرة دامت معاملته مع الدمشقي مدة ثلاثين سنة وهما يتكاتبان دون ان يعرف احدهما الآخر واجتمع العميلان بعد ذلك

---

(١) ديباجة الكتاب فاتحته .

وتعارفا وبعد التعارف سأل المصري الدمشقي ارجوك ان « تفش قلبي » بتعريفي عن معنى الجملة التي تأتي منذ ثلاثين سنة في آخر اول سطر من كل كتاب ترسله لي وهي « دم بقا » معناها « ايه » قال الدمشقي هذه الجملة ليست « دم بقا » بل هي دام بقاه أي بقاء الشخص المرسل اليه الكتاب أي دام بقاؤك انت ايها العميل المحترم ونظراً للسرعة في الكتابة وتكرر الديباجة كل مرة جعلها معروفة عند الجميع وتكتب بهذا الشكل وهنا صاح المصري « الله الله ياشيخ رّيحت بالي ، الله يريّح بالك ». وقد هدأت فكري الذي ظل يضطرب مدة ثلاثين سنة لفهم الجملة وانا استحي ان اسألك عنها في كتاب ... ا.هـ. هـــذه حادثة واقعة رواها لي السيد ابو درويش سويد المشهور .

***

التحارير :

كان للتجار الدمشقيين بل السوريين عادة غير مستحسنة وهي ارسال التحارير الى عملائهم صحبة المسافرين وكان البعض يذهب الى محطة البرامكة ليرسل تحريراً الى عميله توفيراً لأجرة البريد التي ما كانت تزيد عن ربع الغرش (متليك)ومن له عملاء كثيرون في بلدة واحدة يضع لهم عدة تحارير مكتوبة على ورق رقيق جداً في مظروف واحد لايزيد وزن مجموعها عن وزن كتاب واحد يسطر على ورق عادي والعميل الذي يرسَل المظروف باسمه يبعث كل تحرير الى صاحبه ، او يضع التحارير بمظاريف عديدة ويسلمها الى احد اصدقائه من ركاب القطار لايصالها الى اصحابها وتصور ايها القارىء ماذا يتحمل حامل هذه التحارير من المشقة لأجل ايصالها

الى أصحابها خصوصاً في بلدة غير بلدته والأنكي اذا كانت هذه السفرة اول سفراته اليها .

***

الكتاب الخصوصيون :

كان لكبار التجار كآل القوتلي ، والحلبوني والليموني وديات والحفار والرّباط وغيرهم كتّاب خصوصيون وقليل من اولاد التجار من كان يحسن مسك الدفاتر وقد بدأ بعضهم بتعليم اولادهم اللغة الأفرنسية في مدرسة الآباء العازاريين فكان اول من تخرجوا من هذه المدرسة السيد مسلم السيوفي والسيد رشدي بن السيد خليل السمان رحمه الله وكانوا من ألمع شبان التجار في ذلك الزمان والسادة رشدي السكري وعبده الصبان من المسلمين ايضاً .

***

القومسيونجية(١) والمرابون

أما القومسيونجية فلم يكن بين ابناء المسلمين منهم فرد واحد بل الجميع من المسيحيين ، كذلك يمكننا القول عن الصرافين والمرابين واكثرهم يهود على انه كان بعض المسلمين يقومون بذلك ايضاً وبعد الاحتلال الأفرنسي كثر عدد المسلمين حتى اصبح سوق البورصة اليوم بيدهم .

***

لباس التجار :

لباس الرأس الطربوش و « اللفة الأغباني » وكان لباسهم

---

(١) القومسيونجي هو الوسيط بين التاجر واصحاب المعامل في اوربا يتقاضى من البائع بالمائة شيئاً معلوماً « عمولة » عن المبيعات .

الخاص هو الصاية الحريرية « والساكو » ولم يزل بعضهم يلبسها ويسمى اليوم (شامي عتيق) .وكان الحرير اصلياً لانباتياً والحرير النباتي لم تعرفه بلادنا الا عقب حرب ١٩١٤ وكان الـ (ساكو) من الجوخ الانكليزي المتين يلبسه الرجل عدة سنوات مع الصاية . اما التجار الصغار وابناؤهم فكانوا يلبسون (الديمة) والجوخ العربي واذا تعدى احدهم طوره ولبس او لبّس ابنه لباس طبقة أعلى من طبقته يكون عرضة للتحقير والتهكم . وكثيراً ماسمعنا افندي المحلة قد جلب احد التجار الأصناف ووبخه على تعديه طوره بارتداء لباس أعلى من لباس طبقته وأجبره على قلعه والرجوع الى لباسه الأصلي وعلى هذا النحو كانت جميع الطبقات سعيدة في حياتها مسرورة في اجتماعاتها فرحة في معيشتها بعكس اليوم حيث نسمع الشكوى من كل جانب ومن كل طبقة والسبب هو عدم معرفة الانسان حده والوقوف عنده وانا نرى اليوم افقر الفقراء يريد ان يقلد في لباسه ومعيشته ابن التاجر الكبير وامرأة الصانع تريد ان تجاري امرأة الوزير وبذا ظهر عدم الرضا بين الناس وارتفعت الشكوى لطف الله بعباده .

***

امانة التجار :

كانت اكثرية التجار المطلقة امينة على مايستودعها الناس صادقة في معاملاتها والتاجر كان يحافظ على كلمته فمن باع لايرجع ومن اشترى لايقلب مها وقع هناك من الخسائر وكان البيع والشراء في الحالات العادية وبالصفقات المتوسطة والصغيرة بالقول فقط ولم تعرف معاملات الكتابة في البيع والشراء الا بالصفقات الكبيرة .

ومنذ عهد قريب قال لي احد اصدقائي واشار بيده الى سوق

مدحت باشا قبل خمسين سنة من هذا التاريخ لم يكن في هذا السوق الا تاجر واحد قليل الامانة يعرفه التجار ويتحاشون معاملته فقلت واليوم فأخذ بطرف ردائه ونفضه قائلا الله اعلم .

اما الامانة التي ذكرتها آنفاً فكانت عامة وكم تاجر ارسل مع عميل له الوف الليرات الذهبية دون وصل وكان العميل يغيب الأشهر والسنين ويعود بالمال مع الربح او بالبضائع والتجارة دون ان يمضي ورقة واحدة واليوم من شاء فليمر على كاتب العدل ويطلع على المعاملات التي تجري بين التجار فيعرف منها الفرق بين الأمس واليوم .

***

الامانات الصغيرة :

من عجائب تلك الأيام ان الناس كانوا يأتمنون بعضهم عن غير معرفة فمتى قيل هـــذا تاجر فرضت فيه الأمانة ولذلك كان البعض يرسل امانة الى عميله في بيروت او حلب او اي بلدة مع راكب لايعرفه وكثيراً ماتكون الامانة مئات من الليرات العثمانية. يكون الراكب جالساً في عربة القطار قبل تحركه من المحطة فيأتيه احدهم راجياً منه ايصال امانة صرة دراهم يعطيه اياها دون عد فيتحمل هذا المسكين همها الى ان يوصلها الى صاحبها وقد حدث حادث طريف لابأس من ذكره هنا وهو انه

***

طالب افندي الحلبوني :

كان في دمشق احد كبار التجـار من اسرة الحلبوني الكريمة وهي

اسرة من اشهر اسر دمشق ورجالها كانوا من اكبر تجارها سافر كبيرها الى الآستانة في تجارة واعطاه احد التجـــار امانة الى عميل له صرة فيها مائتا ليرة عثمانية فاخذ الصرة ولما وصل الى الآستانة دفعهـــا الى المرسلة اليه فعدهـــا واذا بها مائتا ليرة فعاد الى طـالب افندي وقال له ان الامانة ناقصة مائة ليرة لان عميلي يقول في كتابه انها ثلاثمائة فقال الحلبوني نعم احتجت اليها فتصرفت بها في الطريق واليك هي واعطاه مائة ليرة وبعد بضعة ايام عاد الرجل الى طالب افندي معتذراً واعاد المائة ليرة وقال كان عميلي كتب لي انه ارسل المبلغ ثلاثمائة ليرة ولكنه عاد فاخبرني انه لم يتمكن من ارساله باجمعه فارسل مائتي ليرة فقط ولذلك فاني اعتذر عن هذا الخطأ ولكن ارجوك ان تعرفني ماهو سبب دفعك المبلغ من جيبك قال الحلبوني لو قلت لك ان المبلغ مائتان فقط لما قنعت وكنت نشرت الخبر بين الناس والى ان يأتي الخبر الصحيح يكون التجار سمعوا بهذه الحادثة ومن الصعب اقناعهم ببراءة ذمتي بعد ذلك مهما كان الأمر ولذا فاني احببت ان اشتري سمعتي بهذا المبلغ . هذه حادثة واقعة فتأمل اخلاق التجار آنذاك رحمهم الله .

***

محكمة التجارة :

من عجائب الدهر ان الحكومة العثمانية أسست محكمة تجارة في دمشق وبقيت ثلاث سنوات مفتحة الأبواب لم يدخلها شاك فتأمل .

السفر من دمشق

قلت اني ذهبت الى « اوتيل فيكتوريا » وقضيت تلك الليلة فيه وصحوت في الساعة الرابعة وارتديت ملابسي بسرعة وطرق الندل « الكرسون » الباب ليوقظني حسب طلبي في المساء فوجدني جاهزاً فأحضر لي « عربة » اجرة ونقل امتعتي اليها وكان الثلج يتساقط والبرد شديداً والشوارع مظلمة وليس فيها مصباح مضاء وكان النور الكهربائي مقطوعاً من التكية كما فهمت من شرطي المحطة بعد وصولي وكانت شوارع دمشق في تلك الأيام لا تفرق عن شوارع القرى ولم تكن البلدية تعتني الا بالشوارع التي تحيط بدائرة الحكومة ، اما بقية المحلات خصوصاً النائية كمحلة الميدان وقبر عاتكة وامثالها فانها كانت مهملة يخجل الانسان ان يمر فيها من الوحول . وبعد ساعة من خروجنا وصلنا الى محطة القدم ويعلم الله ماذا لقيت والحوذي من البرد في هذه المدة القليلة وكان وصولنا قبل وقت حركة القطار بمدة فوجدت الكثيرين من الركاب ينتظرون القطار ولم تكن المحطة بعد معبّدة الطرقات وليس فيها رواق يمنع الأمطار عن المنتظرين وبقينا في المحطة والمظلات في ايدينا تحمينا من الثلوج . وفي الساعة السادسة تماماً تحرك القطار الى حيفا وسبب سفري الى حيفا ان طريق بيروت كان مسدوداً من الثلوج وبقي اربعين يوماً مسدوداً بين بيروت ودمشق .

سار القطار بنا وكدنا نموت من البرد لأن احد الواح الزجاج مكسور وليس في العربات مدافىء عامة « شوفاج سنترال » وكانت عربات الركوب قليلة والركاب كثيرين ولم اتمكن من ايجاد محل وقد تحايلنا على

النافذة المكسورة وسددناها ببعض الأمتعة حتى منعنا عنا دخول الهواء المثلوج والغريب ان ادارة السكة كانت بأيدي الحكومة لأن خط حيفا والمدينة هو خط حكومي (مؤمم) فاذا شكونا امرنا لايسمع احد شكوانا لأن ادارة الخط ادارة حكومية وتحملنا برادة هذه السفرة الى حيفا بكل نفس ذائقة الموت والخط الحجازي مصلحة خاصة سيأتي لها بحث

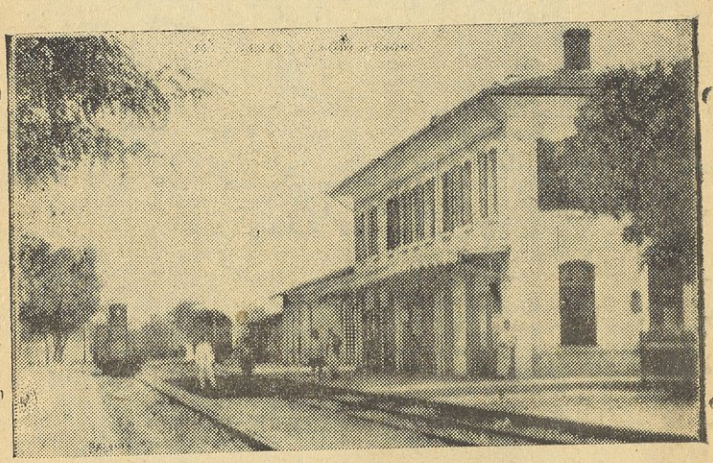

محطة القدم للخط الحجازي يوم سفري الى اوربا

خاص فيما بعد وكانت مناظر الثلوج المتساقطة على الحقول والجبال رائعة جداً ولما وصلنا الى جسر المقارن انقطع الثلج وفي المســـاء وصلنا الى مدينة حيفا .

***

حيفا :

بلدة جميلة من ألطف البـــلاد العثمانية الساحلية ومناظرها

بديعة وجبل الكرمل يسلب اللب وهي بلدة زراعية تجارية ولكنها كانت متأخرة كبقية البلاد العثمانية وشوارعها ضيقة فيها من الوحول مايشوه جمالها ويزيل بهجتها وللأسف لم أجد فيها فندقاً الا فندق « يعقوب ليفي » ولم تكن الحالة بيننا وبين اليهود متوترة وكنا نعاملهم كبقية العناصر العثمانية وبعد ان استرحت قليلا خرجت الى السوق وتناولت طعامي في دكان شوا ، دكان قذرة على (طاولة) من الخشب (مزفته) من الدهن الذي عليها وجعلت ادور في البلدة لقضاء السهرة فلم اجد مقهى لائقاً بالمسافرين ووجدت مسرحاً يضربون على بابه بآلات موسيقية عسكرية « كلارنيت وبوكلي وطبل وترامبت » فدخلت مع الداخلين ودفعت الاجرة نصف بشلك وكان اللاعبون جوقة موسيقية تمثيلية مصرية ولكن الجميع كانوا من الرجال وبعد ان اسمعونا شيئاً من الغناء خرجت راقصة ممشوقة القوام واجادت الرقص واحسنته أيما احسان مما استلفت نظر الجميع وبعد نزول الستارة خرجت تلم الاكرامية (البالصة) فصار الناس يداعبونها واذا بها شاب صوته عريض يقلد النساء بالرقص على رأسه شعر مستعار ، وقد فهمت ان ظهور الراقصات على المسرح لايجوز وهو ممنوع بأمر الفائمقام ومسموح للرجال تقليد النساء وكان هذا في البلاد العثمانية معروفاً مشهوراً والأتراك يسمون الرجل الذي يمثل دور البنات « زينه » ثم لعب الممثلون دوراً هزلياً ختموا فيه الليلة وعدت الى الفندق ولما صحوت في الصباح الباكر ذهبت اولاً الى الميناء وسألت عن البواخر التي تسافر ذلك اليوم الى الاسكندرية فأخبروني ان احدى بواخر الشركة الخديوية المسماة « قصير » ستصل العصر الى حيفا وتقلع منها في الساعة الرابعة عربية ليلا أي في الساعة العاشرة زوالية مساء فعدت الى

البلد وأكملت ماينقصني من الحوائج خصوصاً أدوات طبخ الطعام التي حملتها من بلادي الى اوربا وعادت معي الى دمشق دون ان احتاج اليها الا في طريقنا من فينا الى الآستانة عند رجوعنا كما سيجيء ذلك فيما بعد. ثم ذكرت لأحدهم مالاقيت الأمس من العناء في تناول طعام العشاء فقال أصلحك الله ان في البلدة مطعماً نفيساً يسمى « مطعم الكازار » وهو مطعم نظيف في موقع جميل يطل على البحر حسن الرياش وخدامه آية في النظافة مما غيّر فكري في حيفا فذهبت الى الكازار ورأيته حقيقة كما قال الرجل فتناولت الطعام وخرجت افتش عن محل (عبد الله افندي مخلص) وأنا ألوم نفسي لتسرعي بالحكم على مطاعم حيفا بالأمس وقلت على المرء ان لايحكم قبل ان يحقق (وعبد الله مخلص) من اصدقاء محمد بك كرد علي الذين يعتمد عليهم كل الاعتماد وهو من أدباء العرب وعلمائهم وكنت احمل اليه كتاباً من صديقه كرد علي يوصيه بي خيراً وارشدوني اليه في الميناء وكان مديراً « لعنبر » مستودع السكة الحجازية فلما قرأ الكتاب رحب بي ترحيباً قلبيا وأجلسني الى جانبه واحضر لي القهوة واخبرته خبري فجعل

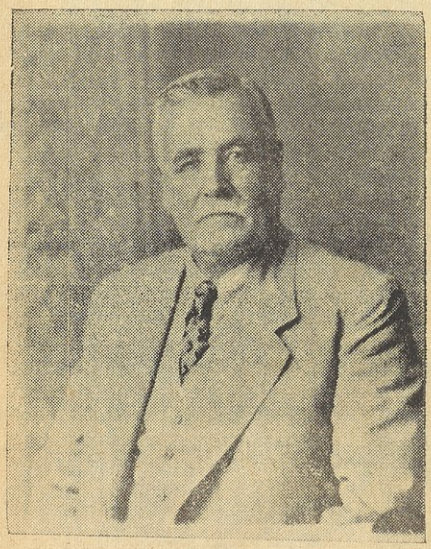

الاستاذ عبد الله افندي مخلص

يؤانسني ويشجعني على المضي في طريق العلم واستعلم عن قدوم الباخرة « القُصير» وعرف انها ستصل العصر فأرسل بصحبتي احد الكتاب المدعو رضا افندي وسرنا الى « الآجنته الخديوية » مركز فرع الشركة في حيفا لقطع تذكرة سفر فتمنع الموظف الانكليزي عن اعطائي التذكرة لأني من دمشق وكانت الحكومة المصرية لاتقبل دخول احد الشاميين الى القطر المصري خوفاً من ان يكون الشامي آتياً من الحجاز وكانت بلاد الحجاز موبوءة في ذلك العام وكان الخوف من دخول « جراثيم الكوليرا » الى القطر وعدت الى عبد الله افندي مخلص فقام وغاب مدة قليلة وعاد ومعه اوراق رسمية تثبت اني من موظفي الخط الحجازي ومن الذين لم يذهبوا الى الحجاز في هذه السنة .

وبناء على هذه الأوراق اخذت تذكرة سفر مع خصم ٤٠ ٪ لأني من مستخدمي سكة الحجاز .

***

سامي باشا مردم بك :

وبينما انا في الميناء بين « العنبر » و « الآجنته » واذ بسامي باشا مردم بك وهو من وجوه دمشق مع ابن عمه راشد باشا و بعض الدمشقيين مثل صادق افندي جبري والدكتور سليم افندي صبري وغيرهم من التجار الذين فاتتني اسماؤهم عرفوا بسفري الى اوربا ولا ادري من اين فهموا اني ذاهب دون اذن والدي فتجمهروا علي وجعلوا ينصحونني بالعودة لأخذ اذن والدي

سامي باشا مردم بك

وبعدها السافر واصروا علي بذلك ولكني لم « أخز » الشيطان على رأيهم وبقيت مصراً على السفر وهكذا كان .

***

في طريقنا الى الباخرة قصير :

في الساعة الرابعة وصلت الباخرة وألقت مراسيها خارج الميناء ونزل الركاب بالرغم عن هياج البحر . وكان بين الركاب بعض الدمشقيين الذين ركبوا من بيروت اخبروني ان والدي وصل اليها عائداً من الاستانه . (اسطنبول) وان الطريق بين دمشق وبيروت سدته الثلوج وبينما نحن في هذا الحديث واذ بقارب عليه علم يضطرب في البحر وتتلاعب به الامواج ينقلب بمن فيه في منتصف الطريق بين الميناء والباخرة وبادر الملاحون لانقاذ الغرقى فانقذوهم جميعاً وكان هذا القارب قارب البريد الروسي والعلم الذي كان يرفعه هو العلم الروسي ، جرى هذا امام الناس فاحجم الكثيرون عن السفر خوفاً من هياج البحر كما انهم لم يتمكنوا من تحميل الحمضيات او صناديق التجارة لهياج البحر وجاء عبد الله افندي مخاص الى الميناء وبواسطته تمكنت من ايجاد ملاحين يوصلوني الى الباخرة وكانت اجرة الراكب في مثل هذه الاحوال ليرة افرنسية ذهبية وملاحو حيفا مشهورون بهذه الصنعة يفوقون البيروتيين واليافاويين بالمهارة وشدة البأس والقوة وعندما انزلنا الامتعة الى القارب وقفت اودع الدمشقيين وقد اعاد الجميع علي الكرة يرجونني تأخير سفري الى ان يهدأ البحر فلم اقبل خوفا من ان يحضر احد من دمشق او يأتي تلغراف الى الحكومة بلزوم منعي عن السفر فيتأخر سفري وقلت : لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا . وودعت الجماعة وركبت القارب وكان فيه سبعة ملاحين اكترهم رؤساء

وأحد الرؤســـاء نادى ابنه فجاء وركب في المؤخرة لأدارة الدفة وسار بنا القارب . قبل غروب الشمس وجميع الناس الواقفين على رصيف الميناء جعلوا يدعون الى الله . وكلما جـــذّف الملاحون وتقدموا خمسة امتار يأتي الموج ويردنا اربعة امتار الى الوراء وعلى الرغم من اني لم اركب البحر في عمري لم اخف ولم يصبني الدوّار وكنت اشجّع الملـــاحين

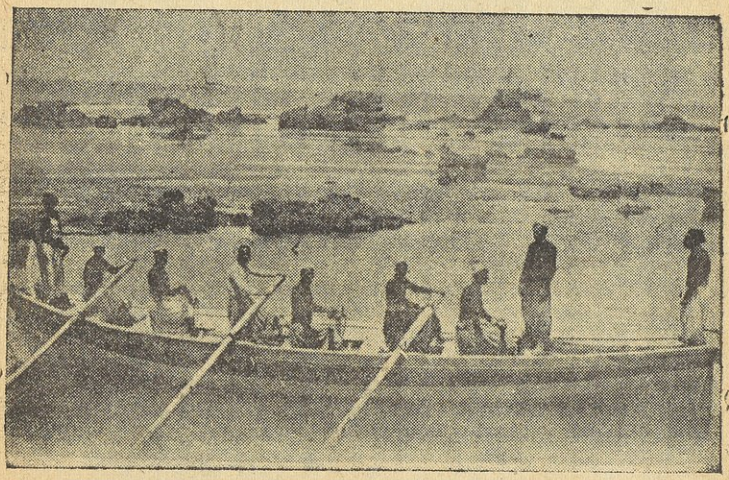

احد القوارب التي كانت تنقل الركاب من الميناء الى البواخر
قبل الحرب العامة الاولى

واحدثهم وهم يضحكون كأنهم ذاهبون الى منتزه وقد بح صوتي من شدة الصياح لان هدير الامواج كان يذهب بالصوت ادراج الرياح ودخلت العتمة وكثر الضباب وبعدنا عن البلدة ولم يعد يظهر لنا الا نور مصابيحها وكانت انوار الباخرة تظهر لنا من بعد وبينما نحن سائرون باتجاه الباخرة واذا بالقارب يتحول سيره وينحرف قليلا عن اتجاهه فنبهت ابن الريس

الى ذلك فقال لاتخف نحن ذاهبون الى مستودع هنا في البحر لنأخذ بعض الملاحين من هناك الى البلدة وبدلا من ان نأخذهم في الرجعة نأخذهم الآن ليساعدونا بالتجذيف فقنعت وصرنا نمر بقوارب مربوطة بالصخور فسألت عنها فقالوا ان الملاحين يربطون قواربهم قرب مستودع الكلس او الفحم (لم اعد اذكر) خوفاً عليهـــا من الاصطدام بالصخور اذا هم ابقوها في الشاطيء لان ميناء حيفا كانت تخيف البحارة وليست مثل ميناء الاسكندرية أو بور سعيد مثلا .

وبقينا نسير مدة غير قليلة بين الصخور الى ان وصلنا الى المستودع وهو قائم في البحر على صخور مرتفعة عدة امتار عن سطح البحر واصطدم القارب بجانب المستودع فجعل ابن الريّس يشتم بعبـــارات بذيئة لم اسمع مثلها في عمري وخاف الجميع من الغرق وبعد قليل سمعنا لغطاً فنادى احد الملاحين فاجابوه فتقدمنا بحذر من محلهم والبحّارة يتحاشون اصطدام القارب بصخرة او بجانب المستودع الى ان وصلنا الى المستودع فنزل سبعة اشخاص الى القارب وجعل يجذف كل اثنين بمجذاف وعدنا الى البحر واتجهنا نحو الباخرة ولولا اتساع القارب ومهارة الملاحين لما وصلنا سالمين ولم نكد نقترب من الباخرة حتى سمعنا سلاسل السلم وهو يرتفع فجعلوا يصيحون باعلى اصواتهم على الطائفة الذين عرفوا بوصولنا فاعادوا السلم وصعدت الى الباخرة واصعدوا الحقائب والاغراض واردت اعطاءهم الأجرة فأبوا اكراماً لعبد الله افندي ولأني ذاهب في طلب العلم فشكرتهم ونقدت الذى اصعد حقائبي ريالاً مجيدياً بخشيشاً فتمنع ايضاً ولكني اقسمت فأخذه وودعتهم وعادوا بالسلامة الى حيفا .

ورؤساء الملاحين الذين رافقوني في تلك الليلة هم السادة : الريس محمود

رنّو ، الريس احمد حسن رنّو ، السيد اسعد ابو زيد ، السيد احمد ابو زيد ، السيد حسن الحاج ابراهيم ، السيد محمد الحاج ابراهيم فلهم الشكر اولاً وآخراً على هذا المعروف الذي يجب ان يسطر لهم في هذه المذكرات ورحم الله المتنبي حيث يقول :

لاخيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق ان لم تسعد الحال

فالى الاحياء منهم شكري والى من قضى منهم الرحمة والغفران .

في الساعة السابعة والنصف زوالية من ذلك اليوم اقلعت بنا الباخرة من حيفا وهي باخرة صغيرة ليس فيها شيء من الحمولة وما كدنا نبحر حتى اشتد البحر وهاج وجعل يلعب بالباخرة كما تلعب الريح بالريشة وقد تحمل الركاب حتى بعض البحارة منهم آلاماً شديدة من الدوار وذهب كل راكب الى فراشه وذهبت الى « قمرتي » (١) ونمت الى الصباح نوماً متقطعاً حيث صحوت في الساعة السابعة من يوم الاثنين ٢٠ شباط ١٩١١ وصعدت الى الظهر فوجدت الباخرة متجهة الى يافا والمدينة قريبة منا وبعد ساعة تقريباً ربطت الباخرة بعيداً عن الميناء وكان البحر ساكنا وقال الملاحون ان البحر منذ عشرين يوماً لم يسكن ولم تقف باخرة في يافا لشدة هياجه وهذه اول باخرة تقف منذ عشرين يوماً فحمدنا الله واقبل الركاب والتجار واشتغل الملاحون بنقل صناديق البرتقال وما زالو يعبئون الباخرة الى ان امتلأت عنابرها وامتلأ الظهر حتى وضعوا صناديق البرتقال في جوانب الممرات مما ساعد على تحمل الباخرة لهياج البحر لأنها لما كانت فارغة كانت العواصف تلعب بها اما بعد الحمولة فكان البحر بالرغم عن هياجه اقل تأثيراً بعدا عبتها .

---

(١) القمرة ، الغرفة في البواخر تسمى قمرة

مدينة يافا :

مما يذكر ان الباعة المتجولين صعدوا من القوارب الى الباخرة يحملون بضائع مختلفة اكثرها من مصنوعات القدس وضواحيها وهي من خشب محفور واصداف مرصوفة ومسابح وصلبان وغير ذلك من المصنوعات التي يعدها متدينو المسيحيين من الآثار المقدسة وركب في الباخرة كثيرون من زوار القدس من الاوربيين الذين كانوا منقطعين في القدس منذ عشرين يوما للنوء الشديد الذي حصل في ذلك العام وفي الساعة التاسعة زواليه (١) اقلعت بنا الباخرة من يافا . وفي الساعة التاسعة من صباح الثلاثاء الواقع في ٢١/ شباط ١٩١١ ظهرت لنا مدينة بور سعيد المصرية.

***

مدينة بور سعيد :

في الساعة الواحدة بعـــد الظهر ربطت الباخرة في الميناء ونزل اكثر الركاب رأسا الى الرصيف دون استعمال القوارب ونزلت مع رفيق تعرفت عليه في الباخرة يدعى « كرياكو بك » وهو احد موظفي وزارة الزراعة في الاستانة ، اردنا التفرج على البلدة فحصلنا على رخصة من موظف جالس خلف منضدة من خشب وامامه حاجز من الخشب « كالدرابزين » اخذنا اليه حمال في صدره قطعة نحاس محفور فيها رقمه وكفلنا عند هذا الموظف باننا سنعود بعد الفرجة على البلدة وبعد ان تثبت الموظف من اننا لم نكن في الحجاز سمح لنا بالخروج فخرجنا من باب يحرسه رجل يسمونه (عسكري(٢)) اعطيته ورقة (العتاقة) التي اخذناها فسمح لنا بالمرور فخرجنا

---

(١) كان اهل دمشق وجميع العثمانيين يستعملون الساعات العربية في معرفة اوقاتها وقد اتبعت الوقت على الساعة الزوالية منذ ركوبي من حيفا فتنبه .

(٢) العسكر كلمة كان يستعملهـــا الاتراك للجنود فاذا قلت عسكر يعني الجيش والعسكري مفردها الجندي والمصريون لم يزالوا يستعملونها الى اليوم بهذا المعنى .

ودرنا في هذه البلدة اللطيفة التي اثّرت مناظرها بي تأثيراً كبيرا لاني لم أكن خرجت قبلا من دمشق وجعلت اقارن بين نظافتها ووساخة دمشق وقلت ليت ربي يرزق دمشق رئيسا لبلديتها فيجعلها « كبور سعيد » .

ووصلنا في سيرنا الى دائرة البريد وكانت تسمى « دائرة البوسطة » فكتبت تحارير الى والدي واصدقائي ووضعتها في صندوق البريد واتممنا الفسحة وتفرجنا على الحدائق والشوارع .

جلسنا في احد المقاهي نتناول كاساً من الشاي واذ بجوقة موسيقية مؤلفة من نساء ورجال دخلت المقهى وجعلت تعزف القطع الموسيقية الأفرنجية مما لم يكن لي عهد به ودارت احدى النساء وبيدها صينية على الجالسين تستجدي منهم الأجرة ويسمونها « البلصة او البالصة » وانتقلت الجوقة الى مقهى آخر وعدنا الى الباخرة واشتريت في طريقي عصا من جلد داخلها قضيب حديدي وهي ثقيلة جداً افادتني في الرحلة كثيراً كما سيجيء ومن الضروري لكل انسان ان يحمل بيده عصا قوية والعصا نصف سلاح .

وصلنا الباخرة وجاءنا الكفيل يطلب اجرته فنقده كل واحد منـــا فرنكا وذهب شاكراً . بخلاف دليل اسكندرية الذي سيأتي خبره قريباً .

***

حركة الباخرة :

أقلعت الباخرة في الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والاربعين وسارت ببطء وانتشر الركاب افراداً وجماعات في الماشي وعلى السطح منهم من راح يتمشى ومنهم من جلس يتمتع بالمناظر ومنهم من أخذ يغني دمدمة او يصفر والباخرة تبتعد ثم اسرعت بالسير وبدأ الليل يخيم ودخل الركاب

متتابعين الى صالونات الباخرة منهم من يطالع ومنهم من يلعب الورق او الشطرنج . وقضينا سهرة لطيفة وقد اجتمع فريق كبير في احدى زوايا صالون الطبقة الثانية وجعلوا يتحدثون وكل من عنده حكاية لطيفة او طرفة طريفة يلقيها على المسافرين وهم يضحكون ولا شك ان السفر اكبر مدرسة للانسان ورقي البشر يظهر في مثل هـذه السفرات وكلما طالت السفرة ظهرت الأخلاق على حقيقتها .

والمسافر لابد له من ان يجتمع ويتعرف الى اناس مختلفين منهم اللطيف ومنهم الثقيل وويل لمن يصطحب ثقيلا في سفره ، لاشك في انه (يعدم عافيته معه) . ووصيتي لكل من اراد السفر ان يختار الرفيق قبل الطريق خصوصاً في السفرات البعيدة والرفيق ضروري في مثل هذه السفرات لان الانسان معرض للحوادث والسعيد من يتمكن من ايجاد الرفيق الموافق وكثرة الرفقاء في اي سفر بلاء خصوصاً اذا كانت مشاربهم مختلفة او ان بينهم من صحته (منحرفة) .

***

الاسكندرية :

في الساعة السادسة من صباح الاربعاء في ٢٤ شباط ٩١١ ، ايقظني « الكرسون » معلنا وصولنا الى الاسكندرية ، فاسرعت بجمع حوائجي ووضعها في الحقائب وأفطرت ثم وقفت على سطح الباخرة اتمتع بمناظر المرفأ والسفن والحركة في هذا المرفأ الجميل ورست الباخرة جانب الرصيف في الساعة التاسعة ونزل الركاب ولما صرنا على البر سألت عن البواخر المسافرة الى مرسيليا واوقاتها فاعلموني ان باخرة المانية ستقوم مساء اليوم الى مرسيليا اسمها « البرنس هنري » فسررت وذهبت قبل ان اخرج امتعتي

من البـــاخرة « القـُصير » الى « الآجنطة » الالمانية وقطعت تذكرة ونقلت امتعتي من باخرة الى باخرة بسرعة ولما كان لدينا وقت طويل للسفر طلبت من مـــدير الميناء اذنا بالسماح لي بالخروج الى الاسكندرية للتمتع بمناظرها والتفرج عليها فسمح لي وخرج معي نيقولا كرياكو بك وتقدم منا دليل أحب أن يدلنا على البلدة فأبى رفيقي كرياكو بك ولكني أصررت وأخذنا الدليل وسرنا في البلدة بعدأن كفلنا الدليل لدى الموظف في المرفأ على أن يعود بنا قبل أن تقلع الباخرة ، ولم يسمح لنا الموظف بالخروج الا بعدان اطّلع على أوراقنا والمستندات التي تشعر بأننا سنغادر الاسكندرية أنا الى مرسيليا وكرياكو الى الآستانة .

وعلى هذا خرجنا نتمشى في الشوارع واستأجرنا عربة ركبناها ودرنا في البلدة مقدار ساعة وطلب كرياكو مني ان نتمشى لأن السائح يتمكن في السير من رؤية البلدة اكثر من الراكب فأجبته الى طلبه وقد لاحظت كثرة الباعة المتجولون يحملون في ايديهم الحوائج الخفيفة كالاقلام والامشاط وغير ذلك واذا عرفوا ان المشتري غير مصري يطلبون ثمن الحاجة اضعافاً مضاعفة ومهما انقص المشتري من الثمن يجد الحاجة باهظـة وقد طلب مني احدهم سبعون غرشاً ثمن قلم حبر فرفضت وما زال ينزل من الثمن حتى اخذته بعشرة قروش فتأمل .

والفقراء كثر خصوصاً الاولاد كانوا يسيرون حفاة عراة الرؤوس يلحقون السياح يطلبون الصدقة بالحاح بصورة بشعة كما هو الحال في بلاد الشرق.

بلدة الاسكندرية بلدة جميلة لايمكن وصفهـــا بمجرد مرور طريق ولكن يمكنني ان اقول انها ثغر جميل (باسم) فيها حركة عظيمة. اشتريت

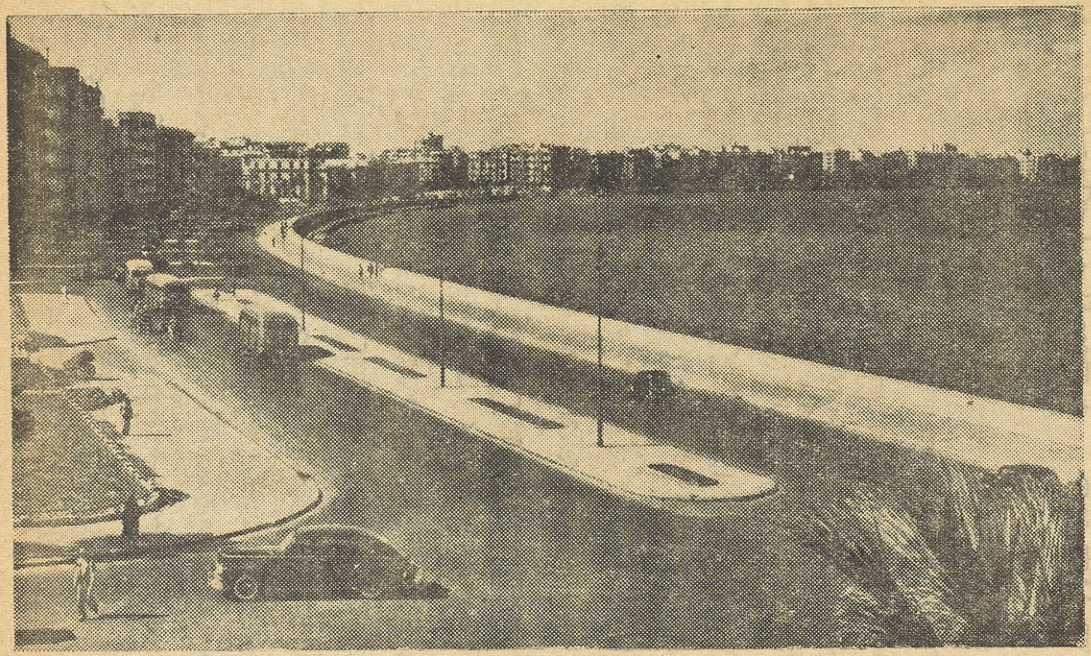

منظر من مناظر ثغر الأسكندرية الباسم

منها بعض الكتب وبينما نحن في الطريق مررنا بمصرف « كريديليونة » فقال كرياكوبك ان لي اموالاً مودوعة في البنك مرادى سحب شيء منها ودخلنا المصرف وطلب سحب المال وطلبوا منه اشخاصاً يعرّفونه فقال للدليل تعال معي لنحضر لهم من يُعرِّف بي وخرجنا من المصرف وجعل كرياكو يسير بنا من محل لآخر والدليل يسأله الى أين انت سائر فيقول إلحق . الى ان وصلنا الى امام بناية عظيمة فقال له وصلنا إنتظروني هنا لأحضر احد اصدقائي ودخل من الباب « وياايدكم » وخرج من باب آخر وانتظرنا مقدار ربع ساعة والبيك لم يحضر ودخلنا نفتش ولكن « اين فطيم بسوق الغزل » وبعد ان درنا جميع الوكالة غرفة غرفة ولم نجد له أثراً عرفنا انه محتال وجد وسيلة للهرب « ففركها » ولا تسل عن الدليل الكفيل وما اصابه من الانزعاج فلطم على وجهه حتى كاد ان يدمي خدوده وجعل يصيح وخرج الزبد من فيه وأخذ بتلابيبي وقال وهو يبكي وينوح انت المسؤول عن رفيقك : (يالله وياي للقسم) واجتمع حولنا الناس وما أقنعته بلزوم السير الى المرفأ لاخبار مديره بالأمر الا بألف جهد جهيد ولما وصلنا أعاد الرواية (وزاد بالزعبرة) امام الموظف الذي كفلنا عنده وجعل ينادي ياعسكري وجاء شرطي أسمر طويل فشكاني اليه وأخبرته الخبر وقلت مادام هذا الدليل يعرف البلدة كان عليه ان يدخل مع الرجل طالما يعرف ان هذه البناية لها ابواب عديدة وكرياكو رومي وأنا عربي ولا رابطة بيننا غير معرفة الطريق فما ذنبي اذا هرب منه وهنا تداخل اولاد الحلال وقالوا (ارضيه) قلت بماذا أرضيه فقال أحدهم (بكم جنيه) وهنا بدأت الرواية تتجدد وزاد الرجل بالصراخ وبالرغم من أني قبلت أن أدفع له نصف (بينتو) أي نصف ليرة افرنسية ذهب فانه لم

يقبل الا ان نذهب الى القسم فقلت يالله الى القسم أيوجد هناك قطع راس ، ولما عرف مني الجد تراجع وقبل النصف (بينتو) وهو يشتم كرياكو بكل مسبة بذيئة ، وبعدان انتهت هذه المشكلة صعدت الى الباخرة الجديدة.

***

(الوابور البرنس هنري) :

هـــذه الباخرة من بواخر شركة « نورد دوتشر لويد بريمن

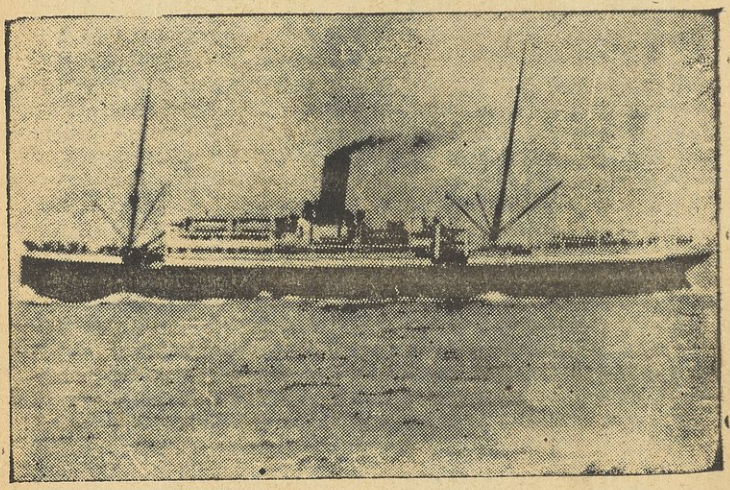

الباخرة البرنس هنري

Nord deutsecher lioyd Brimn واسمها البرنس هنري Prinz henrich » وفيها «٣٤٣» قمرة (١) لعموم الدرجات « بريمو » اولى وعدد قمراتها «٢٨٠» و « سيكوندو » ثانية وعدد قمراتها « ٤٥ » وثالثة وعدد قمراتها «١٨»

---

(١) القمرة كلمة اصطلح عليها المسافرون للغرفة المخصصـــة للنوم في البواخر ولا ادري مصدرها .

والأسرة في القمرات ففي الاولى سرير اوسريران وفي بعضها ثلاثة حسب طلب الراكب ، واسرة الدرجة الثانية اربعة وستة والثالثة أسرتها ستة أو ثمانية والأسرة في القمرتين الثانية والثالثة فوق بعضها ، أما في الأولى ففي كل قمرة من ٢ الى ٣ اسرة وجميع القمرات فيها مغاسل تامة وكلها نظيفة وغير هـــذه الدرجات يوجد السطح ويسمونه ظهر الباخرة والسفر عليه في الصيف لطيف جداً اما في الشتاء فهو مزعج لما يصيب الراكب من تبدل الأنواء من الدوّار .

***

صالونات الباخرة وغرف الطعام :

لهذه الباخرة في كل درجة صالون للجلوس يختلف باختلاف الدرجات واحسنها « البريمو » فيه مناضد مختلفة مفروش برياش ثمينة وفيه آلة الموسيقا « بيانو » كبيرة يعزف عليها من شاء من الركاب ويقدم في الصالونات جميع انواع الألعاب كالورق والشطرنج والداما والدومينو وغيرها من الالعاب المخصصة للصالونات من البريتش للبوكر الى غير ذلك .

وغرف الطعام نظيفة والدرجة الأولى أوانيها جميلة ثمينة وعلى كل وحدة من ادوات المائدة علامة الباخرة متخذة شعاراً للأواني وجميع أدوات الباخرة والشعار هو حرفا (ب.هـ P.H.) وهما اول حروف البرنس هنري.

وكان لكل درجة حماثي خاصة مع ملاعب على سطح الباخرة وفي الحماثي يوضع للركاب كراسي بحرية تفتح وتغلق وتمدد حسب طلب الراكب منها مايحضره المسافر صحبته ومنها يعطى من قبل ادارة الباخرة مقابل فرنكين اجرة الكرسي من **الاسكندرية الى مرسيليا والفرنك معادل**

ربع ريال عثماني وعلى جانب كل كرسي اطار صغير ثابت من النحاس يوضع فيه بطاقة (كارت) يحمل اسم مستأجره او صاحبه .

***

ملاعب الباخرة :

يوجد على الظهر ملاعب للدرجات الثلاث فيها أنواع من اللعب منها لعبة فاتني اسمها لم اقيده بمفكرتي وهي عبارة عن مربعات مخططة في الأرض واقراص من خشب رقيقة مبسطة بشكل دائرة تضرب بعصاوات في اسفلها قطعة من خشب مبسطة بقـــدر الكف فتدفع الأقراص الى المربعات و « الشاطر » من اللاعبين لا يمكّن خصمه من وضع اقراصه في المربعات بل يسعى بضرب اقراصه لأخراج اقراص اللاعب الآخر وقد دخلت في هذه اللعبة وبأقل من ربع ساعة أصبحت بطلا فيها وهناك لعبة اخرى وهي عبارة عن اكياس صغيرة مملوءة رملا ترمى من بعد الى مربعـات غير مربعات اللعبة السابقة في هذه المربعات ارقام لكل مربع رقم يرمي اللاعب بالكيس فمن وصل كيسه ابعد من غيره يكون هو الرابح وهذه لعبـــة لاظهار القوة وغيرها : خشبة مستطيلة بثخن عشر سنتيات في وسطها عامود رأسه كالأهرام بارتفاع متر في جانبه عدد من حلقات الليف شبيه الكعك يرمي اللاعب من بعد مخصوص بالحلقة فالذي يدخل اكثر من غيره حلقاً من الليف في العامود يكون هو الرابح والخلاصة كان هناك عدة العـاب لازوم لذكرها كلها واكثر الركاب يشتركون باللعب نسـاء ورجالا ولا يمتنع عن اللعب الا من يجهل الألعاب ولا افتخر اذا قلت باني تعلمت جميع هذه الألعاب واتقنتها وكنت محور اللعب طول هذه الفترة . ويوجد من الألعاب غير ماذكرت لعبة سبق الخيل وهي من اخشاب على شكل الفرسان

تصف في مربعات ستة بعضها جانب بعض لكل فارس بيت خاص كبيوت الشطرنج وكل فارس يحمل رقما ، وبهذه اللعبة شبكة من شريط مخروطي كساعة الزجاج الرملية لها طرفان مثقوبة من المنتصف عند اجتماع رؤوس المخروطين تدار بدولاب فيها ثلاثة فصوص من فصوص النرد كبيرة الحجم يحرك دولابها بالدوران ومتى وقف الدولاب تسقط الفصوص المسدسة الأوجه وتستقر في أسفل الشبكة فالرقم الذي يكون في الوجه الأعلى من الزهر يسير فارسه قاطعاً المربعات بمقدار اعداد الرقم فان وقف الزهر على رقم ثلاثة واربعة وستة مشى الفارس ذو الرقم الثالث وذو الرقم الرابع وذو الرقم السادس واذا جاء الثلاث زهرات برقم واحد يسير فارس الرقم ثلاثة بيوت من بيوت ذلك الرقم والذي يسيّر الفارس احد الخدم ينقل الفرسان في البيوت الى ان يسبق اول فارس فيكون الرابح للسبق ولهذا السبق اوراق تباع للمتفرجين يتراهنون فيها على السابق مقابل مبلغ طفيف يجمع في نهاية الشوط مجموع الدراهم المدفوعة ثمن اوراق اللعب ويخصم منها (١٠) بالمائة لادارة الباخرة والباقي يعطي للرابحين اي لمن يحملون اوراقاً برقم الفارس الفائز وهذه اللعبة مسلية ولكنها على كل حال لعبة (قمار) .

***

في البحر الابيض المتوسط :

قلت ان الباخرة تحركت بنا في الساعة الثانية من بعد ظهر الاربعاء في اليوم الثاني والعشرين من شهر شباط ١٩١١ من ميناء الاسكندرية وكان البحر في غاية الهدوء والهواء عليلا والركاب يمرحون في الماشي وعلى ظهر الباخرة يسيرون ازواجاً وفُرادى وتقدم مني شابان يتكلمان اللغة العربية جيداً باللهجة المصرية وقدما لي انفسهما احدهما يدعى « المسيو باروخ

بنطاطا والثاني يدعى باصيل بصالتي » وكلاهما يهودي وجلسنا في الممشى نتمتع بمناظر البحر والتموجات الخفيفة ونتحدث أحاديث مختلفة وبقينا على هذا المنوال الى ان حان وقت الطعام فتناولنا العشاء وصعدنا الى الصالون وهناك اجتمع جميع ركاب الدرجة الثانية وبدأ التعارف بين الركاب وكان بينهم رجل الماني بدين يدعى « الهر بريك » خفيف الروح جداً لم يترك فرصة الا اقتنصها للتفريج عن المسافرين وتسليتهم وبالحق انه كان سلوتنا من الاسكندرية الى مرسيليا وبعد التعارف مع بعض الركاب انتحى كل جماعة منهم ناحية وجعلوا يلعبون الورق والشطرنج والنرد ودار باروخ ورفيقه باصيل على الحاضرين يسعون لتشكيل لعبة « بوكر » فتوفقوا لايجاد بعض اللاعبين وسألوني هل تلعب البوكر ؟ قلت لا . قالوا تعال نعلمك اياها قلت لااريد ، قالوا لماذا ؟ قلت لأنها في البدء لعبة بوكر ولكنها في النهاية « بوق بيز » ومعناها باللغة التركية « أكل هواء ... » وكان جانبي رجلان يسمعان حديثنا فضحكا وكلاني باللغة التركية وهما روميان ، وكان هذا الحديث ورفضي اللعب سبباً لعقد أواصر الصداقة بيننا احدهما يدعى قسطاكي افندي والثاني جورجي افندي وقد قضيت اكثر اوقات السفر من الاسكندرية الى مرسيليا بصحبتهما وتقدم مني شاب ايطالي وعرفني بنفسه يدعى « المسيو ميشيل سبيرنلك » يتكلم اللغة الأفرنسية بصعوبة ، هذا الشاب جائني يوماً الى غرفتي وغرفة البواخر تسمى « قمرة » وجلس عندي يحدثني بلغة افرنسية مكسرة ومع الأسف كانت افرنسيتي مكسرة اكثر منه وبعد فترة من الزمن اخرج من جيبه رسوم بنات عاريات بأوضاع مختلفة ورسوم اخرى فيها مناظر فحش وأفهمني ان الباخرة سوف تقف في نابولي وانه يعرف نابولي وله فيها صديقات من هؤلاء النسوة وقدم نفسه لي

كدليل خير يحب خدمة الأنسانية مقابل أجر طفيف لا يزيد عن الخمسين فرنكا مقابل تعرفي بأحدي الفتيات الجميلات فصرفته بالحسنى وتجنبته بعد ذلك وعندما نزلنا في نابولي « فركتها » منه ولم اصاحبه في الجولة التي جلتها فيها كما سيجيء .

***

الشطرنج :

من الألعاب المحببة الى المسافرين لعبة الشطرنج والذين كانوا يلعبونها اكثرهم من الطبقة الغنية وقد جلست الى جانب لاعبين يلعبان بالشطرنج وقضيت وقتا طويلا جانبها وانا اتفرج دون ان اتكلم كلمة واحدة ولم « ادودب » لامع هذا ولا مع هذا « والدودبة » في لغة الشطرنج هي ان يساعد المتفرج احد اللاعبين بالفاته الى لعبة اذا لعبها يكون له منها فائدة واكثر المتفرجين في بلادنا « يدودبون » والذي رأيته في اوربا « لايدودب » احد مع احد الا اذا كانوا شلة اصدقاء مرفوعة بينهم الكلفة ، وبعد ان انتهيا من لعبها سألني احد الجالسين وهو رجل « الماني يدعى الهر باربو » هل تلعب الشطرنج قلت قليلا ، قال أتحب ان تلعب (دقا) دستاً بالشطرنج قلت نعم فلعبنا واجتمع حولنا اللاعبون للتفرج ولعبنا دستاً خرجنا به (باطه) ثم آخر غلبني فيه وانتصف الليل وجعل الركاب ينسحبون الى (قمراتهم)

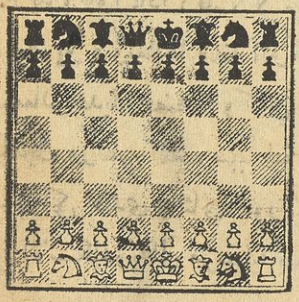

رقعة الشطرنج

وكان البحر هادئاً والباخرة تسير بسرعة يسمع لراجلها صوت ضعيف وكان اهتزازها خفيفاً فلم يؤثر الدوار على احد وانسحبت الى قمرتي ونمت بهناء.

***

هل نسيت القبّة :

صحوت باكراً ولما ارتديت ملابسي وجدت في رقبتي بعض الحرارة من قبة القميص (الكوتشوك) فلم أضعها وتركتها مع « الكرافات ـ قمطة الرقبة » لاريح رقبتي وذهبت الى غرفة الطعام لتناول الفطور (كسر الصفرة) ولم أكد ان اصل الى المكان المخصص لي واتقدم للجلوس واذ برئس الخدم (شيف دوتابل) يتقدم مني بلطف ويشير الى رقبتي قائلا : اظنك نسيت القبة قلت لا وأريته حبوب الحرارة الظاهرة في رقبتي ، قال بأمكانك ان تلفها بشيء يستر الرقبة لأنه لا يجوز الجلوس على المائدة بين الركاب بدون (قبة وكرافات) فرجعت الى القمرة ووضعت قبتي وعدت وبعد الطعام قضينا الوقت على سطح الباخرة وفي المماشي بالرغم عن برودة الطقس واخيراً اخذت كتاباً وجلست في مقعدي اطالع وكان الركاب منتشرين في الباخرة منهم من يدمدم ومنهم من يصفر لحنا ومنهم من يقرأ او يحدث رفيقه وقرب الساعة العاشرة صباحاً جائني « الهر باربو » طالبا اللعب بالشطرنج فقمت الى الصالون وجلسنا نلعب دستاً .

***

السيدات والشطرنج :

وبينما كنا نلعب واذ بسيدة تدخل يصحبها زوجها وابنتها ووقفوا يتفرجون على اللعب وكان الالماني يتكلم الافرنسية بصعوبة كذلك كانت افرنسيتي ولذلك كان تفاهمنا بالاشارة وبعد عشر نقلات في الأحجار اخذت

الدست بغلطة غلطها الرجل وعنـــد الأفرنج لايجوز الرجوع في اللعب خلاف العادة عند العرب فانهم يرجعون في العابهم اذا كان الاتفاق بين اللاعبين على ذلك .

فلما اخذت الدست (الدق) صفقت بيدي وطالعت من القاموس كلمة انتقام وقلت له أخذت بثأري منك وجعلنا نضحك جميعاً من تكلمي بالاشارة وقالت لي السيدة أتحب ان نلعب دستاً ولو لم يكن بيننـا معرفة فقلت بكل سرور ، قالت أنا مدام المسيو فيليب وهذه ابنتي قلت وانا المسيو فخري وخطيبتي في بلدتي فضحكنا وجلست فغلبتني دستين واخذت دستاً واحدا وقمنا على ان نعود الى اللعب مرة ثانية لأخذ الثأر وظهر ان زوجها يلعب اكثر منها لأنه نبهها الى بعض الألعاب أي (ديدب) معها ونبهته الى لزوم الوقوف على الحياد واذا شاء لعبنا سوية في وقت آخر فقبل وكانوا من ركاب الدرجة الأولى فذهبوا بعداللعب وقمت الى الظهر استروح الهواء وجلست أطالع في كتاب تاريخ العباسيين وغرقت بالمطالعة ومرت امامي تلك العصور الزاهية ثم ادوار الانحطاط ، فتركت الكتاب وجعلت افكر بأمتي العربية وهل يعود لها عزها فترجع امة حية بين الأمم أم تبقى عالة على البشرية تأكل وتشرب وتنام كالحيوانات وبقيت سابحاً بهذه الأفكار الى ان نبهني اعلان النذل بضرب جرس الطعـام فنزل الركاب جميعهم الى الموائد ومن نعم الله عليَّ انني كنت ممن اعتاد ان يأكل على الطريقة الغربية وكان في زمننا الطعام يوضع على صينية كبيرة من نحاس يجلس حولها افراد الأسرة ، اما على الارض فوق بساط او حصير واما على كراسي صغيره ولم تكن ادوات السفرة معروفة لدى الدمشقيين ولم يكن معروفاً غير الملعقة

أما الشوكة (الفرتيكة) المعدن فلم تكن معروفة الا عند الطبقة الراقية ولم تكن السكاكين عندنا توضع على الموائد .

وكان على المائدة اناء خردل بعيد عن الرومي فقام ومد يده لأخذه فأصابت ابريق الماء فوقع على المائدة وساح الماء على المنضدة واضطرب الجالسون جانب الرومي الذين اتجه الماء نحوهم وخجل الرومي خجلا مابعده خجل وبعد الطعام بينما كنا نسير في المعشى واذ برئيس الخدم يتقدم من رفيقي الرومي ويختلي به في احد جوانب الباخرة ثم يتركه ويعود الينا الرومي ويخبرني انه تلقى درساً في آداب الطعام من رئيس الخدم لاينساه مدة حياته ، والذي فهمته منه انه قال له ان الجالس على مائدة الطعام لايجوز له ان يقوم ليتناول شيئاً من الأدوات عن المائدة كما انه لايجوز له ان يمد يده بأكثر مما تصل اليه ، واذا لزم احدهم شيئاً بعيداً عنه كالملحة أو أي شيء غيرها وكان في جانبه أعظم الرجال قدراً أو أعظم

تناول الطعام على الصينية

السيدات مكانة مسموح له بان يطلب منهم مايريده او ممن هو اقرب الى الاداة المطلوبة من الجالسين ، وقد اخذت عبرة من هذا الدرس ولم أقع في خطأ مثل هذا لله الحمد .

***

العادات :

العادة في اللغة الديدن سميت بذلك من العود اي الرجوع لأن صاحبها يعاودها ويرجع اليها مرة بعد اخرى وقد عرفوها بحدود كثيرة مرجعها جميعا الى الأعمال المتكررة التي يألفها الأنسان والحيوان جماعات وافرادا وقد قالت العرب العادة خامس طبيعة وقالت الأفرنج العادة طبيعة ثانية .

والعادة خاصة وعامة فالخاصة تخص كل فرد باحوال معلومة والعامة تشمل امة بأسرها او طائفة من طوائفها أو شعباً من شعوبها او قارة من القارات الأرضية ولهذا اصبح لكل شعب عادات خاصة به تسوقه الى هذه العادات حالات المكان والزمان فيألف من المطاعم والمشارب والمساكن والأخلاق والأهواء ماتسوقه اليه حاجته بادىء بدء ثم يألف تلك العادات حتى تصير ملكة فيه ومتى رسخت العادة في قوم أصبحت سنّة له وصارت عرفاً عاماً ثم قانوناً مشروعاً وان لم يصدر به مراسيم وقرارات حكومية مصدقة من المجالس . ولهذا اعتبر المشترعون العرف المبني على العادة العامة بمنزلة لاتنزل عن الشرع المشروع . ومع ان القوى الطبيعية متفاوتة بين فرد وفرد آخر من بني الانسان ولكن ائتلاف كل قوم على عادات مخصوصة يضرب حجاباً ظاهراً على ذلك التفاوت ويجعل فيه نوعا من التناسب يستحسنه الذوق وترتاح اليه النفس وعادات الأمة هي أساس مظهر اخلاقها وآدابها لذلك يجب على السائح مراعاة عادات اهل البلاد التي يزورها ،

ومشاركة أهلها بما لا يمس بأمور دينه ومن خالف عادات القوم الذين يمر بهم يكون عرضة للهزء والسخرية وليجتنب السائح في الاجتماعات العامة الحركات غير اللائقة والهزء والسخرية بعوائد الأقوام خصوصاً طقوسهم الدينية مهما كان فيها من الشواذ واذا ظهر من السائح حركة استهزاء بقوم وتعدى عليه بعض الرعاع فلا يلومن الا نفسه .

وسأذكر بعض العادات بصورة مجملة عند مروري في كل بلدة من بلدان القارات الاربعة اوربا واميركا وافريقيا وآسيا حسبما تقتضيه الظروف.

***

ام دوك :

ام دوك لباس النساء في ذاك العصر

في اليوم الأول من ركوبنا الباخرة من الاسكندرية تقدمت مني سيدة افرنسية نَصف تسحب كلبا صغيرا من نوع « بولدوك Bouledogue » من أحرك ماخلق الله من الكلاب و (اشطنها) تقدمت السيدة وطلبت مني بلطف ان اساعدها بجلب مقعد بحري لتجلس عليه فأسرعت وأحضرت مقعداً وفتحته وقدمته لها فشكرتني وجلست جانبي وحضنت الكلب وجعلت تقبله وهو يلحس وجهها وشفتاها فأنفت من ذلك ونفرت

نفسي منها وعددت مساعدتي لها عملا انسانيا وقلت بنفسي هي ساعة وتمضي ولم أعلم انها مثل (الدبيقة) سوف تعلق بي الى آخر السفرة وكلما المدال لم يكن ليزل من حضنها فكانت تقبله ويلحس وجهها وشفتيها ولا تتركه ثانية واحدة بعيداً عنها ، وصار الركاب يتأففون منها واينما حلت هرب الجالسون . وقد صدف ان افلت منها مرة وجلس بحضن رجل نهر به ورماه أرضاً ولما رأته صاحت وقامت قيامتها وملأت الباخرة زعيقاً وحضنته وجعلت تقبله وتراضيه كأنه طفل « حردان » .

هذه السيدة استلطفتني مع اني استثقلت دمها وعقلها فجعلت تتعقبني من مكان الى مكان وكلما جلست جانبي ابحث عن طريقة للأبتعاد عنها وقد اسميتها « ام دوك » ومشى هذا اللقب عليها بين الركاب وقد احست المسكينة بنفور الناس منها فصارت تجلس في زاوية تطالع بكتاب وتداعب ابنها المحروس دوك الذي ابغضته بمقدار حبي للجمال ومن العجائب ان الأخ حسني افندي تللو المشهور بحب الجمال يحوي عنده كلباً من هذا النوع ولعل له به غرضا لانعرفه ولله في خلقه شؤون . وبمناسبة هذا الكلب سأتحدث عن كلاب اوربا .

***

الكلاب في اوربا :

عناية الأفرنج بالكلاب مشهورة وفي فرانسا كما في غيرها من البلدان جمعيات متعددة خصوصية ومنها جمعيات عمومية لتحسين انواع الكلاب وتشترك هذه الجمعيات في المعارض الدولية او تقيم معارض خاصة لعرض أنواع وأصناف الكلاب والحكومات تعطي الكلاب الفائزة أوسمة كما ان

هذه الجمعيات تعطى « الأنواط مداليات » وشهادات للأنواع الممتازة وأصناف الكلاب عديدة منها :

للحراسة في الريف ومنها للحراسة في المنازل ومنها لحراسة المواشي ، ومنها الكلب الأليف الجليس « مثل المسيو بولدوك » ومنها المصاحب الصديق ومنها للزينة والزخرفة ومنها لجلب الحاجات من الأسواق وكلاب الصيد

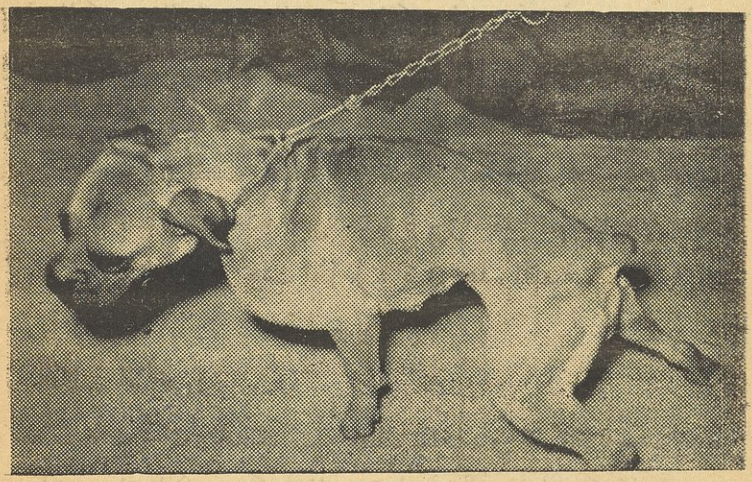

بولدوك

والقنص والسلوقي وقانص الذآب وقاتل الثيران وللكلاب اثمان تختلف باختلاف الأنواع وتتراوح اثمانها بين (٥) فرنكات ذهب الى ٥٠٠ ليرة انكليزية ذهبية واصحابها يعرفون كيف يربونها وقد جعلوا تجارتهم منها واكثر اصحاب الكلاب هنّ من السيدات وللكلاب تجار خصوصيون معروفون يرسلون الكلاب المباعة الى أقاصي الأرض اذا وضع الثمن المطلوب.

طلبت شرف كلبها :

حدثني السيد خير الدين الزركلي ان احد اصدقائه كتب له من نيويورك ان سيدة تركت كلبها في الشارع دون سلسلة وكان هذا الرجل يجلس في احدى الحدائق فاحتك الكلب به فطرده وضربه بالعصا « البستون » فقامت قيامة صاحبته وشكته للشرطي الذي اخذها الى مخفر الشرطة وهناك حولوه الى المحكمة وعينت له يوما خاصا وفي يوم المحاكمة طلبت السيدة شرف الكلب فقال الرجل اني مسلم والكلب نجس في مذهبي وقد طردته فلم يذهب وخوفاً من ان تلحقني النجاسة وتمنعني عن صلاتي اضطررت لضربه وعلى السيدة اذا كان لكلبها شرف تخاف عليه فلتربطه بسلسلة ولا تدعه يؤذي الناس ، ولما تثبتت المحكمة من الخبراء ان الكلب نجس عند الاسلام حكمت على السيدة بان تعطيه اجرة اسبوع جزاء نقديا تعويضا عن عطلته. وعلى ذكر الكلاب التي تجلب الحاجات اذكر هذه القصة .

***

الكلب الأعمى:

حدّث عابدين بك والد الدكتور مطاع بك عابدين قال كان له صديق يدعى اديب افندي مفتي الاي يسكن في السنجقدار في حارة المملوك كان لهذا الرجل كلب كبير من نوع ممتاز من كلاب اوربا ، هذا الكلب كان يحضر لصاحبه لوازم المنزل من عند اللحام والسمان والبقال كما انه يحضر كل يوم التعيين من فرن القلعة والتعيين في زمن الحكومة العثمانية كان يعطى للضباط والمتقاعدين لكل واحد مقدار مخصوص من اللحم والخبز غير الراتب يؤخذ عيناً فكان تعيين الملازم ستة ارغفة « طوب خانة » والرئيس تسعة ارغفة من خبز الارمن الكبير وكان للمفتي الاي اميني ثلاث تعاين اي تسعة ارغفة

يذهب الكلب يومياً الى فرن العسكرية في قلعة دمشق فيضع له الفران تسعة ارغفة في السل ويعود به الى دار صاحبه ومضى مدة على هذا الحال وفي احد الايام جاء بثمانية ارغفة فظن صاحبه انه أكل الرغيف فلم يأبه للأمر ، وفي اليوم الثاني والثالث والرابع جعل يأتي بالخبز ناقصاً فتعقبه صاحبه يوماً عن بعد فرآه حمل السل وفيه الارغفة التسعة ومشى نحو الشرق في حين ان دار صاحبه غربيّ القلعة فتعقبه الى ان وصل الى باب السلام وهناك وقف الكلب واخذ الرغيف ووضعه امام كلب أعمى ووقف يحرسه الى ان اكله وعاد الى الدار فتعجب صاحبه وتحير بصنع الله في خلقه وكيف سخر الله الناس والحيوان ليخدم بعضهم البعض الآخر سبحانه وتعالى وهو أصدق القائلين :

« وكأيّنْ من دابّةٍ لاتحملُ رزقَها اللهُ يرزُقها وإيّاكم وهُوَ السميعُ العَليم » .

***

هياج البحر :

في اليوم الثاني من ركوبنا البحر اشتدت الأنواء (وكبر البحر) وجعلت الأمواج تلعب بالباخرة لعب القط بالفأر وداخ اكثر الركاب فمنهم من انسحب الى قمرته ومنهم من جلس على كرسيه في الممرات دون ان يحفل بالعاصفة ويظهر ان بعضهم كان يكابر بالمحسوس ليرينا انه لايأبه لشيء مما يجري ، ولكن لم يطل الحال حتى هرب جميع الركاب الى قمراتهم واكثرهم مصاب بالدوار . وفي اليوم الثاني هدأ البحر قليلا وبقينا الى المساء لانرى الا الماء والسماء وفي الساعة الخامسة ظهرت لنا اراضي صقلية

« سيجيليا - Sicile (١) عن بعد فصعد اكثر الركاب الى سطح الباخرة ينظرون بالنواظير والسائح الذي يركب البحر لابد له من ناظور جيد ليقرب له المسافات البعيدة وبقينا مقدار ربع ساعة نتطلع الى سواحل صقلية ثم بدأت تظهر لنا اراضي « قالابريا - calabre » عن بُعد وبعد قليل دخلنا « بوغازمسينا » وهو مضيق بين اراضي صقلية و « قالابريا » وبقيت الباخرة في المضيق اكثر من ساعتين ونصف والنوء شديد وقد ذكرتنا هذه الليلة بليلة الباخرة قصير بين حيفا ويافا بل ان هذه الليلة كانت اشد حتى ان الموج كان عند ميل الباخرة على احد جانبيها يضرب من فوق السطح وعندما تستوي الباخرة تسيل المياه من الجانب الآخر وتحمل الركاب مالا يوصف من الصعاب ولما خرجنا من المضيق اعتدل النوء وهدأ الاضطراب وعادت الباخرة الى سيرها الأعتيادي وعاد الركاب الى العابهم وفي الساعة العاشرة من صباح يوم السبت الواقع في ٢٥ شباط قرع جرس الطعام فنزلنا الى الغرفة متسائلين عن سبب تقديم الوقت فقالوا ان الباخرة ستصل الى ثغر « ناپولي » وهو من ثغور ايطاليا الجميلة والركاب الذين يريدون الفرجة على ناپولي يجب ان يتناولوا طعامهم باكراً فتناولنا

---

(١) صقلية بثلاث كسرات وتشديد اللام والياء المفتوحة وهي اكبر جزر البحر المتوسط تنفصل عن « قالابريا - calabre » بمضيق مسينا او مسيني وهي جزيرة ايطالية فتحها العرب سنة ٢١٢ هـ الموافق ٨٣٠ م في زمن المأمون بن الرشيد فتحها اسد بن الفرات عنوة على الجيش زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب والي القيروان من قبل المأمون وبقيت بيد الاغلبيين الى سنة ٩١٧ م حيث تغلب عليها الفاطميون فدخلت بحوزة الخلفاء الفاطميين وبقيت بيدهم الى اواخر القرن الحادي عشر الميلادي حيث تغلب عليها النورمنديون وجرت عليها حروب كثيرة ودخلت في حكم الالمان والافرنسيين وجرى فيها حوادث كثيرة الى ان انضمت الى ايطاليا سنة ١٨٦١ ولم تزل تابعة لها الى اليوم .

الطعام بسرعة وكتبت اسمي مع من يريد النزول الى نابولي ولم يكن في ذلك الزمان « جواز سفر — passeport » ولم يطلب مني الجواز الا عند دخولي الى الآستانة في عودتي من اوربا كما سيجيء .

***

ماذا رأيت في نابولي :

في الساعة الحادية عشرة بانت لنا نابولي وكلما تقدمت الباخرة كانت تظهر لنا اليابسة ونابولي ثغر من ابدع ثغور البحر المتوسط وهي في غاية الجمال بمناظرها الطبيعية فكأنها عروس قائمة على ساحل البحر المتوسط فيها اشـــجار باسقة وبساتين بديعة ، وقرب الظهر وقفت الباخرة في الميناء وتقرب مني « المسيو سبيرناك » الايطالي متحكماً يريد ان ننزل معاً فيكون دليلي في نابولي فرفضت بصراحة واستأجرت عربة بواسطة شرطي واقف امام رصيف المرفأ وأريته الساعة وان مرادي ان ادور البلدة في العربة فتفاهمنا بالاشارة وافهمني ان اجرة العربة « فرنكين بالساعة » فركبت ومشى الحوذي يريني البنايات والهياكل القائمة في الشوارع ويشرح لي بالايطالية عنها دون ان افهم منه شيئاً وبعد ثلاث ساعات عاد الى الميناء وكانت الساعة حوالي الرابعة ولم يزل لدينا من الوقت مايسمح لي بالفرجة فسرت على الرصيف متنقلا والذي رأيته في نابولي جمالها وانتظام شوارعها والاشجار القائمة في الشوارع الواسعة وقصرها المزخرف الذي يشبه القلعة وهو مايسميه الافرنسيون :

« لوكاستيل نوفو » ***

سوق الملك :

من اجمل مارأيته في نابولي سوق الملك وهو بناية على هيئة الصليب

أحد مناظر نابولي الجميلة ..

مبنية على شكل خطين متقاطعين مسقوفة بالزجاج وداخل الخطين المتقاطعين ساحة مدورة والحوانيت على طرفي اركانها الاربعة وفيها مقاهي للاستراحة ولها اربعة ابواب يحار المتفرج بما يراه في هذا السوق من المصنوعات البلورية والنحاسية والمعدنية والأواني الخزفية والثريات والشمعدانات الثمينة التي قل نظيرها في الدنيا .

***

الفقر في ايطاليا :

يحسُّ السائح من النظرة الأولى ان اكثر اهل ايطاليا من الفقراء ومن يدقق النظر في وجوه الطبقة العاملة يرى فيها الشحوب ظاهراً واستجداء الايطاليين السكاير من السياح مباح ولا يجد الايطاليون اي عار بطلب السكاير من الغرباء وهذا ما رأيته في كل مرة زرت فيها ايطاليا.

والدليل على كثرة الفقراء في ذلك الزمن وقوف عشرات النساء على رصيف الميناء ينتظرن الشبان الاغراب للاجتماع اليهم وكسب بعض الدراهم من بيع انفسهن في سوق اللذة .

جلست في مقهى فاحتاط بي ست سيدات كل منهن تدعوني لزيارتها ولما رأين رفضي طلبن مني ان اضيّفهن بكأس من الجعة « البيرة » فلم اتمكن من الرفض وضيفتهن بما طلبن وتمشيت الى مطعم قريب وقلت مادمت الآن في ايطاليا فلأجرب اكلتها الوطنية وقلت لرجل واقف « مسيو منجرية معكرونة » فضحك ودلني على مطعم قريب وهناك طلبت بالأشارة صحناً من المعكرونة فاحضروه لي بعد ربع ساعة مع صحن من الجبن المبروش وبالحقيقة وجدت بهذا النوع لذة فائقة لا نعرفها في المعكرونة التي نأكلها في بلدنا وللطليان اعتناء تام بهذا الطعام ولهم في طبخه عدة طرق . واني اقول :

كما ان « الكبة » هي الطعام الوطني للسوريين « فالمكرونة » هي الطعام الوطني للايطاليين والبطاطا للأفرنسيين .

ان الايطاليين مشهورون بدقة الصناعات وبينما انا اتنقل في الميناء مر بي عدد من الشبان يحملون هياكل من (جبصين) او من الرخام الابيض والملون وغير ذلك من افواه السكاير وعليها مصنوعة احسن صنع والأواني البلورية المركبة مع المعادن ، إن من اواني الزينة او من اواني الأستعمال وهي غاية في الأبداع والجمال وهي من اشهر الصنعات في ايطاليا كما ان اهلها مشهورون ايضا بالموسيقى وصنع اوائلها على اختلاف انواعها وعندما جلست في المقهى كانت اجواق الموسيقي المركبة كل جوقة من عدة اشخاص والتي لايقل عدد احداها عن الخمسة موسيقيين تمر من امامنا ويركبون الزوارق ويدورون حول البواخر فيقف الركاب يتفرجون على الأجواق ويسمعون انغام موسيقاها وغناء افرادها نساء ورجالا فيرمي الراكب بما تجود به نفسه الى الجوقة فتقع الدراهم في الزوارق فيلتقطها رئيس الجوقة ويقدم الشكر المحسن .

***

الغطاسون

وهناك اطفال صغار اكبرهم في سن المراهقة واصغرهم لايقل عن السابعة من عمره يلقون انفسهم في البحر ويغوصون لأخراج مايرميه اليهم الراكب من الدراهم فيخرجون القطعة في فمهم ويتسابقون عليها بالغطس مما يضحك الانسان ويؤلمه في آن واحد لأن نزول هؤلاء الاطفال في البحر في مثل هذا الطقس لتحصيل شيء من الدراهم يدمي القلوب وويل للأنسان الذي لايتألم لشقاء اخيه الانسان .

اسرق من الفار :

اما اهل نابولي فكانوا اسرق من الفار واحرق من النار وايطاليا كانت مشهورة بتصدير اللصوص الى العالم واذا لم يكن الغريب واعياً لاشك انه يكون عرضة حتى لسرقة قبعته ومما وقع لي انه كان في رجلي عندما نزلت الى نابلي « كندرة صب » خوفا من الطين ولما جلست في « القهوة ـ المقهى » ناديت ماسح احذية (بوبه جي) وبعد ان مسح حذائي اعطيته كندرة الصب ليمسحها فمسحها ووضعها في جانبي وذهب وما كاد يتوارى عن عيني حتى التفت فلم اجدها وعبثا حاولت البحث عنها وقد راجعت البوليس الواقف فلم اقدر ان افهمه مقصدي ولا فهمت منه ماقاله وطلبت عوضي من الله وعدت الى الباخرة ووقفت مع الركاب على السطح نتفرج على الميناء وعلى العمارة(١) الايطالية الراسية في هـــذا المرفأ .

ومما لفت نظري لما كنت ادور في البلدة شاب واقف امام منضدة موضوعة في عربة يجرها حصان عليها صندوق كبير في داخله آلات لم ارها يقف بين الحين والحين في الشارع ويتكلم بسرعة كالخطيب المفوه يعلن عن شيء ولم افهم من كلامه شيئاً وأخيراً يأخذ ورقة بيضاء بقدر الكف يبلها بالماء ويدخلها بثقب مستطيل ويدير دولاباً فتخرج الورقة من جانب الصندوق المقابل مطبوعة ملونة مثل ورقة « البنك نوت » وكان الشارع يغلي بالناس عند وقوفه لألقاء خطبته وقد طارت ساعات بعض المتفرجين من ركاب الباخرة الذين وقفوا للتفرج بين الناس واحمد الله اني كنت راكباً في العربة آنذاك فحمى الله ساعتي من السرقة .

☆☆☆

---

(١) العمارة طائفة من السفن الحربية تكون معا وهي كلمة مولدة .

آخر ليلة في الباخرة :

قضينا آخر سهرة في الصالون على العادة وودعنا بعضنا عند منتصف الليل وذهب كل منا الى قمرته وفي صباح الاثنين صحوت باكراً وجمعت امتعتي ورتبتها في الحقائب وجلست في الممشى مع الروميين ننتظر بصبر فارغ ان تظهر لنا مرسيليا وبعـــد ان تناولنا الفطور اخبرنا الخادم ان مرسيليا ظهرت من بعد فصعدنا ووقفنا نتفرج الى ان دخلت

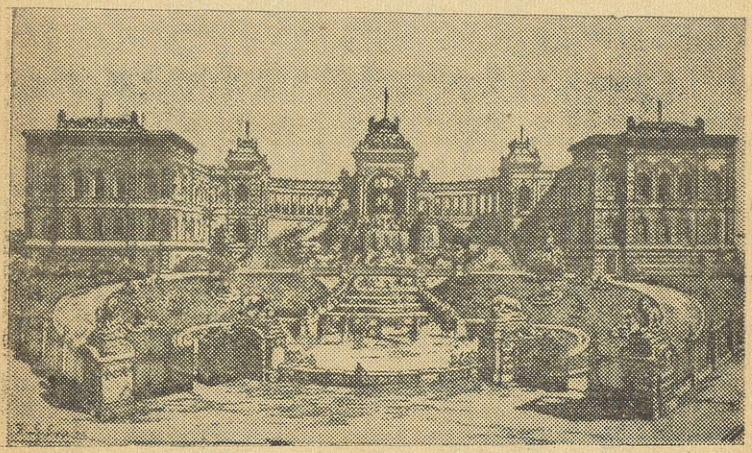

بلاس دولونك شامب في مرسيليا من اجمل البنايات

الباخرة الميناء ورمت مراسيها جانب الرصيف ، ومرسيليا من اكبر ثغور فرانسا والحركة فيها تدهش النظر . نقلنا أبصارنا في هـــذا الميناء ورأينا حركة الملاحين الدائمة وكثرة الزوارق واللنشات والبواخر وفي ناحية من الميناء قسم من الاسطول الأفرنسي وحداته قريبة من بعضها ، جماله يبهر النظر وما كادت الباخرة تقف حتى هرع الركاب الى النزول ومررنا بالكمرك

وبعد التفتيش خرجنا الى البلدة وركبت عربة يجرها حصان مفرد واكثر عربات فرانسا كانت بحصان واحد وطلبت من السائق ان يأخذني الى « اوتيل » قليل التكاليف (بون مارشه) فأخذني الى اوتيل صغير وضعت فيه امتعتي واسترحت قليلا وطلبت من صاحبه ان يدلني على « القنصلية » العثمانية فدلني عليها وكانت قريبة من الفندق فذهبت لأرى القنصل وكانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة ولما وصلت وجدت معاون القنصل وهو شاب تركي يدعى لطيف افندي حيبته برفع القبعة وارجعتها الى رأسي .

***

غليظ افندي :

واذا به يصرخ صوتاً مزعجاً سمعه الناس من الشارع : قبعتك قبعتك ، وكانت كلمته بالأفرنسي « votr chapo » قلت بالتركية مالها قبعتي قال اقلعها عن رأسك وتعلم المدنية . قلت أتريد ان اتعلم المدنية بهذه العقلية ان هذه المعاملة هي ثقيلة ونحن لسنا عبيدكم بل نحن أسيادكم ، رواتبكم منا نحن ابناء الشعب وانتم الموظفين لستم الا خدماً للشعب وبما ان اسمك لطيف كان يجب عليك ان تكون معاملتك للناس خصوصاً لرعايا الدولة لطيفة مثل اسمك ولكن بكل اسف اقول ان معاملتك ثقيلة غليظة وليتهم سموك « غليظ افندي » بدل لطيف افندي وتركته مدهوشاً وخرجت وانا ارتعد غضباً من هذه المعاملة وكان في الباب بضعة اشخاص من المراجعين منهم الترك ومنهم العرب ركض اليّ ابناء العرب يشكرونني على هذا الموقف الذي رأوه مني تجاه هذا المتعجرف واخبروني ان معاملته لأبناء العرب دائماً بمثل هذه الفظاظة وانه يقدم ابناء الترك ويقضي حوائجهم باسرع من البرق ويؤخر ابناء العرب اياماً لا لسبب بل لأظهار تحكمه .

هذا مارأيته من احد صغار موظفي الأتراك في « قنصلاتو » مرسيليا مع ان المشهور عن موظفي خارجية الدولة العثمانية انهم من ألطف الناس وأدمثهم اخلاقاً وما كنت ادري اني ارى بينهم رجلا فظـــاً من فصيلة « غليظ افندي » .

***

السفراء والقناصل في زمننا

السفير Ambassadeur في اللغة الرسول ، المصلح بين القوم جمعه سفراء واصطلحت عليه الدول لممثل دولة اخرى تنتدبه حكومة للاقامة في عاصمة الدولة المرسل اليها وهو نائب ملكه او رئيس جمهوريته عنـــد هذه الدولة وشخص السفير محترم لايمس لانه يمثل ملكه وهو معفى من جميع الاحكام المحلية في المملكة التي يرسل اليها .

والاعفاء يشمل اعضاء اسرته فهم فيه سواء لايسجنون ولا يحجز عليهم ابدا مهما اتوا من الذنوب وهو الحاكم المطلق على افراد رعيته وجالية بلاده فاذا حدث من احدهم ذنب يوجب العقاب كان السفير هو الذي يعاقب وفي مقر السفارة سجن لحبس المجرمين من رعية دولة السفير وكان للدول الاجنبية في الدولة العثمانية امتيازات الاجانب لايمكن لاحد ان يعبث بها مهما كان شأنه .

***

الامتيازات الاجنبية في البلاد العثمانية

في اواخر ايام الدولة العثمانية وفي دور الانحطاط كلما غلبت دولة من الدول الاوربية الدولة العثمانية يصبح للدول الغالبة امتيازات في بعض النواحي

تجبر الحكومة العثمانية على مراعاتها ومن يطالع التاريخ يعرف مقدار ما تحمله العثمانيون من تعدي الاجانب على رعاياهم وكلما نالت دولة امتيازا طالب بقية الدول بمثله حتى جاء يوم في دمشق اصبحت فيه عصا الاجنبي سيفا خصوصاً رعايا العجم لان الدولة العثمانية بعد انكسارها في الحرب التي قامت بينها وبين الفرس اخيراً وبعد ان غلبت على امرها رضيت بكل الشروط التي وضعها الفرس على الاتراك ومن هذه الشروط حماية الملتجىء الى دار السفير او « القنصل » مهما كانت جريمته وقد رأيت بأم عيني كيف كان قنصل العجم يحمي المجرمين وقد كانت دار القنصلية في محلتنا في محلة « شابكلية قنوات » وكنت في سن السابعة تقريبا وكنت العب مع اولاده علي خان وميرزا خان .

وكثيرا مايدخل اناس الى الدار ركضا ورجال البوليس وراءهم ولما يدخل الملتجىء الى دار القنصل وشعار دولة العجم معلق على بابها يقف رجال الشرطة خارج الباب ويعودون ادراجهم خائبين .

وفي اول القرن الحادي عشر هجري الى اواخر القرن الثاني عشر كانت شوكة قناصل العجم قائمة وكثيرون من الدمشقيين خصوصا الجعفريين منهم كانوا يسعون للحصول على الجنسية الايرانية وكم جانٍ من كبار الجناة خلص من المشنقة بالالتجاء الى دور القناصل . وكان يأتي بعد القنصلية الايرانية القنصلية الروسية ثم الانكليزية والالمانية والافرنسية وهكذا الى آخر قناصل الدول التى لها علاقات وسفراء في البلاد العثمانية .

***

عباية :

منذ مائة سنة تقريباً تعين سرور آغا (قبوتولي) مديراً لشرطة دمشق وكان شجاعاً قطع دابر الشقاوة ، وكان يلبس العباية وقد اتخذ أشقياء دمشق آنذاك كلمة العباية دليلا على صاحبها وعندما يخرج سرور آغا من دائرة الشرطة او من داره يصرخ اول من يراه بكلمة عباية فيسمعها اقرب رجل فينادي بها وهكذا كل من سمعها يكررها ولا يمضي عشر دقائق حتى يعرف آخر رجل في المدينة ان سرور آغا متوجه نحوه وكان الاشقياء وارباب السوابق والمحكومون يفرون عند سماع كلمة العباية ويختبئون الى ان يمر سرور آغا . وبعد موته بقيت هذه الكلمة في أفواه الدمشقيين .

***

حاكم ظالم :

وقد استلم بلدية دمشق متسلم(١) ترك يدعى مصطفى بك وهو رجل شديد يعامل الناس بالقسوة والشدة وقد اطلقوا عليه كلمة عباية وقد وقعت له حادثة مع احد الوجوه يعرف منها مقدار تأثير القناصل في ذلك الزمان وهي ان السيد ابو الخير تللو جد صديقي الظريف المعروف السيد حسني تللو وهو من اكبر تجار الحبوب كان جالساً أمام بايكته(٢) مع بعض عملائه واذ بالنداء عباية عباية فلم يلتفت الى ذلك وبعد برهة وصل مصطفى بك المتسلم الى امام البايكة وكان الوقت شتاء فوجد امام بابها شيئاً من الوحول فقال للسيد ابو الخير لماذا هذا الوسخ امام باب مخزنك قال سننظفه الآن وكانت العادة في تلك الأيام ان ينظف الناس الشوارع والحارات والبلدية

---

(١) المتسلم موظف من قبل الحكومة كان يقوم بوظيفة رئيس البلدية .

(٢) البايكة هي عند اهل دمشق مخزن مبيع الحبوب ويسميها الحلبيون خان الحبوب .

تنظف الباحات الكبيرة واطراف دائرة الحكومة فقط ، وأمر احد الخدم ان ينظف المحل فأبى مصطفى بك وقال لاينظفه الا انت بيدك وبفروتك وكان يلبس فروة فتداخل الناس وتوسطوا لديه بان يقوم بالعمل احد العبيد الواقفين فأبى وأصر فما كان من السيد ابو الخير تللو الا ان اجابه أمرك مطاع وتناول المكنسة وهجم على مصطفى بك وأشبعه ضرباً بعصاها وفر من الميدان ودخل محتمياً بدار قنصل العجم فأجاره من الحكومة وأعطاه الجنسية العجمية وبقي السيد ابو الخير من رعايا الدولة الايرانية الى ان اقتضى له امر احتاج فيه ان يكون متجنساً بالجنسية العثمانية وكانت الأسباب التي دعته للتجنس قد زالت فرجع الى جنسيته الأصلية ولله الحمد ان حفيده السيد حسني هو اليوم من رعايا الدولة السورية .

***

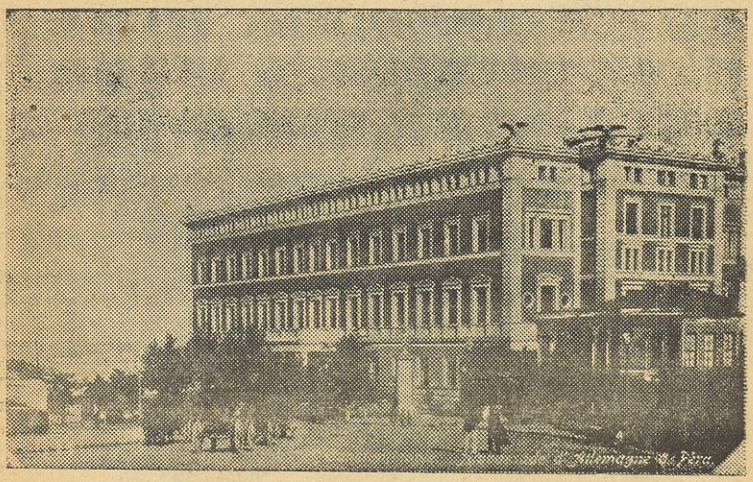

بناية السفارة الألمانية في الآستانه . كأنها قلعة من قلاع الأمتيازات الأجنبية

الامتيازات الاجنبية في بلاد الشرق :

ولم يتوقف الامر على بلاد الدولة العثمانية بل ان الدول الاجنبية خصوصا الدول المسماة بالعظمى كان سفراؤها ورعاياها عائشين في بحبوحة من الامتيازات يحفظون حقوقهم وحقوق رعاياهم ومن دخل تحت ظلهم وفي حوزتهم وكل ارض في الشرق اقام فيها اجنبي فهي بمقام ارض حكومته وسفراء الدول العظمى كانت سلطتهم وتأثير امتيازاتهم عظيماً في بلاد المشرق كالصين واليابان وايران وافغانستان والحبشة ومصر وغيرها من الدول الشرقية ، ولم يكن للسفراء في البلاد الغربية هذا التأثير وامتياز السفير فيها لا يزيد على ما يلزم لقضاء منطوق الاوامر المسلمة اليه وحكمه فيها حكم آمره لا يتعداه فانه اذا لزمه دين حق للدائن ان يصادره بالطرق القانونية .

واليابان بعد حرب سنة ١٩٠٥ وانتصارها على الروس اصبحت من الدول العظمى وارتفعت عنها سيطرة الدولة الغربية وصارت مثلهم وهكذا شأن القوي مع الضعيف فالضعيف مخذول والقوى ظالم متعسف ولله في خلقه شؤون .

***

الغاء العثمانيين الامتيازات واعلان الدستور :

بعد الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨م خفت وطأة القناصل ورعاياهم وبعد مدة الغت الدولة العثمانية الامتيازات الاجنبية واقامت لذلك احتفالات عظيمة وزينت جميع البلاد .

وفي هذا العصر بعد ان وضعت المعاهدات والمواثيق الدولية حدوداً للسفراء ورجال السلك السياسي وقفت كل دولة عند حدها واصبحت الدول في معاملاتها سواسية .

تأثير القبعة على الشرقيين :

من هذه الامتيازات اصبح للسفراء والقناصل حق بأن يعينوا من ابناء البلاد حراساً باسم « قواس » يرتدون (السراويل الطويلة مع الدوامر المزركشة بالقصب) ويحملون السيوف والعصي المفضضة وينتخبون من اقوى الفتيان ومن الطبقة المعروفة « بالقبضايات » ولباس رأس القواس قطعا هو الطربوش فالقدماء كانوا يلبسون الطربوش العباسي فوقه العمامة الأغبـاني ومع الزمن بدلوه بالطربوش العادي وما زالوا الى اليوم على هذا اللباس .

قواس قنصلاتو انكلتره

واثناء سير القنصل في البلدة في غير الأيام الرسمية يسير القواس امامه والسوط بيده ليفتح له الطريق ويدفع عنه الأذى ولم أر في حياتي من تجرأ على قنصل بأذى اثناء سيرهم في الأسواق واذا ازدحم الطريق وتأخر بعضهم عن فتحه امام القنصل فان القواس يستعمل السوط لتفريق الناس هذا كان قبلا وفي

اوائل القرن العشرين ابطلوا هذه العادة ومن ذلك الزمن اصبح القواس رمزاً لقوة الأجنبي وعنوان القناصل اثناء السير واذا ركبوا في العربات يجلس القواس جانب الحوذي ومن الشروط المطلوبة في القواس جمال الوجه وقوة القلب والعضلات وكبر الشارب فلا يؤخذ القواس الا من أجمل الشبان وأقواهم وأشجعهم . ولشدة ما كان يقاسيه اجدادنا وآباؤنا من تسلط الأجنبي ومساعدة الحكومات المحلية له جعل الخوف متأصلا في نفوسهم وانتقل منهم الينا واصبح الخوف من صاحب القبعة عادة ورثناها عنهم ومن طول الأيام التي تمتع الأجنبي فيها بهـــذه الامتيازات استأصلت عوامل الخوف في نفوس الشرقيين واصبحوا ينظرون للغربي نظرة الاحترام ومن عاشر الأفرنج في بلادهم وقضى معهم ولو مدة قصيرة وعرف حقائقهم لاتبقي نظرته اليهم تلك النظرة القـديمة وتصبح معاملته لهم كمعاملة الند للند وهانحن اليوم نعيش بهـذه النعمة في بلادنا ادام الله علينا الاستقلال وحفظنا من نوائب الدهر انه سميع مجيب .

***

حديقة الحيوانات :

تركت « القنصلية » وعدت الى الفندق واسترحت قليلا وانا افكر بمعاملة لطيف افندي لأبناء العرب ولما لم يكن لي من غرض في القنصلية قررت ان لااراجع قنصلا تركيا في عمري وخرجت للتفرج على مرسيليا ودرت بعض شوارعها فوجدت اجملها واكثر حركة فيها شارع البورصة وفيه اكثر المسارح وقاعات الملاهي وسألت عن احسن مسرح فدلوني على مسرح اسمه « فارييتـه - variété » وقـد دهشت من الحركة في هذا الثغر وجعلت اتفرج على الحوانيت والمخازن وانواع البضائع وحسن تنسيقها في الواجهات ولم اكن اعرف احداً في هذه البلدة ولكن من حسن

حظي اني التقيت برجل من ابناء العرب من الذين رأيتهم في « القنصلية » العثمانية فسألته عن احسن « الفرج » في هذه البلدة فقال جنينة الحيوانات وقال اذا شئت صحبتك اليها . فذهبنا وقضينا فيها ثلاث ساعات رأيت فيها اجناس الحيوانات والطيور والزواحف وغيرها على اختلاف انواعها وسررت جدا من هذه النزهة وعدت الى الأوتيل وتناولت الطعام واسترحت قليلا وخرجت الى شارع البورصة وما زلت اتنقل في هذا الشارع وانقل نظري من عربة الى سيارة « وكانت السيارات لم تزل في بدء عهدها » ومن واجهة حانوت الى سيدة متأنقة الى ان دقت الساعة التاسعة توجهت الى التياترو .

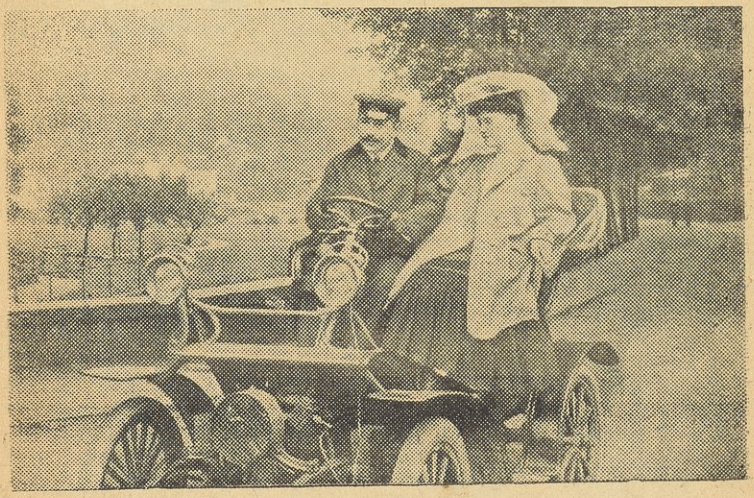

السيارات في عام ١٩١١

***

تياترو الفاريته :

هذا التياترو من ارقى مسارح مرسيليا ولكنه يأتي بالدرجة الثالثة بعد

مسارح باريس قطعت « البيليت » ودفعت خمس فرنكات وجلست في مكان متوسط واجرة المقعد تبـــدأ من « الفرنك الى الأثني عشر فرنكا » والحساب آنذاك على السعر الذهبي وموقع الفرنك الواحد اما في آخر طابق وهو الرابع واما في آخر الجالسين في الطابق الأول حيث يقف المتفرج طوال الليل على أقدامه .

وفي هذا المسرح « بوفات » يؤمها المتفرجون في اوقات الاستراحة « انتراكت » واللباس عادي وكانت تلك الليلة المقاعد جميعها ملأى والذي فهمته من المسيو جورج نادر في اليوم الثاني ان جميع مسارح مرسيليا دائما تكون ملأى بالمتفرجين وأكثرهم من الأغراب الذين يصلون مرسيليا في كل يوم .

***

كراندبال ماسكه :

في الساعة التي نزلت فيها الى مرسيليا وقع نظري على اعلان كبير يعلن عن حفلة راقصة كبرى مقنعة (كراند بال ماسكه) ولم اكن في عمري حضرت حفلة رقص وكنت اقرأ في الروايات عن المراقص المقنعة والسافرة والخيال يتسع لمثل هذه الأبحاث خصوصاً اذا كان قلم الكاتب سيالاً . وكانت نفسي مشوقة لاطفاء الظمأ لرؤية الحفلات الراقصة التي طالما كنا نتغنى بها على السمع . والحفلة موعدها يوم الخميس ٢ آذار ١٩١١ وستقام في مسرح الأوبرا في مرسيليا ، وكنت أينما سرت اجد على الحيطان في كل شارع اعلان الـ (كراندبال) فلم يعد يغيب عن فكري خاطر الاشتراك بهذه الحفلة وقد سألت صاحب الأوتيل عنها ففهمت منه ان لها البسة

خاصة اما لباس تنكر واما لباس اسود ولم يكن معي (بذلة) سموكن (١) - smoking) ولااريد شراء (بذلة) جديدة وعلمت انه يوجد محلات خاصة لايجار هذه البذلات فذهبت الى أحدها وصاحبته سيدة نصف ولما رأتني غريباً لاأحسن التكلم وعرفت اني اريد استئجار بذلة لحضور الحفلة اسرعت فأخرجت لي عدة انواع من الألبسة المزركشة التي يلبسها المهرجون في المسارح النقالة قلت لااريد هذا بل اريد (بذلة) سوداء فأحضرت لي المطلوب واتفقنا على خمس فرنكات اجرة البدلة في تلك الليلة ولما كنت أتكلم واراجع الكلمات في القاموس تجمع حولنا بعض عاملات الخياطة اللائي يعملن عندها وعددهن يزيد عن العشرين وجعلن يسمعن كلامي وبأقل من عشر دقائق صرنا كالأخوان وسألتني هل انت ذاهب وحدك ام معك رفيقة ؟ قلت وحدي قالت يوجد آنسة تريد حضور الحفلة وليس لها (كفاليه) يعني رفيق فهل تريد مرافقتها والأجرة لاتزيد شيئاً حيث بالتذكرة الواحدة يدخل الشخص والشخصان وبما انك وحيد فبنفس الأجرة يمكنك اصطحابها ، قلت هل هي لطيفة قالت نعم وسترى وخابرت بالتلفون سيدة اعلمتها انه يوجد طالب زراعة وحيد يريد حضور البال فهل تريدين ان تصحبيه فقبلت مع الشكر وبعد مدة قليلة دخلت سيدة بدينة قلّ ان يوجد مثلها في مرسيليا فقدمتنا صاحبة المحل الى بعضنا وهي تدعى (المدموازيل مرغريت براك) وصاحبة المحل تدعى « المدام (٢) جانيت روبي » .

---

(١) سيأتي بحث خاص عن اللباس في اوربا

(٢) المدام معناها السيدة يقال لكل امرأة متزوجة مدام والبنات مطلقا يقال لهن « مدموازيل » ويختصرونها فيقولون دموازيل يعني انسة هذا ما اصطلح عليه الفرنسيون .

معمل الخياطة :

معمل المدام روبي صغير بالنسبة لمصانع الخياطة الكبرى ، فيه نحو عشرين آنسة كل واحدة لها (ماكنة خياطة) والذي يلفت النظر ان جميع البنات كن مشغولات في تصليح الأثواب المأجورة الى الذاهبين للحفلة والمستأجرون ينتظرون في غرفة خارجية وكل منهم يحب ان يأخذ ثوبه قبلا وبينما كانت الآنسة مارغريت ترتدي ثوبها المصنوع خصيصاً لها وهو

لباس التنكر في حفلات الرقص والقناع

من أفخم الأثواب الخاصة (بالمرافع - carnavals) مصنوع بألوان مختلفة يضحك من النظر اليه زادها سمناً على سمنها وقد تأخرنا عن الساعة التاسعة فجعلت استعجل رفيقتي وهي تتأنى بارتداء ثيابها وفهمت انها تتأخر قصداً حتى تتم صاحبة المحل اعمالها وتذهب معنا . وكانت آنستان من الصانعات احضرتا لتفسيها لباسا خاصا لتلك الليلة وهذا اللباس هو بشكل

بذلات القرون الوسطى وعلى اطراف البذلات اجراس صغيرة من تلك التي توضع في رقاب القطط ، والقبعات كانت على طراز قبعة نابليون وضع على دائرها من هذه الأجراس فكانت البنت اذا تحركت انبعثت منها اصداء ناعمة من تلك الاجراس تلفت النظر ونحو الساعة العاشرة توجهنا بالموكب مشاة من شارع البورص الى الأوبرا واخذت الآنسة مرغريت من احد الاولاد الصغار تذكرة دخول وقالت لي ادفع له ثمانية فرنكات وكان ثمن التذكرة عشر فرنكات اذا اشتراها المرء من (شباك الأوبرا) وقد فهمت ان ادارة الأوبرا تعطي الفقراء تذاكر للبيع تخصم لهم فيها مقداراً من المبلغ المحدد كمساعدة لهم على فقرهم وهذه الحال رأيتها في كثير من المسارح في فرانسا .

وصلنا لساحة الأوبرة واذا بالأضواء تسطع فيها كالشموس والناس مصطفون على أطرافها يتفرجون على الداخلين فمنهم من يأتي بالسيارات ومنهم بالعربات والكثرة مشاة على الأرجل ونحن منهم طبعاً .

وكنا نسير مزدوجين اثنين اثنين في صف مستطيل وقد انتظم في صفنا بعض المتفرجين فصرنا (طابوراً) نمشي مشية عسكرية والناس تصفق لنا اذ كنت رفيع القد ارتدي البذلة السوداء وعلى رأسي قبعة سوداء مرتفعة وتسمى (هودفورم) وهي القبعة الرسمية وكانت رفيقتي الآنسة مرغريت بثوبها المنفوخ المخطط آية بالشخانة وقد استلفتنا الأنظار بهذا السير المنتظم المضحك .

ظل التصفيق من المتفرجين الواقفين في استدارة الساحة متواصلا الى ان دخلنا الأوبرا وكان كل واحد منا يضع على وجهه قناعاً مستعاراً يستر فيه القسم الأعلى من الوجه ويسمى بالأفرنسية (masque)

وفي الاوبرا كانت الجوقة الموسيقية داخل المسرح افرادها جالسون على المقاعد والمقاعد بشكل مدرج بحيث يظهر الجميع للنظارة .

وقد رفعت المقاعد من الطابق السفلي واصبحت قاعة الراقصين .

***

قاعة الرقص :

كانت القاعة المعدة للراقصين بديعة جداً يطل عليها المتفرجون من جميع الجهات فالرقص كان يجري في القاعة الأرضية وكانت الألواج ومقاعد جميع الطوابق ملأى بالجالسين واكثرهم مقنع ولا تقع العين الا على ازواج مزدوجة من النساء والرجال فالجالسون في الألواج وجميعهم من الأغنياء مع كل شلة منهم سفط فيه انواع الألعاب الصغيرة كالخشاخيش والزمامير ، والصفافير والمصفقات واوراق الكر ، واوراق الثلج .

(confetti) وبالونات مطاط من التي يلعب بها الاولاد يرمون هذه اللعب بين آونة واخرى فيلتقطها الراقصون ويزمرون بها ويرسلون البالونات في جو الصالون بعد نفخها ويصفرون بالصفارات واوراق الكر فهي عبارة عن بكرات من الورق يمسك اللاعب بطرف البكرة ويرميها الى بعد فيكر الورق منها بأشكال مختلفة كل بكرة بلون فيلتف الراقصون بهذا الورق دون ان يحصل لهم منه أذى كما ان ورق الثلج وهو ورق صغير مدور مثل الأوراق التي تبقى في اسفل الثقابة التي تثقب الأوراق لتوضع في الاضبارات وعندما يلقي من الأمكنة العالية بأشكال مختلفة تقع عليه الاضواء (فيرصف) ويكون له لمعان بديع وهو يتساقط فوق الرؤوس ومن كثرة ما الق من هذا الورق في تلك الليلة منع الراقصين من الرقص لكثرة ما اجتمع منه في الأرض حتى اوقف الرقص الى ان جمعوا ما تكدس من الأوراق .

وأعادوا الجمع ثلاث مرات . وقد اشتركت موسيقى الجيش بهذه الحفلة وعزفت بعض الألحان الشجية رقصوا عليها بسرور والرقص على انغام الموسيقى النحاسية يهيج الراقصين اكثر من الحان الموسيقى الوترية التي عادت بعد انتهاء الموسيقى العسكرية .

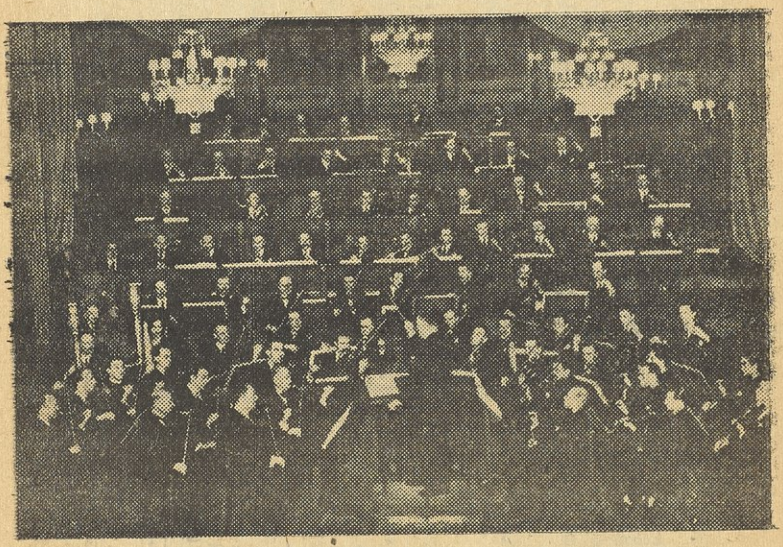

جوقة موسيقية افرنسية

رقصة الكادريل :

من أجمل الرقصات التي رأيتها رقصة تسمى الكادريل يمسك الراقصون أيدي بعضهم فيصبحون حلقة ويرقصون بخطوات موزونة ويدورون في القاعة والراقصون يجب ان يكونوا من الجنسين الخشن والناعم على التوالي وفي هذه الرقصة تجري مداعبات لطيفة عندما تشتد الرقصة فأصحاب الروح الخفيفة يأتون بحركات تضحك الحاضرين والمرء في مثل هذه الحفلات يحسب نفسه مقصراً اذا كان بأمكانه اضحاك الناس ولم يفعل .

وبما اني لم أكُ أعرف الرقص فلم اشترك في اي رقصة بل كنت اسير بين النظارة والمتفرجين وارجع الى المكان الذي جلسنا فيه حين دخولنا وقد وضعت كل سيدة من اللائي كنا معنا حقيبة يدها وبرامج الحفلة على مقاعدهن وبذلك حفظن المقاعد فكنت اسير وارجع الى المكان وهو في الطابق الثالث واجلس قليلا للأستراحة ثم ادور في المقاصير والممشى فأرى الناس كالطيور المزدوجة كل اثنين منها على غصن يتناجيان وانا وحيد اسير بمفردي انتظر انتهاء رفقائي من الرقص لنجتمع .

☆☆☆

مرغريت ترقص :

من أبدع ماجرى في تلك الليلة ان رفيقتي مارغريت طلبت مني ان ارقص فاعتذرت فاصرت متعجبة من امتناعي قلت السبب الوحيد هو اني لاأعرف الرقص فنظرت الي بدهشة متعجبة قائلة « تيه ن » وهي كلمة تعجب يقولها الأفرنسيون اذا فاجأهم خبر غير منتظر .

ولما اكدت لها الأمر وفهمت الحقيقة مني بعد صعوبة بالتفهيم لعجزي باللغة قالت اذاً اسمح لي ان اجد لي مراقصاً يراقصني قلت تفضلي فقامت وبعد بضع دقائق واذا بالضجة والتصفيق ينبعثان من جميع الجهات والناس جميعهم ينظرون الى جهة واحدة واذ بالمدموازيل مرغريت ترقص مع رجل بدين فكانا أضخم راقصين في تلك الحفلة وقل ان يُرى مثلها بهذه الضخامة لاحفلة مرسيليا بل في الدنيا على ماأظن ، وكانت دقائق لطيفة سرّ لها جميع الحضور وبعد انتهاء الرقصة صعدت مع راقصها الى ان اوصلها الى عندنا فجلست وهي تعبة تنفخ كالبقرة وتمسح العرق المتصبب من جبينها ، وانحنى الرجل البدين مودعاً وادار ظهره للذهاب من عندها وقمت بسرعة

واخذت مروحتها وفتحتها ووقفت على مقعد في جانبها وجعلت اهوّي لها وهي تحنية ضخمة وانا رفيع « ممروت » وهكذا ضج الناس بالتصفيق وقضينا سهرة من ألطف السهرات وكنت آسفاً لعدم تمكني من الرقص تلك الليلة.

***

الرقص :

الرقص والموسيقى عنصران تأسسا على الوزن ولهذا فقد عاشا معاً منذ عرفا ولا اريد ان ابحث عن تاريخ الرقص بل سأذكر الأنواع التي كانت مستعملة في تلك الأيام . وانواع الرقص كثيرة : التاريخي ، الديني المسرحي ، التمثيلي ، « رقص القصور الملكية — باله دوكور » الرقص الشعبي ، الجمعيات ويقال له رقص الصالونات وانواعه كثيرة والتي كانت منتشرة تلك الايام هي « البولكا » مازوركا ، كادريل ؛ فالس » وبعضها يستعمل حتى الآن كالفالس مثلا وسأرجىء الكلام في هـــذا البحث الى الأبحاث القادمة .

***

الوداع :

في الساعة الثانية بعد منتصف الليل جعل الناس ينصرفون الى بيوتهم وقد تعب رفاقي من الرقص فعزمنا على الذهاب وعرفوا اني مسافر هـــذا الصباح الى مونت بيليه فعزموا على مرافقتي الى المحطة وبعد ان بدلنا لباس السهرة ذهبنا الى مطعم قريب من الفندق تناولنا فيه شيئاً من الطعام وأحضرت حقائبي وفي الساعة الخامسة كنا في المحطة وقد بقي لحركة القطار ربع ساعة وضعت حقائبي فيها في احدى العربات ولما صفر « الكساري » ودعتهم وبكت السيدات فابكينني وأحسست كأني اودع اسرتي كما اني

لحظت انهن كأنهن يودعن قريباً لهن وهذا من خلق الأفرنسيين في بلادهم فبقدر مارأيت من شعبهم نساء ورجالاً من العطف والنبل بقدر مارأيت من مستعمريهم نساء ورجالا من الفظاظة والغلظة ، وفي الأبحاث الآتية سيطلع القارىء على حوادث كثيرة تثبت أقوالي في الحالتين .

سار بنا القطار وانا اشير اليهم بمنديلي وهنّ يشرن لي ، الى ان غبن عن عيني ووصلت الى مونت بيليه قرب العصر يوم الجمعة في ٩١١/٣/٣.

مونت بيلية :

وصلت مونبيليه وكان بانتظاري صبحي بك الحسيبي احد طلاب المدرسة الزراعية وكنت اعلمته من مرسيليا عن ساعة وصولي وبدلالته قضيت الليلة الأولى في احد الفنادق وفي اليوم الثاني نقلني الى پانسيون عند سيدة عجوز ليس في الدار غيرها « سامحه الله على هذه الاستفادة » .

وبلدة مونت بيليه واقعة في جنوبي فرانسا وهي مركز مقاطعة الهيرول تبعد عن باريس ٧٥٢ كيلو متراً نفوسها كانت تقرب من الثمانين الفاً وتعد اول بلدة للعلوم في فرانسا فيها معاهد كثيرة ، معهد للآداب وآخر للعلوم وللصيدلة وللطب ويقال ان بناية المعهد الطبي هي من بقايا آثار العرب الذين احتلوا هذه المدينة عندما احتلوا اسبانيا وفيها من المعاهد ايضا معهد للصناعة وآخر للتجارة ، وفيها مركز جمعية الطب والجراحة ومجمع علمي تأسس سنة ١٨٤٧.

مياهها العذبة تأتيها من قرية « سان كليمان » والمياه تمر في قناة فوق قناطر كقناطر المياه في حماة وهي التي ترفعها اليها النواعير وفيها موقع بديع يسمى البيرو وهو من اجمل باحات المدن في اقصاه قصر قديم مبني في القرن السادس عشر يدعى « شاتودو » يقع في الجهة الغربية للمدينة.

وفيها متحف صغير وبالرغم عن صغره بالنسبة الى غيره من المتاحف فان فيه من الآثار اشـــياء قديمة ثمينة جداً لا يوجد لها نظير تأسس سنة ١٨٢٥.

وفي ساحة المدينـــة مسرح يسمى « كراندتياتر » اي التياترو الكبير » وبالرغم عن اسمه فهو مسرح صغير بالنسبة للمسارح الكبرى في فرانسا .

***

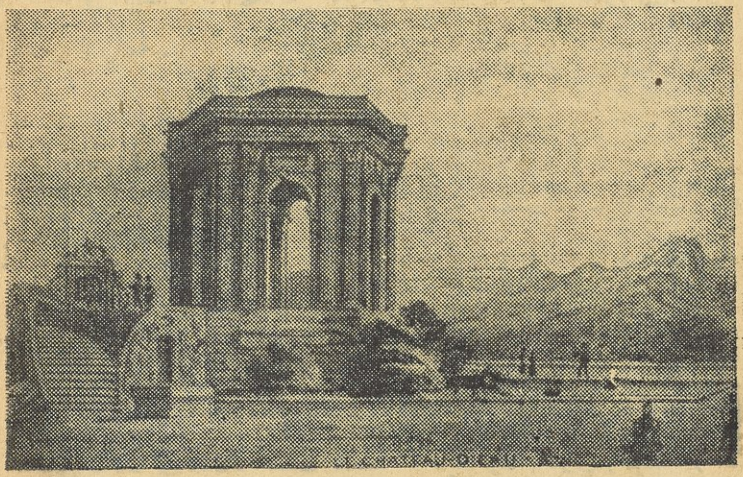

« شاتو دو » في مونت بيلية

المدارس الزراعية في فرانسا :

كان في فرانسا ثلاث مدارس زراعية كبرى في مونت بيليه وفي كرينيون وفي رين وهذه المدارس من أعظم مدارس العالم الزراعية ، يخرج الطالب منها بشهادة مهندس زراعي ويوجد غيرها مدارس زراعيـة من الدرجة الثانية تسمى « فيرم ايكول » سيأتي البحث عنها.

مدرسة مونت بيليه الزراعية :

هي من المدارس الكبرى في فرانسا ذات ثلاثة صفوف تدرس جميع الدروس الزراعية الآتية : الزراعة العامة ، النباتات ، الآلات الزراعية ، المروج والمراعي ، الحيوانات وتربيتها ، الدواجن ، الكروم ، عمل الخمور بجميع انواعها ، الألبان بجميع أنواعها ، طبقات الارض ، الري ، مصارف المياه ، الأمراض النباتية ، لمحة مختصرة عن أمراض الحيوانات وهذه اقل من دروس البيطرة ، الصنائع الزراعية وغير ذلك من الدروس اللازمة لمهندس الزراعة .

***

انتقالي الى غرفة :

في اليوم الثاني من وصولي الى مونت بيليه انتقلت الى غرفة استأجرها لي صديقي الحسيبي بأربعين فرنكاً مع الطعام لمدة خمسة عشر يوما عند سيدة تدعى مدام (آليس دوموندا)

تسكن في شارع « دوله ربيريه rue de l'Herberié » وهي ارملة موظف توفي قريباً جاءت معه بحسب وظيفته من بلدتها نيس وكانت تنتقل معه من مكان الى مكان حسب اقتضاء الوظيفة ولا ادري وظيفته ولكن الذي يظهر من أثاث الدار انه كان في وظيفة لائقة .

***

البانسيون :

البانسيون هو عبارة عن غرفة مفروشة للايجار يستأجرها الطالب بمبلغ يتفق عليه مع صاحبة المنزل « والبانسيونات » قسمان عادي « وبانسيون دوفاميل » عائلي ، والعادي هو استئجار الغرفة بفرشها دون

طعام ، اما العائلي فهو استئجار الغرفة مع الطعام والغسيل وجميع مايحتاج الانسان فيكون في غرفة كأنه في داره وهذه البانسيونات كثيرة في فرانسا وأكثر أصحابها من النساء الأرامل اللائي يفقدن ازواجهن وهذه

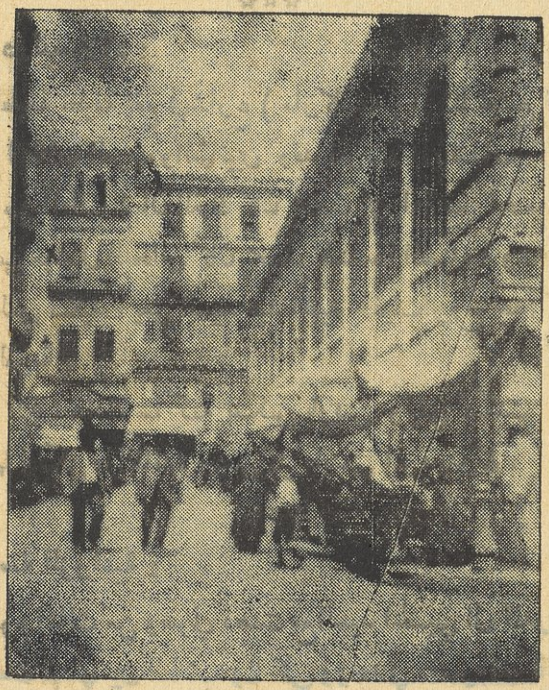

البانسيون الذي كنت اسكن به X

البانسيونات منها مافيه الراحة ومنها مافيه العذاب وهذا حسب طبائع صاحبة الدار وسأذكر بعض الحوادث عن اخلاق اصحاب البانسيونات التي سكنتها في ليون وباريس .

أما المدام آليس هذه فكانت عجوزاً طيبة حسنة الأخلاق عاملتني

معاملة الأم لولدها . اولادها الاربعة موظفون كل منهم في ناحية وليس معها في الدار غير ابنها الكبير وهو رجل في نواحي الاربعين من عمره طيب العنصر حسن التربية قضيت معها أحسن وقت مدة اقامتي عندها.

***

قهوة دوليسبلاناد :

قهوة لطيفة نظيفة تقع في شارع (ماركاديه) ، كنا نجتمع فيها اوقات الفراغ مع الطلاب العرب والعثمانيين وقد تعرفت الى شاب تركي يدعى جواد بك من ألطف شبان الترك كان يحصل الزراعة مع الحسيبي وشاب دمشقي يدعى ميشيل النحاس كان يحصل الهندسة الصناعية وشاب مصرى ينادونه « السي مكيد » يعني السيد عبد المجيد خفيف الروح جداً كان يخفف عنا آلام الغربة .

وهذه البلدة هادئة ساكنة بعكس باريس وليتني تمكنت من اتمام دروسي فيها ولكن ما الفائدة وليس كل مايتمنى المرء يدركه .

***

المدرسة الزراعية :

في اليوم الثالث من وصولي ذهبت مع السيد الحسيبي الى المدرسة وقابلت المدير وطلبت قيدي بين الطلاب ولما كلمني ووجدني مقصر باللغة قال لا يمكنه قبولي اذا لم احسن التكلم والقراءة بالأفرنسية وعليه طلب مني ان اداوم على مدرسة ابتدائية لتعلم اللغة الأفرنسية ومن العيث قبول مثلي في الصفوف الابتدائية في تلك البلاد ولما عرفت انه لا يمكنني الدوام في هذه المدرسة جعلت أبحث عن مدرسة متوسطة يقبلونني فيها الى ان احسن القراءة والتكلم بالأفرنسية فأرشدوني الى مدرسة زراعية في لبون تدعى (ايكول فيرم)

فعزمت على السفر الى ليون وقبل انتهاء الخمسة عشر يوماً التي استأجرت فيها الدار اعلمت المدام آليس بالأمر وافهمتها عذري واضطراري للسفر فقبلت العذر وأرجعت لي الفرق عن الأيام السبعة الباقية لأني قضيت في مونت بيليه اسبوعاً في المراجعة ولما انقطع أملي غادرتها الى ليون لدخول مدرستها وركبت القطار باكراً وخرج لوداعي السيد الحسيبي والمدام آليس وابنتها و « السي مكيد » ورأيت من هذه السيدة في هذا الأسبوع عطف الوالدة ووداع الأم الولد فكنا نبكي كلنا عند الوداع ولا ازال اذكر ما أصابني من

صبحي بك الحسيبي وجواد بك الترك

التأثر البليغ من هذا الوداع والانسان اخو الانسان أينما كان وليت أطماع السياسيين تزول من الرؤوس ليعيش البشر اخواناً على وجه هذه البسيطة ولكن ما العمل وأطماع الطامعين تزعج الخلق على مر السنين .

في القطار :

القطر في فرانسا منظمة بالنسبة الى القطار الذي نعرفه في سوريا . وهي : « رابيد سريع » لايقف الا على المحطات الكبرى واكسبرس هو اقل سرعة من السريع ولا يقف الا على المحطات الكبرى والمتوسطة والقطار العادي يقف على جميع المحطات والأجرة تختلف باختلاف القطر ويجتمع الانسان في القطار بأشخاص مختلفين من جميع الأمم وعلى المسافر ان يحترم جميع الركاب مهما كانت طبقتهم وسنهم وعند الصعود والهبوط من والى القطار يجب التأني بالمسير وعدم دفع الناس للوصول الى المقعد بسرعة والأحسن للمسافر في القطار ان يصل قبل ربع ساعة من قيام القطار الى المحطة ليتمم نواقصه ويجد مقعده بسهولة وراحة فلا يعكر على غيره بالدفع و « الدفش » ومن عادات الأوربيين في القطار احناء الرأس بالسلام عند الدخول والخروج من عربات القطر خصوصاً اذا كان في العربة سيدات .

من أقبح العادات قلع الحذاء اثناء السفر واذا كانت رائحة أرجل المسافر كريهة فانه يؤذي الركاب ويسلب راحتهم وهـــذا لايجوز مطلقاً ان يكون .

***

الكلاب في القطار :

ومن المعيب اخذ الكلاب في القطر واركابها في عربات الركاب ولبمكان المسافر ان يشحن كلبه بقفص في « الباكاج » عربة الشحن فيضع له طعامه والماء ويستلمه في محطة البلدة الذاهب اليها . وكثير من الحكومات الأوربية تمنع ركوب الكلاب مع المسافرين في القطار .

***

التدخين ممنوع :

والتدخين ممنوع في القطر ولكن بعضهم يدخن رغم المنع اذا كانت نوافذ العربة مفتوحة. خصوصاً في الشتاء فان الدخان يؤذي الركاب وعلى الأكثر السيدات منهم ولذا على المسافر مراعاة هذه العادة والاستئذان من المسافرين بالتدخين قبل البدء فيه واذا رجاه أحدهم بعدم التدخين يجب ان يمتنع لأن بعض الأمراض يضرها دخان السكاير خصوصاً مرض الربو « آسم » وفي بعض القطارات يمنع التدخين ومن اراد التدخين فليخرج الى الممشى وبمناسبة التدخين في القطار :

***

القت الغليون :

ذكروا انسيدة في قطار طلبت من احد الركاب عدم ازعاجها بالتدخين وكان بيده غليون يدخن فيه فلم يلتفت الى احتجاجها وأعادت الطلب بشدة فلم يأبه لها فأخذت الغليون من يده وألقته من نافذة القطار وهو في سيره فلم يغضب الرجل لكنه مد يده وأخذ كلب السيدة الصغير والقاه من النافذة فقامت قيامة صاحبته وجاء شرطي القطار واجتمع الركاب من كل صوب وكانت المحطة قريبة وما كاد القطار يقف وينزل الشرطي والمتخاصمين الى رصيف المحطة لأجراء التحقيق حتى رأوا الكلب الصغير يركض نحو المحطة وفي فمه الغليون فأخذت السيدة كلبها والرجل اخذ غليونه و « قلمو الدق مانعاً واحدة بواحدة » .

***

وصولي الى ليون :

في الساعة الثانية بعد نصف الليل وصل القطار الى ليون وكان البرد

قارساً جداً والرياح الباردة تسلخ الوجوه ، ليس معي ترجمان ولا أعرف اللغة ولم أصادف أحداً أعرفه وتقدم مني رجل لايحمل اي (شارة) علامة على عضده أو في صدره كالحمالين أو الادلاء الرسميين وسألني عما اريد قلت اريد فندقاً رخيص الأجرة « بون مارشه » قال تفضل وكنت وضعت الحقيبة وصندوق ادوات الطعام عند حارس الثياب « كار دي روب » فسلمته الحقيبة والصندوق ودفعت الأجرة ثلاث « سوات — السو واحد من عشرين من الفرنك » عن كل وحدة ليحفظها لي الى الغد واخذت

محطة بروتو في ليون

وصلا مهره بختم الغرفة وسرت مع الدليل الى خارج المحطة فوجدت عربات الأجرة منتظرة الركاب واكثرها بحصان واحد وسرنا على الأقدام وانا احمل بيدي علبة القبعات وكنت اشتريت من الاسكندرية ثلاث قبعات احداها « ميلون — نصف رسمية » وهي تشبه بطيخ الشمام والثانية قبعة

عادية والثالثة للسفر « كسكيت » ووصلنا الى اوتيل جانب المحطة والمسافة بينهما لاتزيد عن المائة وخمسين متراً واخرجت فرنكا لأعطيه اياه فلم يقبل وطلب عشرة فرنكات مع ان اجرة الغرفة في الفندق فرنكان ، قلت لماذا العشرة قال اجرتي وجعل يعلي صوته ولم اقدر ان اتفاهم معه وكلما اشار له البواب بالسكوت زاد بالصراخ حتى أقلق سكان الفندق ولما رأى البواب ان الرجل « فاجر » دفعني واياه الى خارج الفندق والقى بعلبة القبعات الى الخارج واغلق الباب وبقيت على الرصيف والهواء العاصف يسفع الوجوه وعندما وقعت علبة القبعات على الأرض فتحت وخرجت منها القبعات ودارت القبعة « الميلون » على حرفها والشارع منحدر وكانت شدة الهواء تدفع القبعة فلم اتمكن من اللحاق بها الا بعد جهد جهيد والرجل يركض خلفي ، اخذت القبعة بعدما امتلأت بالوحول والتفت الى الرجل وقلت واخيراً ماذا تريد قال اجرتي قلت إما ان تأخذ فرنكاً واما تفضل الى مخفر الشرطة واذا ابيت فليس لك من دواء الا هذي العصا فاضطرب الرجل عند سماعه كلمة الشرطة وقبل بالفرنك أخذه ومضى يشتمني بكلمات لم افهمها وكانت شتائمه لي بصوت عال فتركته يهذي ومشيت نحو مقهى قريب وانا اضحك وجلست في المقهى استريح وطلع الصبح ، وسألت صاحب المقهى عن محلات ابناء العرب في ليون فقال اذهب الى الجامعة وبقيت في المقهى الى الساعة الثامنة ونصف ثم ذهبت الى الجامعة وجلست انتظر خروج الطلاب الى الساعة الحادية عشرة واذ بشبان خارجين وبينهم شاب اسمر طويل فتقدمت منه وقلت السلام عليكم فرد السلام وتقدم مني وصافحني بشوق وحرارة والتف حولنا بضعة ظلاب جميعهم مصريون وتعارفنا « على الواقف » وقالوا هيا الى المقهى وكان بالقرب من الجامعة مقهى يدعى مقهى السلام .

منهى السلام :

وما كدت اخبرهم خبري حتى تكاثر الطلاب المصريون واصبحوا مقدار عشرة شبان وكلما جاء واحد يعرفني به الشاب الأول واسمه السيد فؤاد وعرفني بشاب يدعى محمود فخري وهو ابن احد اغنياء القاهرة جاء لدرس الحقوق في ليون دعاني لتناول الغذاء وتلطف بأن يكون دليلي وكثرت سؤالات هؤلاء الشبان عن حالة البلاد العثمانية والحرية والدستور وكلهم متعطش لسماع اخبار العثمانيين وجميعهم من أنصارهم يكرهون الانكليز وكانت الروح الوطنية تتوثب في صدور هؤلاء الشبان المصريون الذين يستفسرون عن الانقلاب العثماني بكل تلهف ويسمعون كلامي بكل شوق وارتياح وبعد ان قضينا ساعة في الحديث تفرق الطلاب ووعدني فخري بانه سيجد لي في الغد « بانسيوناً » عند اسرة كريمة ليوفر علي شيئاً من اجرة الفنادق .

ثم اخذني الى فندق قريب بت فيه ليلتي وفي ظهر اليوم الثاني جاءني حسب الوعد واخذني الى دار سيدة تدعى مدام ماري شوبان تسكن في شارع « بوبوكو » وهي آية في الشناعة وابنتها صورة طبق الاصل عن والدتها . استأجرت الغرفة بثمانين فرنكا مع الطعام والغسيل في الشهر مشترطا تركها بعد خمسة عشر يوما اذا لم اجد فيها الراحة ودفعت مقدماً عشرين فرنكا على الحساب

***

فورم ايكول :

هذه المدرسة من المدارس المتوسطة تعلم الطالب الزراعة العملية مع قسم بسيط من العلوم النظرية ومعناها مدرسة المزرعة ذهبت اليها مع

المدام بلانش كومبو وصديقي فخري محمود وكان المدير بانتظارنا بناء على وعد مع المدام بالتلفون . وبعد التعارف طلبت دخولي في المدرسة وقدمت له شهادة المدرسة الاعدادية فقال ارجو ان تترجمها وتصدقها من قنصلكم في ليون ودعانا لزيارة المدرسة فصحبناه ودار بنا على جميع الصفوف وعلى الاصطبل ومحـــل الدواجن وحديقة المدرسة وارانا الآلات الزراعية الميكانيكية الحديثة واحتفل بنا جداً ووعـدني بقبولي بعد ترجمة الشهادة وفي هذا اليوم بعد رجوعنا الى ليون زرت القنصل وقدمت له الشهـادة طالباً ترجمتها والتصديق على الترجمة وكان القنصل العثماني قنصـلا فخريا من تجار ليون الافرنسيين ولما لم يكن لديه ترجمان يحسن الترجمـة طلب مني ترجمتها ليصدق عليها وذهبت ابحث عمن يحسن الترجمة وكنت كتبت كتابا الى احمد قدري احد طلاب الطب في باريز من ابناء دمشق اعلمـه بقضيتي وطلبت منه ترجمة الشهادة وتصديقها من السفارة فاخذت الجواب بعد يومين يطلبني فيه الى باريز ليدخلني في مدرسة كرينيون لان فيهـا مدرسة كمدرسة ليون واكون بقرب الطلاب السوريين فعزمت على السفر الى باريز وبدأت اقطع علائقي من ليون وقبل الرحيل منهـــا لا بد من ذكر شيء عما رأيته فيها

***

مدينة ليون :

ثالث مدينة في فرانسا وهي مركز اقليم الرون يمر فيها نهران « الرون والساون » نفوسها تقرب من النصف مليون « آنذاك » فيها جامعة كبيرة يدرس فيها الفروع الآتية : الحقوق ، الطب ، الصيدلة ، العلوم ، الادب ، الموسيقى ، وفيها مدرسة عسكرية للطب . وفيها معاهد علمية كثيرة منها معهد ،

للرياضة ، للتجارة العليا ، للكيمياء الصناعية ، للحياكة ومدرسة اعدادية للاستعمار تسمى « Ecol De preparation colonial » ..

اسست سنة ١٨٩٩ وفيها معهد للفنون الجميلة ، ومعهد هندسة وفيها معهد موسيقى « قونسروا توار » اسس سنة ١٨٧٢ اسسه المسيو « مونكن Mongin » رئيس الأوركسترا في الأوبرا وهذا المعهد مربوط « بكونسرواتور باريز » لهذا المعهد بناية لا بأس بها فيها ١٢ قاعة للدرس منها قاعتان كبيرتان للاجتماعات تتسع احداها لأكثر من ثلاثماية شخص ، وفي ليون ١٢ مدرسة تجهيزية ثلاثة للذكور واربعة للاناث واربعة مختلطة كما ان فيها مدرسة صناعية الميكانيك اكثر هذه المدارس رأيتها من الخارج وبعضها زرتها مع محمود فخري ولا يمكنني ان ابحث عنها بالتفصيل لأني لم ادرس احوالها بدقة والذي يمكنني ان اقوله ان رؤية هذه المدارس والمعاهد وانكباب الطلاب على تحصيل العلوم فيها جعل في نفسي شيئاً يدفعني لاتمام التحصيل لأخدم امتي المسكينة وكم كان الخيال يتجسم في رأسي فأرى نفسي ساعياً لفتح المدارس والمعاهد في بلادي مجداً في دفع الطلاب للتحصيل للنهوض ببلادي والسير بها في موكب الحضارة واني احمد الله بأنني لم امت حتى رأيت بأم عيني أمثال تلك المعاهد والمدارس في دمشق تقوم بدلاً عن « الخجوات والكتاتيب » .

***

المدام شوبان :

صاحبة « البانسيون » بقيت معها خمسة عشر يوما ولا بد لي من ذكر كلمة عنها .

افرنسية كالافرنسيات العريقات « بالنروزة » وبالرغم عن اللطف الذي

متظاهر به فاقل كلمة كافية لان « تطلع خلقها » قلت اني كنت اشترطت ان اكون حراً بعد الاسبوعين اذا لم اجد في دارها راحتي ولما اخبرتها اني مسافر الى باريس قامت قيامتها والمصيبة عجزت عن تفهيمها مرادي لعدم معرفتي اللغة الافرنسية وراحت تعاتبني وتمن علي بما قامت به نحوي من الخدمات خارجا عن الشرط وهو انني سألتها في يوم عن محل لرفو الثياب وأريتها طرف سترتي وقد اصابها العث واكل منهـــا بمقدار ظفر انسان فقالت لازوم للرفّاء انا ارفوها لك وبالفعل اصلحت السترة « الله يستر عليها » وشكرتها على ذلك وعندما عرفت اني سأغادر الدار قالت الم ترتح عندي ألم يكن الطعام جيداً ونظيفا ألم ألم . . . ألم ارفو لك السترة دون مقابل واضع الخيط من عندي قلت بلى وقد شكرتك آنذاك قالت اذا لماذا انت ذاهب وجعلت ابنتها « تتنروز » اكثر من امهـا حتى انها من شـدة تأثرها بكت وكادت تبكيني ولم اقنعها باني مسـافر الى باريس حتى اتيت بفخري يشهد بذلك وبعد ان اقسم بشرفه صدقتاه وغادرت الدار على ستر وسلامة .

***

اقتصاد الأفرنسيات :

كان في غرفتي مصباحان اشعلتها في الليلة الاولى واذ بالسيدة تنبهني الى لزوم الاقتصاد بالنور وذلك باطفـاء المصباح الواحـد اذا لم يكن عندي ضيوف لان المصباح الواحد يكفيني للمطالعة واشمال المصباحين يعد تبذيراً واسرافا فاجبتها الى طلبها وسرت حسب اشارتها الى ان غادرت الدار .

***

صحن بفرنك :

كانت المدام شوبان تشعل في المطبخ مصباحا غازيا وفي احد الايام رأيتها تفتل اوراقا من الجرائد وتجعلها رفيعة على شكل السهام هذه الاوراق تضعها في المطبخ باداة كالكنانة معلقة جانب المصباح فاذا ما اعتم الوقت اخذت ورقة وشعلتها من « الطباخ البريموس » وانارت فيها المصباح فقلت لها لماذا تعذبين نفسك بهذا العمل والكبريت رخيص . فضحكت وقالت يا ولدي انا فارغة الآن والجرائد لم يعد لي حاجة بها فاذا استفدت من هذه الاوراق بعض الفرنكات في السنة بامكاني ان اشتري بكل فرنك صحنا او كاسا من البلور افيد منها في الدار اوفرهما من ثمن الكبريت وما دام الطباخ مشعلا فلماذا الاسراف في الكبريت وكبريته فوق كبريته يجتمع منها علبة بل علب فسكت وقلت ويل المسرفين وفكرت بهذا الحادث عندما احتل الأفرنسيون سوريا وقلت أي وقعة سوداء مع امة نساؤها توفر الكبريتة لتربح منها فرنكا في السنة .

***

مرافع نصف الصوم :

صدف وجودي في ليون في منتصف الصوم عند الكاثوليك فحضرت المرافع في ليون ويسمونها (كافالكاد دو ميكاريم) . يفطرون بها ويستبيحون الخلاعة ويكثرون من عمل المساخر وقد ضربوا الخيام واقاموا اسواقا في الباحات والطرق التي حول بنايات الجامعة وتقلت البضائع على انواعها لهذه الخيام كما انهم اقاموا سرادقات كثيرة من سرادق « السيركات » (١) عرضوا

---

(١) « السيرك » ملعب كبير متنقل يقام تحت الخيام يتنقل به اللاعبون من بلدة الى بلدة .

فيها كثيراً من الألعاب « البهلوانية » والتمثيلية والمضحكة والكركوز الأفرنجي المسمى marionnette وهي دمى من اللعب الصغيرة على اشكال مختلفة لها في رأسها خيوط من مطاط يمسك بها رجل جالس في اعلى مسرح صغير يساعده مساعد او اثنين حسب الألعاب التي يقوم بها فيمثل رواية وجميعها مضحكة ويسيّر الدمى بالخيطان وفي صدر المسرح الصغير ستارة

منظر من مناظر ليون

سوداء والأضواء مطفأة والمسرح مضـــاء بمصابيح خفيفة بحيث لا يرى المتفرج الخيوط حينما يحركها اللاعب فيظن ان الدمى تسير من نفسها وهذه اللعبة يحبها الأولاد والروايات التي تمثل ليس فيها كلمة بذيئة بخلاف العاب الكركوز عندنا .

***

خيمة المولوية :

رأيت في المرفع خيمة كبيرة عرفت انها مخصوصة لفتل الدراويش فيها دفوف مرفوعة عن الارض مقدار نصف متر جعلوا حولهـــا دائرة من الحبال تفصل المتفرجين عن اللاعبين ووضعوا على باب الخيمة اعلانات كبيرة فيها رسوم الدراويش « بكلاهاتهم » (١) الطويلة واجرة الدخول « ثلاثة سوات » والسو واحد من عشرين من الفرنك .

دخلت لأرى هذه « الفرجة » وكان الفصل يتجدد كل ساعتين ورأيت في الداخل جماعة اخلاط يقلدون الدراويش بالفتلة والطقوس التي تقام في التكايا في المواسم الدينية وجوقة موسيقية مركبة من ثلاثة نايات وكمان وقانون ونقرزان والدراويش اخلاط من ترك وعرب من اسلام ومسيحيين جماعة مرتزقة جعلوا هذا العمل ويسميه الدراويش « مقابلة » باباً للرزق وقد تأثرت جداً من هـذا المنظر لأن القائمين به كانوا يتخذونه هزءاً لأضحاك الناس عليهم والدولة العثمانية لاتحتج على هذا العمل وكيف تحتج وقنصلها في ليون افرنسي مسيحي فتأمل .

***

الأسود :

من أهم الألعاب اسود ستة من اكبر الأسود يلاعبها مروض شاب فتركض بين يديه كما ترقص الكلاب بين يدي الصياد وفي يده سوط طويل مثل سوط الحوذي « العربجي » يضرب الأسد فيه ضرباً موجعاً فيذل ويطيع المروّض ويجري الحركات المطلوبة منه بصعوده على مقاعد

« ٢ الكلاه كلمة فارسية معناها القلنسوة كانوا قديماً يتعممون فوقها واخيراً بقيت اسماً للقلنسوة دراويش المولوية وسياتي بحثها .

خشبية خاصة لوقوفه على الارجل ووضع الأيدي على حديد الاقفاص والخلاصة انها فرجة مخيفة يقف المتفرج ماسكاً قلبه بيده خوفاً على المروض الواقف بين ستة اسود في قفص صغير .

رقص البراغيث :

الغربيون لايتركون ناحية يمكنهم الاستفادة منها ولهم روح مطاطة بتدريب وتعليم الحيوانات الكبير منها والصغير ومن اغرب مارأيته في المرفع رجل يرقّص البراغيث ولولم اربعيني رقصها لما صدقت الخبر . رجل امامه صندوق صغير فيه لوحة من البلور في آخرها ابواب صغيرة تحت اقواس تفتح فيخرج منها عدة براغيث داخلها نتف من الشعر والصوف يقف المتفرج امام الصندوق بعد دفع الاجرة وهي فرنك عن المتفرج وكلما صار عدد المتفرجين اكثر من عشرة يفتح الرجل الابواب ويضرب باصبعه امام الابواب عدة ضربات ويبدأ بالتزمير بزمّيرة فم فيخرج بضعة براغيث الى الباحة وتبدأ ، بالوثب والنط مادام الرجل يزمر ومتى قطع التزمير وقفت البراغيث تستريح « انتراكت » ثم يعود الى التزمير ويضرب بأصبعه على الزجاج فتعود البراغيث للرقص والنط واخيراً يقطع التزمير فتقف البراغيث ويفتح ويدق بأصبعه على الزجاج فتثب وتهرع الى مقرها وتغلق الابواب ولاتفتح الا بعد ساعة على الاقل اذا اجتمع العدد الكافي من المتفرجين وتخرج البراغيث كالسابق وهكذا دواليك وهذا مما يحار به الفكر .

محمود فخري ميوب :

في احدى ليالي المرفع كنت اسير انا وفخري ونظراً للازدحام

تأخر عني بالسير وبما انه قصير النظر كان يضع على عينيه نظارات « منمّرة » وكانت « موضة النظّارات » ان تكون بلا حمالات ترتكز على الآذان بل كان لها سلسلة تعلق بقبة الرداء وبينما انا اسير سمعت صوت خفري ينادني فعدت لارى واذا برجل بدين يضرب خفري على رأسه ويقول « فوتر شاپو فوتر شاپو » يعني قبعتك قبعتك وخفري مخبول بين يدي الافرنسي ومناظره في الارض فعدت بسرعة ودخلت بينهما مستفسراً عن سبب الشجار ففهمت ان خفري صدم الافرنجي دون انتباه وطلب « البردون » بالفم فقط دون ان يرفع القبعة وكانت الصدمة شديدة فما كان من الافرنسي الاان جعل يضرب خفري على قبعته ويقول قبعتك حتى غطى بها عينيه ورمى مناظره في الارض ففرقت بينهما ولكن الافرنجي زادها « بالبهورة » فصفعته صفعة رنت لها جوانب المكان ورفعت العصا الجلد وهددته بانه اذا اتى باقل حركة فسوف يرى مالايسره فكسر الشر ومضى بحاله واتممنا الليلة على خير .

***

السفر الى شالون سورسون :

صحوت في الساعة الخامسة من يوم الاربعاء الواقع / ٢٩ اذار / ١٩١١ وكنت قطعت جميع علائقي وحضّرت حوائجي وجاء محمود خفري مع المدام بلانش كومو وفؤاد المصري وخرجنا جميعاً الى محطة « بروتو »

وصحبتنا المدام شوبان مع ابنتها وودعتهم وبكتا وبكيت ووصلت الى (شالون سورسون) في الساعة العاشرة فوجدت السادة الامير مصطفى الشهابي وعز الدين علم الدين وعبد الغني الشهبندر وهم شبان البعثة السورية الاولى التي ارسلت الى فرانسا سنة ١٩١٠ بانتظاري في المحطة لاني كنت اعلمتهم قبلا عن يوم سفري فجاؤوا المحطة وعلى رؤوسهم الطرابيش ولما رأيتهم قلعت

« الكسكيت » قبعة السفر ووضعت الطربوش ودخلنا شالون على هـــذه الصورة فكنا مطمح الانظار وذهبنا الى الدار التي يقطنها الرفاق واسترحنا قليلا ثم خرجنا للتفرج على البلدة واول ماروني اياه مدرستهم ثم متحفاً صغيراً فيه بعض حوائج الأمير عبـــد القادر الجزائري منهـا برج حصانه مع رُكـبه وغير ذلك من اشيائه الخاصة التي حصل عليهـــا الافرنسيون في الحروب التي حصلت بينها « رسم الامير عبد القادر جاء في الجزء الاول بالخطأ حيث كان المراد وضع رسم ولده الامير علي فليرجع اليه من شاء من القراء » وشالون سورسون مدينة صغيرة تقع على بعد ٢٨٠ كيلو متراً تقريبـاً من باريس مدرستها الزراعية في الضواحي تقع على بعد ١١ كيلو متراً من المدينة ومدرستها تدعى :

البعثة الدمشقية الى فرانسا سنة ١٩١٠ من اليمين عبد الغني الشهندر الأمير مصطفى الشهابي الواقف عز الدين علم الدين

المدرسة التطبيقية للزراعة والكروم (Ecole pratique d'agriculture et de vidiculture) واراضي البلدة تخرج احسن الخمور سكانها ٢٥٠٠٠ الفا فيها معامل حديد، وفخار، وزجاجات الخمر وبرانيط « كفوف » قفافيز، زيت، الخ.. ولما حان وقت القطار اوصلني الرفاق الى المحطة ودعتهم ومشى القطار الى ديجون ومنها الى باريس ووصلتها بعد منتصف الليل وكان في انتظاري الدكتور احمد قدري الذي كتبت اليه اعلمه عن الساعة التي اصل فيها ولم نكن نعرف بعضنا الا بالأسم وهو قريب خطيبتي لأمها ولأجل ان يعرفني من بين الركاب اخبرته اني سأضع في صدر ردائي وردة حمراء تفرقني عن الناس وبالفعل لم يكد ينظر الوردة الحمراء، حتى عرفني فأخذني الى اوتيل « كوجاس » في « كارتيه لاتان — الحي اللاتيني » وهو مركز الطلبة وفي اليوم الثاني تعرفت الى عوني عبد الهادي ورفيق التميمي وهما من شبان فلسطين اللامعين وقضيت بضعة ايام اسمى فيها مع قدري للدخول الى مدرسة كرينيون الزراعية وبينما نحن جادون في امر الدخول الى المدرسة وترجمة الشهادة واذ بكتاب من نسيب بك البكري جواباً على كتاب مني كنت شوقته فيه المجيء الى فرنسا ولو فراراً اذا لم يوافق والده ووقع الكتاب بيد عطا باشا البكري الذي طار عقله على ولده ووضعه تحت المراقبة الشديدة حتى كاد ان يزهق انفاسه .

وقد اعلمني بكتابه ان والدي اقسم يميناً مغلظة بعد عودته الى دمشق انه لن يرسل اليّ غرشاً واحداً ولو بلغه اني في حالة التلف واوصاني بان اغير فكري واستعيض عن التحصيل بسياحة صغيرة اطّلع فيها على بلاد الغرب وادرس احوالها واعود لأجل ان يزوجوني ويفرحوا

بي على رأيهم وبما اني اعرف والدي وعناده وليس لي من يرسل مايكفيني مؤونة التحصيل ولما لم اكن اعرف لغة القوم ولا يمكنني العمل لتحصيل مصروفي عزمت على العودة الى دمشق وقررت ان ابدل التحصيل بالسياحة وكان من الشبان الذين تعرفت اليهم ثلاثة اطباء اتموا تحصيلهم في باريس ومرادهم الرجوع فاتفقت معهم على ان نصطحب في السفر ونعود الى الآستانة بالسكة الحديدية الشرقية ومنها الى بيروت في انبحر وهكذا كان والاطباء هم المرحوم الطبيب الامير شريف الشهابي والطبيب الامير عز الدين الشهابي والطبيب احمد راتب وسأذكر سفرنا بالتفصيل .

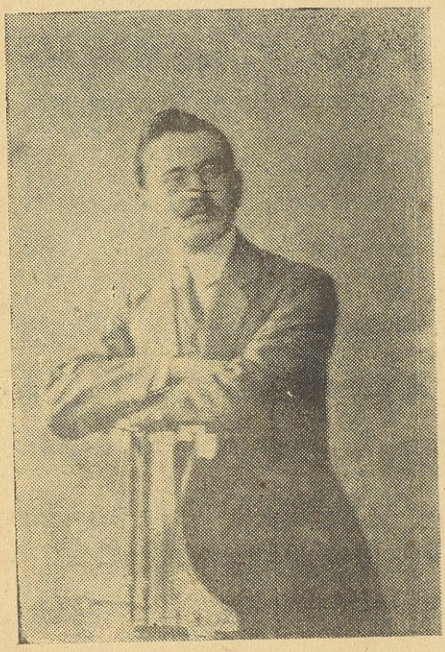

الدكتور احمد قدري

***

البانسيون في باريس :

في اليوم الرابع من وصولي انتقلت الى بانسيون « دوفاميل » عند سيدة بولونية ارملة تدعى « المدام كدوكو فيشكا » لها ولد صغير في السادسة من

عمره تعيش وابنها من واردها من هذا البانسيون الواقع في ٣ ، رودوليستر اباد ، وعدد السكان ١٨ طالباً وطالبه اكثرهم من البولونيين منهم الدكتور قدري والداعي لله .

***

معلمة الأفرنسي :

وكانت صاحبة البانسيون اتفقت مع سيدة افرنسية تسمى المدام (كوبير) ان تتناول الغذاء مع الطلاب لتصحح لهم الكلام اثناء الطعام وتعطي الدروس الافرنسية لمن شاء منهم مقابل فرنكين في الساعة ، وقد اتفقت معها على اخذ درس ساعة في كل يوم وبالفعل بقيت تدرسني مدة اقامتي في باريس وقد افدت منها كثيراً في هذه المدة القليلة التي قضيتها معها اذ بالطريقة التي كانت تتبعها في التعليم وهي طريقة « برليتس » أصبحت أتمكن من فهم مايقال وتفهيم المرام بالأشياء الضرورية اللازمة .

***

شبان العرب في باريس :

مع الأسف لم يكن في باريس من ابناء العرب من الطلاب الا عدد قليل بالنسبة الى غيرهم من الأمم ، والذين تعرفت بهم غير من ذكرت سابقاً السادة : محمد الحمصاني ، عبد الغني العريسي من بيروت ، محمد رستم حيدر من بعلبك وتوفيق الناطور ، وتوفيق فايد ، هؤلاء الذين كنت اجتمع اليهم طوال المدة التي بقيتها في باريس واجتماعنا على الأكثر كان في غرفة عوني عبد الهادي الذي قضى مدة طويلة في تحصيل الحقوق وتعليمه على حساب والده وهؤلاء الشبان كان بعضهم مرسلا على حساب الدولة كما سيأتي :

البعثات العلمية :

قبل الانقلاب العثماني كانت البعثات العلمية الى اوروبا في حكم العدم الا بعض الضباط الذين كانوا يرسلون الى المانيا وكان بعض احرار الترك يفرون الى اوربا من الأستبداد الحميدي ولكن الحكومة الاتحادية في سنة ١٩١٠ أجرت فحصاً لمخرجي التجهيز في الآستانة والذين نجحوا فيه ارسلوهم الى فرانسا ولما كانت اللغة الأفرنسية هي المنتشرة اكثر من غيرها ارسل جميع افراد البعثة الى فرانسا والأكثرية الساحقة كانت من الأتراك والذين دخلوا الفحص ونجحوا من ابناء العرب هم :

محمد رستم حيدر ، رفيق التميمي فدخلا في مدرسة « سان لويس » الثانوية وحصلا على شهادتها واتما تحصيلها العالي في جامعة الصوربون .

وقد ارسلت الجمعيات الوطنية في بيروت السادة محمد الحمصاني وتوفيق الناطور وعبد الغني العريسي وتوفيق فايد وهؤلاء من الذين وضعوا اساس جمعية عربية الفتاة التي سيأتي ذكرها فيما بعد .

***

متاحف باريس :

المتحف « musée » توضع فيه الآثار القديمة والعاديات التي تعثر عليها الحكومة من الحفريات وفي باريس عدة متاحف اهمها متحف اللوفر ومتحف فرسايل وكلاهما من قصور ملوك فرانسا والمتحف العسكري « الأنفاليد » وفيه قبر وقبعة الأمبراطور نابليون وبعض الحوائج التي يستعملها وفي هذا المتحف انواع اللباس العسكري على اختلاف العصور وفيه كثير من الرايات التي اخذتها الجيوش الأفرنسية في الحروب المتعددة في جميع

العصور ونماذج من لباس الفرسان والمشاة مع جميع انواع الاسلحة التي استعملها الجيش الأفرنسي في مختلف الأزمان .

***

مايجلب النظر في باريس :

باريس جنة الله في الارض فيها من كل فاكهة زوجان لايطلب الانسان فيها شيئا الا ويجده . هي دار العلم والعرفان كما انها دار الدعارة والطغيان وهي كعبة السياح ومنزل الطلاب ، مرتع الجهال ومقصد المحتال مثل البحر الداخل اليها مفقود والخارج منها مولود وبالرغم عن ملايين الليرات التي تدخلها بواسطة السياح فان اكثرية اهلها

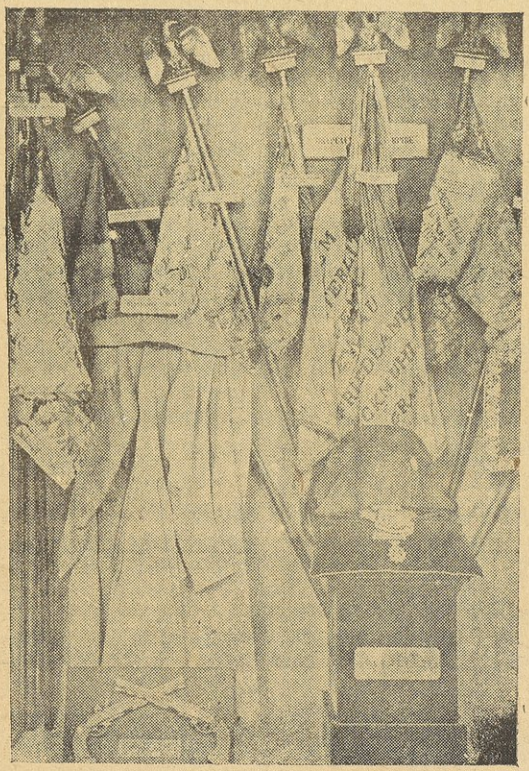

قبعة نابليون ورايات الجيش الأفرنسي وغدارات الامبراطور

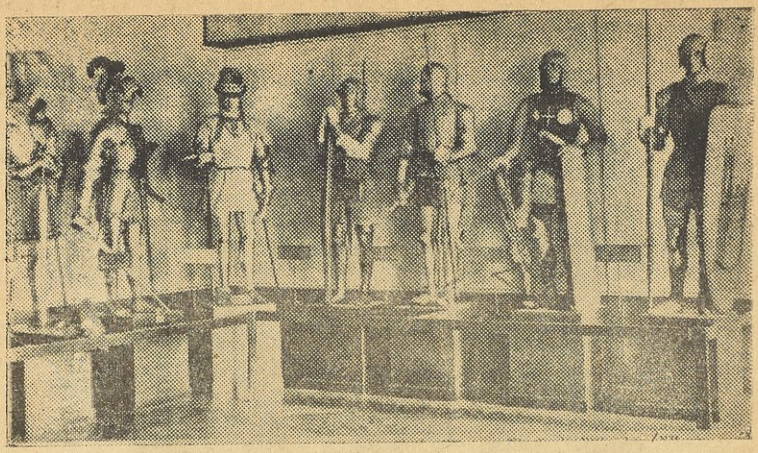

لباس الجند المحارب في متحف الانفاليدمن المشاة

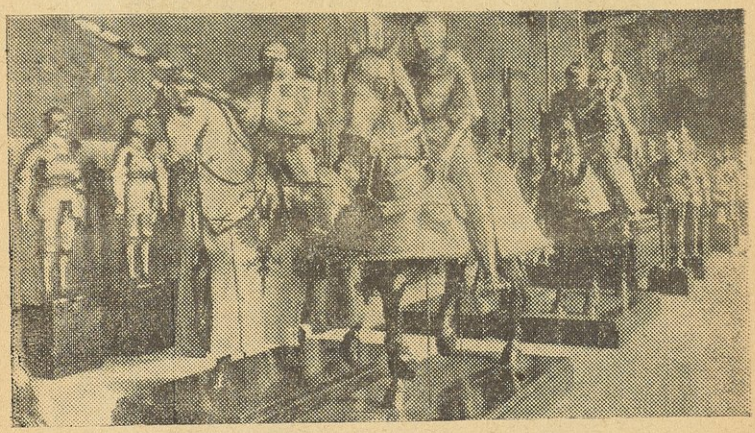

متحف الانفاليد العسكري لباس الجنود المحاربين من الفرسان

فقراء تجمع المتناقضـــات وتطيب لكل انسان فيها الحياة واهم مايستلفت النظر فيهامن البنايات العظيمة (توراايفل) البرج الحديدي احد عجائب الدنيا واهم مايلفت النظر ايضاً كثرة الطلاب الاجانب منهم التشيكيون

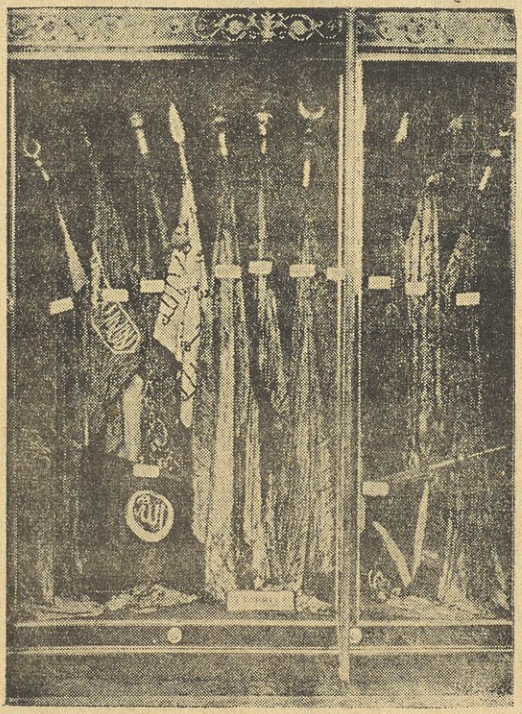

بعض الأعلام التي كسبها الأفرنسيون في حروبهم

وعددهم يزيد عن الخمسين الف طالب وطالبة يأتي من بعدهم البولونيون وعددهم يزيد عن الاربعين الفاً وبعدهم ياتي اليابانيون ويتراوح عدد طلابهم

بين العشرين والخمسة والعشرين الفاً والغريب في امرهم اني لم أر طالباً يابانياً واحداً في غير ايام الآحاد (يعطعط) في المحلات العامة وكان من المصريين مقدار مائة وخمسين طالباً « والمصريون فيهم البركة بالعطعطة » ولم ار طالبة عربية واحدة بين الوف الطالبات الاجنبيات اما الطلاب العثمانيون فكان عددهم ثلاثون طالباً ليس بينهم طالبة وهذه البعثة العثمانية الاولى (طالبان) منها عربيان وثلاثة ارمن وروميٍ واحد وخمسة وعشرون طالباً من الاتراك وكان من ابناء العرب غير هؤلاء بعض الطلاب من بعثة الجمعية الخيرية البيروتية والبعض على حساب اهليهم وهؤلاء جميعهم لا يزيد عددهم عن الخمسة عشر طالباً سيأتي ذكرهم فيما بعد وهذا مما يزيد الحسرة في نفسي لتأخر امتي في ارسال البعثات ومن قرأ تاريخ نهضة مصر الحديثة ايام الخديوي محمد علي يرى ان البعثات التي ارسلها الى اوربا كان لها الباع الطويل في نهضة مصر وعمرانها .

برج ايفل : باريز

ومن أجمل المباني التي تستلفت النظر في باريس مسرح الأوبرا

وكنيسة (نوتردام) وكنيسة (مادلين) وساحة (الكونكورد) التي فيها المسلة الفرعونية التي اخذت من مصر وتياترو الشاتله وتياترو ساره برنار الممثلة الشهيرة التي لم أر تمثيلها لسوء حظي مع انهـــا كانت على

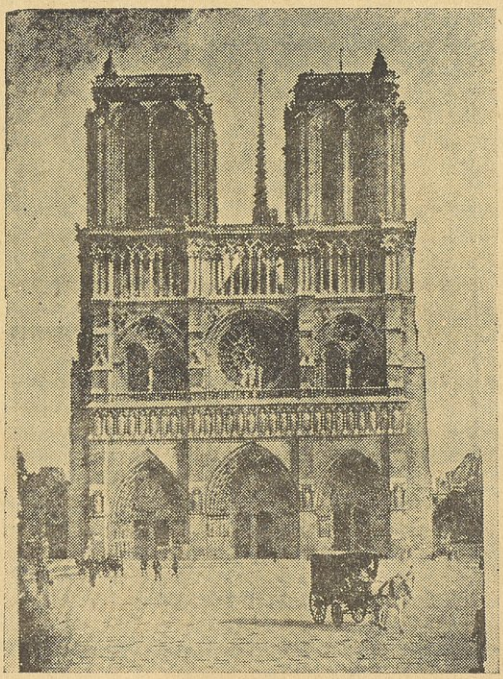

كنيسة نوتردام دوباريس

قيد الحياة والحاصل لايمكن الواصف ان يصف باريس من ناحية او نواح خاصة بل كل مافيها حسن جميل من واجب كل من يقدر على السياحة من الأغنياء ان يزورها ولو مرة في العمر .

انبعاث الحركة العربية :

في سنة ١٩١١ تأسست جمعية عربية الفتاة في باريس وقبل البحث في تأسيسها ورجالها وأعمالها لابد لي من الرجوع بالقارىء الى ماقبل الانقلاب العثماني والتبسط قليلا بالبحث عن العوامل التي ايقظت في العرب روح الوطنية وكنت ذكرت في الجزء الأول شيئاً عن الانقلاب العثماني وعوامله ولكن البحث كان مقتضباً جداً ولذا رأيت ان امهد للابحاث الآتية بكلمة لابد منها ليقف الشبان الذين لايعرفون عن العهد الحميدي الا الاسم وليعرف الحقيقة من يطالع المذكرات من الشعوب المسلمة خصوصاً المصريين الذين لايزالون يلومون لنا لقيامنا على الدولة العثمانية ومحاربتنا اياها مع ان الأتراك اخواننا في الدين فأقول :

***

الدور الحميدي :

السلطان عبد الحميد الذي تبوأ عرش بني عثمان ثلاثة وثلاثين سنة لايكفي لذكر دوره عشرات الأجزاء من هذه المذكرات وفي كتب التاريخ مافيه الكفاية عن ذلك. ولكن الذي يهمني ان يعرفه القراء ما كانت عليه حالة البلاد في عهد هذا السلطان وشيء من الأعمال التي قام بها بعد اعتلائه العرش العثماني عقيب خلع عمه السلطان عبد العزيز واخيه السلطان مراد وقد أخلف بوعده لأحرار الترك وعطل الدستور للمرة الأولى قبل ان تمر سنة على اعلانه ونفى شيخ الأحرار مدحت باشا الى الطائف وقد قيل انه ارسل من قتله فيها وفر الكثيرون من احرار الأتراك الى اوربا خوفا منه وفي اوربا اصدروا الجرائد ونشروا النشرات ضد العهد الحميدي. ساعدهم بهذه الدعايات الدول الأوربية من اصحاب المطامع في الولايات العثمانية تلك

الدول التي كانت تنتظر تقسيم تركة « الرجل المريض » ويعنون به الدولة العثمانية وانسلاخ بعض الولايات العثمانية عن جسم الدولة أثار الرأي العام ضد السلطان عبد الحميد الذي اصبح اسمه مقروناً بالظلم والاستبداد مما ساعدهم اخيراً على القضاء عليه باعلان الدستور للمرة الثانية ثم بخلعه من العرش العثماني.

والسلطان عبد الحميد قضى أيام حكمه بالخوف والهلع والأكثار من تعيين الجواسيس حتى قالوا ان الجواسيس في آخر ايامه كان عددهم يزيد عن الثلاثين الفا في الدولة العثمانية وجميع هؤلاء كانوا يتناولون الرواتب من خزينة الدولة ويقومون بالتجسس داخل البلاد العثمانية وخارجها وقد كمّت الأفواه وكسرت الاقلام وحُكمت البلاد بطريقة استبدادية هلعت لها القلوب.. والتف حوله بعض شياطين الانس من جميع الاجناس والعناصر وجعلوا يزينون له البطش بالاحرار ويفترون على الناس ومن له خصم يقدم بحقه التقارير الكاذبة مما يسبب له ولعائلته الشقاء وقد ذكر بعض المؤرخين ان اكثر من ظلموا في ايامه وسجنوا كانوا من الابرياء وذهبوا ضحية اخصامهم الذين وشوا بهم او ضحية لفاقدي الاخلاق من الجواسيس الذين يخترعون الوشايات ليحوزوا على رضا السلطان هذا ما كان يتهم به اخصام العهد..

***

الجرائد في ذاك العهد

اما الجرائد في عهده فكانت عبارة عن صحف تجارية ليس لها هم الا كسب الدراهم وتضليل الامة بالاخبار الكاذبة التي ترضي جلالة السلطان وتكيل الثناء بالكيل الوافي له ولوزرائه وكبار رجال الدولة بحيث لم يكن احد من الناس يقرأ في جريدة واحدة اي انتقاد لأصغر موظف ولا ترى في الجرائد الا المدح والثناء على السلطان واعماله المجيدة وتمجيد اعماله

الموظفين بحق وبغير حق وشكر « صاحب الشوكة » يعني السلطان بمناسبة وبغير مناسبة والجريدة التي تعارض او تنتقد ولو بالاشارة فجزاؤها الاغلاق وسجن صاحبها ومحرريها .

وليت بالامكان ذكر بعض ما كانت تكتبه الجرائد من مدح للسلطان عقيب انسلاخ كثير من البلاد عن جسم الدولة في زمن السلطان عبد الحميد خان الثاني ! ولكن المجال غير مساعد والبلاد العثمانية التي سلخت عن جسم الدولة في عهده هي :

١ — ولايتا الفلاخ والبغدان استقلتا اي بعد تولي عبد الحميد بسنتين وسميتا دولة رومانيا سنة ١٨٧٨ .

٢ — ولايات سلسترة وودين ونيش استقلت سنة ١٨٧٨ ايضا وسميت دولة بلغاريا .

٣ — ولاية الروم ايلي الشرقية وهي جنوبي بلغاريا .

٤ — الجبل الاسود « قره طاغ » استقل سنة ١٨٧٨ .

٥ — الصرب استقلت ١٨٧٨ .

٦ — قبرص احتلها الانكليز ١٨٧٨ ،

٧ — ولايات اردهان والقارص وباطوم وارمينيا دخلت جميعها في حوزة الروس .

٨ — تونس الغرب دخلت تحت سلطة فرانسا سنة ١٨٨١ . .

٩ — تساليا اضيفت الى بلاد اليونان سنة ١٨٨١ .

١٠ — مصر احتلها الانكليز سنة ١٨٨٢ .

١١ — السودان فتحها الانكليز سنة ١٨٨١ كل هذا جرى بعد انكسار العثمانيين في الحروب الروسية العثمانية سنة ١٨٧٨ فكان لذلك صدى عظيم في

جميع البلاد واتخذ الاحرار الاتراك من ذلك سلاحاً لمحاربة السلطان عبد الحميد وحكوماته .

كل هذا كان يجري والعرب في سبات عميق قـــد خدّرهم اسم الدين واطاعة اوامر الخليفة التي امر بها الله في كتابه العزيز واطيعوا الله والرسول واولى الامر منكم . بهـذه العقلية كان الترك يحكمون العرب ولما اعلن الدستور واستولى شبان الاتراك على الحكم وهم رجال جمعية الاتحاد والترقي ومتنّو اقدامهم فيه كما ذكرنا سابقاً قلبوا ظهر المجن لجميع العناصر غير التركية من المسلمين وغير المسلمين ومن ذلك التاريخ قامت العنـاصر العثمانية بتشكيل الجمعيات السرية والعلنية والنوادي العنصرية وكان المسيحيون منذ القديم لهم تشكيلات سرية تساعدهم الدول الاوربية وتحميهم وبعد اعلان الدستور سنة ١٩٠٨ ظهروا الوجود وابانوا تشكيلاتهم القديمة وبالرغم عن اظهارهم الفرح والسرور باعلان الدستور فانهم كانوا يكيدون له سراً .

***

الجمعيات العربية :

في وسط هذا التيار تنبه أحرار العرب من الشبان واحسوا بالخطر المحدق بالبلاد العثمانية جميعها وحفظاً للكيان العربي بدأوا بتشكيل الجمعيات السرية والعلنية في مختلف الولايات ، فأول جمعيـــة عربية تأسست بعد الدستور هي :

***

جمعية الاخاء العربي :

أسسها في الآستانة كبار رجال الحكومة من ابناء العرب واجتمع

فيها عدد منهم من مختلف الأقطار من سوريا والعراق وطرابلس الغرب وغيرها والمؤسسون هم صادق باشا المؤيد من دمشق قومسير الدولة العثمانية في امارة البلغار وايالة الروم ايلي الشرقي وشكري بك الحسيني القدس مستشار وزارة المعارف .

وعارف بك المارديني عضو في مجلس شوراء الدولة واخيراً والي سورية اصله من ماردين تزوج احدى « البرنسسات » الأميرات في مصر وعاش فيها مدة طويلة وقد قابلته وهو والٍ في دمشق كما سيجيء . يتكلم باللهجة المصرية ومنهم يوسف شتوان بك احد المقربين للسلطان الذي انتخب نائبا عن متصرفية بني غازي في افريقيا وهو النائب الوحيد الذي فسخ المجلس النيابي انتخابه وقام

صادق باشا المؤيد

الدكتور احمد قدري ويوسف مخيبر حيدر مع بعض شبان العرب بمظاهرة دخلوا فيها الى المجلس واجبروا الأتحاديين على تصديق نيابته .

ومنهم نخلة بك المطران من وجوه بعلبك ومنهم المرحوم شفيق بك المؤيد

وهو من ابرز الشخصيات العربية واكثرها حركة ومن الذين شنقهم الأتراك ايام الحرب كما سيجيء .

***

عربية الفتاة :

هي الجمعية العربية السرية التي تأسست سنة ١٩١١ في باريس وانتي لعبت دوراً مهماً من ابتداء الحرب العامة الى ان انحلت بعد خروج جلالة الملك فيصل بن الحسين من دمشق وسأذكر الآن ماعرفته عن تأسيسها والمؤسسين وسوف اذكر فيما بعد بعض الأعمال التي قامت بها قبل و بعد تأسيس الحكومة العربية الفيصلية في دمشق حتى ايام انحلال الجمعية .

عارف بك المارديني

كل شيء اساسه الفكرة وفكرة تأسيس الجمعية العربية المسماة بالفتاة قامت برؤوس ثلاثة من شبابنا في الآستانة وهم عوني عبد الهادي من نابلس (فلسطين) والدكتور احمد قدري من دمشق (سوريا) ومحمد رستم حيدر من بعلبك

انّ هؤلاء الشبان كانوا ايام الانقلاب العثماني في الآستانة وقد تحمسوا للحرية حسبما تقتضيه سن الشباب فكانوا يتتبعون كل مظاهرة تقوم في الآستانة ويستمعون الى الخطباء الذين يثيرون الشعور بخطاباتهم وقد أثر فيهم تحامل الشبان الأتراك على كبار موظفي العرب كأحمد عزت باشا العابد الكاتب الثاني في «المابين»(١) والشيخ ابو الهدى الصيادي ونجيب باشا ملحمة وغيرهم

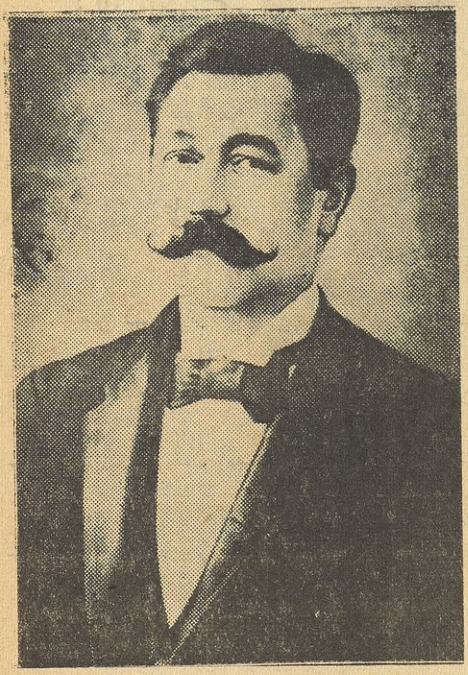

شفيق بك المؤيد

ومع ان الرجعيين من موظفي الدولة كان اكثرهم من الأتراك فكان الهجوم على ابناء العرب ٩٠٪ اكثر من غيرهم من موظفي الترك الذين لم يكن يذكر اسمهم الا عرضاً.

أثّر هذا التهجم على هؤلاء الشبان وجعلوا يفكرون بطريقة للخلاص من الأتراك فخطر لهم خاطر تأسيس جمعية مثل جمعية «جون تورك».

---

(١) المابين الدائرة الخاصة التي يجتمع فيها الوزراء في القصر الملكي العثماني ومن ثم اصبحت اسماً لسراي الحكومة ومقراً للوزراء.

تركيا الفتاة وهي التي قلبوا اسمها بعد الأنقلاب الى جمعية الاتحاد والترقي ومما يجب ان يذكر ان اول يوم فكروا فيه بهـــذه الجمعية يوم كانوا يمشون فيه بمظاهرة كبرى في حي (البك اوغلي) وهو اكبر حي في الآستانة يسكنه الأجانب يظن المار فيه انه في شارع اوربي سمعوا من الضابط سري بك احد الخطباء حملة شعواء على احمد عزت باشا العابد ووصفهم بالخونة فتحركت العاطفة العربيـة بهؤلاء الشبان وصاروا كلما قرأوا شيئا عن رجـال العرب في الجرائد او رأوا رســـومهم « الكاريكاتورية » التي لم يعتادوا عليها وتحتها كلمة عرب ومعناها عند الترك « الكلب الأسود » يحرقون الأرم

هكذا كانت الجرائد التركية ترسم رجالنا وتكتب تحت الرسم خائن عرب عزت

وبدأوا يفكرون بلزوم تأسيس جمعية عربية تحفظ كيان العرب ولا يستبعد ان تكون الغيرة من شبان الأتراك كان لها اعظم الأثر ايضاً في تشكيل الجمعية المذكورة ومما يجب ذكره ان العوامل التي دفعتهم للسرعة بتأسيس الجمعية هي الدعايات التي حركت النعرة التركية فصارت تزداد يوماً فيوماً حتى اصبح جميع

الاتراك نساء ورجالاً، شيوخاً واطفالاً في الشوارع والمساجد في الأزقة والمدارس لاينظرون الى العرب خصوصا الموظفين منهم الا بعين الأزدراء والاحتقار ولم يمض على هذا الانقلاب مدة حتى رفع الاتحاديون البرقع عن وجوههم وكشفوا عن ماتكنه ضمائرهم نحو العرب وغيرهم من العناصر العثمانية وجعلوا ينفثون في قومهم سمّ العنصرية التركية ويحبذون سياسة التتريك ويحضون الناس على تتريك جميع العناصر التي تتألف منها الدولة العثمانية وتبدلت كلمات عثمان وعثمانية بكلمات ترك وتركية !!!

كل هذا كان يجري في حين كان الخطباء لايفتأون ينادون بالحرية والاتحاد والمساواة والاخاء والعدالة حتى اصبحت هذه الجمل «كليشيه» ترددها جميع الأفواه ولكنها كانت عبارة عن اقوال فقط واعمال رجال الحكومة على خلافها تماما وقد ظهر هذا للجميع وذلك باستيلاء الاتراك على جميع مراكز الحكم وابعاد غير عناصر عنها والهيمنة على كل الشؤون في الدولة واسسوا لحزب الاتحاد والترقي فروعاً في جميع الولايات وجعلوا ادارتها في ايدي الموظفين الاتراك الذين عينوهم حديثاً واكثرهم من الشبان الأغرار الذين يعجزون حتى عن ادارة انفسهم واصبح اصغر موظف اتحادي يعامل الوالي القديم معاملة الآمر المأمور الصغير والتف حولهم الناس وجعلوا يدخلون في الجمعية افواجاً افواجاً ولم يقبلوا بينهم الا كل من كانوا يتوخون من ورائه فائدة مادية اومعنوية خصوصاً الذين بيدهم قوة انتخابية واكثر الذين التفوا حولهم وانتسبوا اليهم المرتزقة من وجوه البلاد ورؤساء الأحياء الذين يعتاشون من ابواب الحكام حتى ان الزعماء الحقيقيين للبلاد اضطروا للخضوع ومداراة الأتحاديين خوفاً على مصالحهم وصارت نوادي الحزب في الآستانة والملحقات مركز المراجعة

في جميع الأمور وقد ضعفت قوة الحكومة واستغنى كثير من الموظفين القدماء من اصحاب الكرامة عن وظائفهم حرصاً على كراماتهم واعظم ناحية ظهرت فيها نواياهم في المدارس العالية لما كان يظهر من الشبان الأتراك من التهور في المجادلات التي تحصل بين الطلاب ويفرضها سن الشباب وكم من مرة جرى النزاع بين شبان العنصرين التركي والعربي عقيب جدال سياسي في الصفوف وباحات المدارس .

ومن الحوادث التي كان لها تأثيرها على الأتراك هو اجتماع ابناء العرب من متخرجي الصف الأخير في مدرسة الملكية ١٩١١ وسحب صورة

اول صورة لطلاب العرب من خريجي المدرسة الملكية الثاهانية انفردوا برسم خاص

فوتوغرافية لهم وهم اول صف دخل في هذه المدرسة بعد الانقلاب وهم السادة : ١ - توفيق الطرابلسي : طرابلس الشام ٢ - مسلم العطار - دمشق ٣ نسيب الايوبي - دمشق ٤ مظفر البغدادي - العراق ٥ عبد الستار السندروسي - طرابلس الشام ٦ زكي التميمي - نابلس فلسطين ٧ عبد القادر عوض - دمشق ٨ توفيق الحياني حلب ٩ نسيب النابلسي دمشق ١٠ عاكف الجابري حلب ١١ عارف الخطيب حماة ١٢ عبد المالك الجيرودي جيرود دمشق ١٣ عمر زكي الأفيوني طرابلس الشام ١٤ معين الماضي حيفا - فلسطين ١٥ ثابت السويدي - العراق بغداد . بعد اخذ هذا الرسم علت الضجة بين الطلاب وبعد اخذ ورد ومنعاً للشر واظهاراً لحسن نية العرب نحو الأتراك اخذ الرسم الآني لعموم الطلاب المأذونين في ذلك العام مع اساتذتهم وبذلك خففوا شيئاً من حدة زملائهم شبان الأتراك الذين استلموا بعد مدة اكبر مراكز الدولة مما زاد في حقد مستنيري العرب خصوصاً رفقاءهم في المدرسة الملكية وعند وصولي الى الآستانة سأذكر بالتفصيل حركة شبان العرب والأعمال التي قاموا بها وتأسيس المنتدى الأدبي واخبار بقية الجمعيات العربية ولنرجع الآن الى مارأيته في باريس :

***

مأذونوا المدرسة الملكية الشاهانية سنة ١٩١١ مع المعلمين

ندره المطران :

قلت سابقاً اني قررت العودة الى البلاد ولذا اصبح من الضروري ان أطّلع على كل ما يمكنني الاطلاع عليه من بلاد الغرب ولما كانت السياحة تحتاج الى النقود وكانت نقودي قليلة جعلت اقتصد بقدر الامكان ولا تخرج القطعة من يدي الا « مسحاء » . وقد جلست يوماً في قهوة السلام « كافه دولايه » استريح من طول المسير على الأقدام وبما ان والدي لم يجاوبني على اي كتاب ارسلته اليه اضطررت ان اكتب كتابا الى صديقه المرحوم كمال افندي المهايني اخبره فيه عن عزمي على الرجوع الى دمشق ، وجلست جانبي سيدة جعلت تنظر الى الكتابة العربية وتتعجب وسألتني ماهذه الكتابة قلت عربية « فجفلت » وقالت انت عرب قلت نعم فتعجبت ولم تصدق وطلبت مني ان اقدم لها شيئا من المشروب فلم اقبل قالت انك لم تفهم ماارید قلت بلى فهمت انك تريدين ان تشربي المشروب وانا ادفع الثمن قالت نعم قلت لاارید قالت لماذا قلت لأني تلميذ فقير فضحكت وتركتني واذ برجل يسألني بالعربي انت من الشام يافندي قلت نعم قال ابن المهايني وقد رأى عنوان الكتاب قلت لا بل انا ابن البارودي قال ماذا يكون محمود بك لك قلت والدي فقام وصافحني وقال هذا اخي وكنت رأيت ندره بك مرة في دمشق في حفلة اقامها الأكراد لرجال الاتحاد والترقي في بدء ايام الانقلاب خطب فيها ندره بك وأجاد وحاز اعجاب الحاضرين مما ابقى في ذاكرتي اثراً طيباً له ولما عرفته قلت أولست حضرتك ندره بك المطران قال نعم من أين عرفتني قلت رأيتك مرة تخطب في دمشق وبقيت صورتك في ذاكرتي وانا معجب بك فدعاني للجلوس معه وقدمني الى شاب

افرنسي يفوتني اسمه بصفته رئيس تحرير جريدة « الجون ترك » التي كانت تصدر في باريس وفهم مني قضيتي وقال سأكتب الى والدك بلزوم ابقائك في باريس للتحصيل فقلت سبق السيف العذل وانا على اهبة السفر قال انا ايضاً معجب بك وبصراحتك وهذه المرة الاولى التي ارى فيها شاباً يمتنع عن اجابة طلب سيدة قلت لاجود الا من الموجود ودراهمي التي معي ربما تكفي لوصولي الى بلادي ولست مجبوراً للاستدانة لأجل ان اضيّف سيدة لاأعرفها فدعاني لتناول الطعام في مطعم « كراند اوتيل » ودعى المحرر وذهبنا بعربة . و « الاوتيل » واقع جانب بناية الأوبرا وقاعة الطعام كبيرة جداً فيها موائد كثيرة جلسنا على مائدة منفردة

***

بواسون آنكله :

واحضر لنا الندل « الكرسون » القائمة وبما اني ضيف الشرف قدم لي القائمة ، فأخذتها كأني اعرف القراءة وألقيت نظري عليها فوقع على كلمة « بواسون آنكله » فهمت منه سمك انكليزي فطلبت منه فقال لي نذره بك انك لاتقدر ان تأكل هذا اللون لأنه لايوافق مزاجك ولئلا اخجل امام الافرنسي قلت له اني استطيب هـذا اللون قال طيب وجاء السمك و « عينكم تشوف فخري » بعد ان تناولت اول لقمة ماذا حلّ بي لاأقدر ان اصف الحال التي وقعت فيها فقد جحظت عيوني واحتبست اللقمة في حلقي وكدت اختنق منها فشربت كأساً من اللبن الممزوج بماء الفيشي الى ان قدرت ان ابلع اللقمة الأولى ووضعت الثانية بفمي فكدت اقضي منها ولم أعد اعرف ماأعمل و « بألف زور » بلعتها بعد شرب كأس لبن وماء

الفيشي فنادى نذره بك الكرسون وقال له خذ هذا الصحن واحضر له صحن لحمة « شاتوبريان » وقال أما قلت لك انك لاتقدر ان تأكل هذا السمك قلت استحيت من رفيقك بأن ينظر اليّ بعين الأستخفاف قال لاتفكر بهذا وكل شيء لاتعرفه سل عنه قبل الاستعمال لئلا تقع بمثل ماوقعت فيه الآن ولا اقدر ان اصور للقارىء مقدار خجلي بعد هذا الفصل واخذت على نفسي عهداً بأن لاأمد يدي الى طعام لاأعرفه وكانت تلك الحادثة آخر ماوقع لي من نوعها ولم أقع في مثلها بعد ذلك اليوم .

تم الجزء الثاني : يتبع

مشتمل الجزء الثاني

الصفحة		الصفحة	
٣	الأهداء	٢٥	محكمة التجارة
٥	مقدمة : الجزء الثاني	٢٦	السفر من دمشق
٧	فكرة السفر الى اوربا مداوم في قلم محكمة الاستئناف والدي في الآستانة	٢٧	حيفا
١٠	الفنادق في دمشق	٣٠	سامي باشا مردم بك
١١	الخانات	٣١	في طريقنا الى الباخرة «قُصير»
١٣	خانات المدن	٣٥	مدينة يافا
١٤	« التجارة		مدينة بور سعيد
١٦	اخلاق التجار	٣٦	حركة الباخرة
١٧	الخزّامون	٣٧	الاسكندرية
٢٠	جناب الأكرم ، دام بقاه	٤١	الوابور « البرنس هنري »
٢١	التحارير	٤٢	صالونات الباخرة وغرف الطعام
٢٢	الكتّاب الخصوصيون القومسيونجية والمرابون	٤٣	ملاعب الباخرة
٢٣	امانة التجار	٤٤	في البحر الابيض المتوسط
٢٤	الأمانات الصغيرة ، طالب افندي الحلبوني	٤٦	الشطرنج
		٤٧	هل نسيت القبّة السيدات والشطرنج
		٥٠	العادات
		٥١	ام دوك

الصفحة		الصفحة	
٥٢	الكلاب في اوربا	٧١	تياترو الفاريتيه
٥٤	طلبت شرف كلبها ، الكلاب الأعمى	٧٢	كراندبال ماسكه
٥٥	هياج البحر	٧٤	معمل الخياطة
٥٧	ماذا رأيت في نابولي سوق الملك	٧٦	قاعة الرقص
٥٩	الفقر في ايطاليا	٧٧	رقصة الكادريل
٦٠	الغطاسون	٧٨	مرغريت ترقص
٦٢	اسرق من الفار	٧٩	الرقص الوداع
٦٣	آخر ليلة في الباخرة	٨٠	مونت بيليه
٦٣	غليظ افندي	٨١	المدارس الزراعية في فرانسا
٦٤	السفراء والقناصل في زمننا ، الامتيازات الاجنبية في البلاد العثمانية	٨٢	مدرسة مونت بيلية الزراعية انتقالي الى غرفة : البانسيون
٦٦	عباية	٨٤	قهوة دوليسبلاند المدرسة الزراعية
٦٧	حاكم ظالم	٨٦	في القطار الكلاب في القطار
٦٨	الامتيازات الاجنبية في بلاد الشرق الغاء العثمانيين الامتيازات	٨٧	التدخين ممنوع القت الغليون ، وصولي الى ليون
٦٩	تأثير القبعة على الشرقيين	٩٠	مقهى السلام ، فيرم ايكول
٧٠	حديقة الحيوانات	٩١	مدينة ليون

الصفحة		الصفحة	
٩٢	مدام شوبان	١٠٤	ما يجلب النظر في باريس
٩٣	اقتصاد الافرنسيات	١٠٩	انبعاث الحركة العربية ، الدور الحميدي
٩٤	صحن بفرنك ، مرافع نصف الصوم	١١٠	الجرائد في ذاك العهد
٩٦	خيمة المولوية ، الاسود	١١٢	الجمعيات العربية ، جمعية الاخاء
٩٧	رقص البراغيث محمود فخري ميوب	١١٤	عربية الفتاة
٩٨	السفر الى شالون سورسون	١٢١	ندره المطران
١٠١	البانسيون في باريس	١٢٢	بواسون انكله
١٠٢	معلمة الافرنسية شبان العرب في باريس	١٢٤	مشتمل الجزء الثاني
١٠٣	البعثات العلمية ، متاحف باريس	١٢٧	« « الاول
		١٢٨	جدول الخطأ والصواب

***

مشتمل الجزء الأول

الصفحة		الصفحة	
٣	الأهداء	٦٧	أنا وحسين عوني
٥	المقدمة	٧٠	الردة على الانقلاب
٧	هارب من الموت	٧٥	السلطان عبد الحميد
١٢	عهد الكتاتيب	٧٩	انا صاحب جريدة
٢١	من مدرسة الى مدرسة	٨٤	حياة التسلية
٣٠	سبع سنوات في الاعدادية	٩١	حياة البطالة
٤٣	من حياة ذلك العصر	٩٧	أنا جندي
٤٨	باشاوات وأوسمة	١٠١	دار العجزة والميتم
٥١	وسام ... للحمار	١٠٣	زواجي
٥٤	يقظة الروح العربية	١٠٦	المجتمعات الخاصة
٥٧	عيون تتفتح	١١٢	من ألوان الحياة في دمشق
٦٠	الانقلاب العثماني	١١٨	ليالي الأنس
٦٢	هزة الانقلاب	١٢٢	فهرست الخطأ والصواب

جدول الخطأ والصواب

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
١٣	٦	الأعلا	الأعلى
١٤	٧	يأمون	يؤمون
١٦	١٧	كان	ان كان
١٧	٢٠	حزامون	حزامين
٣٨	١٣	المتجولون	المتجولين
٤٩	٢٣	شيئاً بعيداً	شيء بعيد
٥١	٢٠	شفتاها	شفتيها
٥٣	٦	الدآب	الذئاب
٥٣	٩	هنّ	هم
٥٣	١٠	المباعة	المبيعة
٥٤	٢١	ثلاث	ثلاثة
٥٥	٢	ومضى	ومضت
٦٤	٧	حكومة	حكومته
٨٤	١٥	مقصر	مقصراً
٩٠	٨	المصريون	المصريين
١٠٩	١٢	ثلاثة	ثلاثاً
١١١	٨	استقلتا اي	استقلتا

يطلب الجزء الأول من مكتبة اليقظة دمشق تلفون ١٢٢٦٤

حقوق الطبع محفوظة
للناشر : عاطف العجم

ثمن النسخة
(١٠٠) ق

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY